

دار المبنی للطباعة والنشر

شَهْلَةُ نِسَمَةٍ

تشهد وتشرف دار المتنبي للطباعة والنشر بـ
نشر وطباعة كتاب، الموسوم بـ

رحلة إلى بوسادة والمسيلة

EXCURSION A BOU-SAADA ET M'SILA

تألیف: شارل دی غالان

ترجمہ: د. بلاں کشیدہ

المسجل إداريا برقم الإيداع القانوني:

ردیف: ISBN:978-9969-04-274-0

مدير دار النشر



حرر بتاريخ: 2026/01/21

حي تعاونية الشيخ المقراني طريق إشبيليا مقابل جامعة محمد بوضياف بالمسيلة / الجزائر
M elmotanaby.dz@gmail.com



الطبعة
الأولى

جانفي 2026

تأليف:

شارل دي غالان

ترجمة:

د. بلال كشيدة

رِحْلَةٌ إِلَى بُو سَعَادَةٍ وَالْمُسْلَةِ

EXCURSION
À BOU-SAADA ET M'SILA



شارل دي غالان
تُرجمة:
د. بلال كشيدة



رِحْلَةٌ إِلَى بُو سَعَادَةٍ وَالْمُسْلَةِ

EXCURSION À BOU-SAADA ET M'SILA



رِحْلَةٌ إِلَى بُو سَعَادَةٍ وَالْمُسْلَةِ

EXCURSION
À BOU-SAADA ET M'SILA

هذا الكتاب...

يعتبر كتاب "رحلة إلى بوسعدة والمسيلة" الذي دونه الرحالة الشهير شارل دي غالان أواخر القرن التاسع عشر شهادة تاريخية وثقافية مهمة، إذ يوثق الكتاب رحلة ميدانية اطلقت من الجزائر العاصمة مروراً بالبويرة وسيدي عيسى وعين الحجل، وصولاً إلى بوسعدة والمسيلة، ويقدم وصفاً دقيقاً للطبيعة الجغرافية، والواحات، والسهول، والجبال، بأسلوب يجمع بين السرد الأدبي والملاحظة الأنثربولوجية، كما يرصد أنماط العيش اليومية للسكان، وعاداتهم، وطقوس الضيافة، والفنون، والصيد، والحياة البدوية، ويولي المؤلف اهتماماً خاصاً بالمؤسسات الدينية كالزايا، ودورها الروحي والاجتماعي، خاصة زاوية الهمام وشخصية لالة زينب، ويتناول الكتاب أيضاً البنية القبلية، والعلاقات الاجتماعية، وتأثير الوجود الاستعماري الفرنسي في المنطقة، وتبرز قيمة العمل في اعتماده على المشاهدة المباشرة من خلال الصور التي ساهمت بشكل كبير في تعزيز صداقية السرد، مما يجعله مرجعاً مهماً لفهم تاريخ وثقافة منطقة المسيلة وبوسعدة والجزائر بوجه عام، وقد أسهمت ترجمتنا هذه في إحياء هذا النص، وتقريبه من القارئ مع الحفاظ على روحه الأصلية ودلائله التاريخية.

ISBN

978-9969-04-274-0

مقر دار النشر: حي تعاونية الشيخ المقراني
طريق اشبيليا مقابل جامعة محمد بوضياف - المسيلة
ال التواصل مع دار النشر: elmotanaby.dz@gmail.com

9 789969 042740
جميع الحقوق محفوظة ©
سنة النشر 1447 هـ / 2026 م
الهاتف: 0773.30.52.82 / 0668.14.49.75
فاكس: 035.35.31.03



Scan Our QR Code

رحلة إلى بوسعاده والمسيله

شارل دي غالان

ترجمة: د. بلال كشيدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رحلة إلى بوسادة والمسيلة

٤٠ المؤلف: شارل دي غالان / ترجمة: د. بلال كشيدة

•تنسيق داخلي للكتاب: دار المتنبي للطباعة والنشر

•مقاس الكتاب: 17/25

• الطبعة الأولى

• الناشر: دار المتنبي للطباعة والنشر

• الرقم الدولي الموحد للكتاب

ISBN :978-9969-04-274-0 •

• الإيداع القانوني: جانفي/2026م

• الحقوق: جميع الحقوق محفوظة ©

• مقر الدار: حي تعاونية الشيخ المقراني / طريق إشبيليا

مقابل جامعة محمد بوضياف / المسيلة - الجزائر

[• للتواصل مع الدار:](mailto:elmotanaby.dz@gmail.com)

[الموقع الإلكتروني: *elmotanaby.com*](https://elmotanaby.com)

• هاتف: 0668.14.49.75 / 0773.30.52.82

• فاکس: 035.35.31.03



شارل دي غاولن

ترجمة: د. بلال كشيدة

رحلة إلى بوسادة والمسيلة

2026

أڭھاڭھۇڭاڭڭاب:

-إِنَادِيُ الْأَلْفَرْنَسِيِّ

-إِجْمَوْعَةُ أَطْلَسِ التَّيْمِتَ هَذِهِ الرُّحْلَةُ تَحْتَ عَنْيَاهَا

-إِلْأَصْدِقَائِيِّ

ش. جوردان

غ. ييلو

بوسو

لوموان

لوايه

دِيلُورِي

بَارْتِيلِيمِيِّ

تاپارِي

الذِّينَ وَقَفُوا إِلَيْجَانِبِنا بِكُلِّ أَحَاسِيسِهِمْ وَمِشَاعِرِهِمْ

-إِلْأَلَةُ زِينَبِ

شارل دي غالاز مارس 1899

Table des Matières

19	AVANT-PROPOS
21	مقدمة المترجم
25	مقدمة المؤلف

Chapitre I D'ALGER A SIDI-AÏSSA

D'ALGER A BOUÏRA.....	29
DE BOUÏRA A SIDI-AÏSSA.....	32

الفصل الأول

من الجزائر إلى سيدى عيسى

37	من الجزائر إلى البويرة.....
40	من البويرة إلى سيدى عيسى.....

Chapitre II SIDI-AÏSSA

LE MARABOUT SIDI AÏSSA.....	45
CHEZ LE CAID: LA RECEPTION, LA FANTASIA.....	47
LES GRANDS CHEFS	49
LES TENTES. LES CHEVAUX. LES LEVRIERS. LES FAUCONS	49
LES KOUBAS.....	51
LE FELLAH.....	51
LA VIE ERRANTE.....	52

LA DIFFA	53
----------------	----

الفصل الثاني

سيدي عيسى

57	مراكب سيدي عيسى
59	في حضرة القايد: الاستقبال، الفروسية
61	كبار الزعماء
61	الخيام، الخيول، السلوقي، الصقور
63	القباب
64	الفلاح
65	الحياة المتنقلة
65	الضيافة
68	الليل

Chapitre III AÏN-HADJEL

LE LEVER DU JOUR A SIDI-AÏSSA	71
L'ARRIVEE, NOUVELLE FANTASIA. LES DEUX SORCIERES.....	72
FAUCONS ET FAUCONNIERS	74
LA CHASSE.....	77
LE RETOUR. LE SOIR.....	79

الفصل الثالث

عين الحجل

83	شروق الشمس في سيدي عيسى
84	الوصول، نوع جديد من الفروسية. الساحرتان
85	عين الحجل
86	صقور ومدربوها
89	الصيد
91	العودة. المساء

Chapitre IV ENTRE AÏN-HADJEL ET BOU-SAÂDA

DANS LE PAYS DES OULAD SIDI-BRAHIM	95
AIN KERMAN	96
EN VUE DE BOU-SAADA	98

الفصل الرابع

بين عين الحجل وبوسعادة

103	في بلاد أولاد سيدي إبراهيم
103	عين خرمان.....
105	على مشارف بوسعادة

Chapitre V

BOU-SAÂDA

LES FONDATEURS DE BOU-SAADA BEN RABIA. SIDI THAMEUR. SI DEHIM	109
L'OCCUPATION FRANÇAISE: ZAATCHA. LE CAPITAINE PEIN.....	111
LE CERCLE MILITAIRE. LES TRIBUS. LES OULAD NAIL	114
ALTITUDE. CLIMAT. HABITANTS	116
LES JUIFS. DESCRIPTION INTERIEUR	117
LES M'ZABITES LE COMMERCE.....	121
LE QUARTIER EUROPEEN LA VILLE ARABE LES FEMMES ET LES ENFANTS L'ECOLE..	122
LES MAISONS.....	128
LES MOSQUEES.....	129
BOU-SAADA VU DU HAUT DE LA MOSQUE	131
CHEZ L'EMIR EL HACHEMI BEN ABD-EL-KADER	132

(الفصل الخامس)

بوسعادة

مؤسسوا بوسعدة، بن رباع، سيدى ثامر، سي دهيم.....	137
الاحتلال الفرنسي، الزعاطشة، النقيب باين.....	140
الدائرة العسكرية، القبائل، أولاد نايل	142
الارتفاع، المناخ، السكان.....	145

اليهود، وصف داخلي.....	146
المزابيون والتجارة.....	150
الحي الأوروبي، المدينة العربية، النساء، الأطفال، المدرسة.....	150
المنازل.....	155
المساجد، مسجد أولاد عطية، السرر فوق السطوح، إنشاء الحمامات، جامع النخلة	
156.....	
بوسعادة المطلة على المسجد.....	159
في حضرة الأمير الهاشمي بن عبد القادر.....	160

Chapitre VI L'OASIS ET L'OUED BOU-SAÂDA

الفصل السادس

الواحة ووادي بوسعادة

Chapitre VII CHEZ LE NAÏLIA

LA MAISON	177
LES MUSICIENS	180
LES NAÏLIA.....	180
LES DANCES.....	181

M'BARKA.....	183
--------------	-----

الفصل السابع

في حضرة النايلية

189.....	المنزل
----------	--------

192.....	الموسيقيون
----------	------------

192.....	النايليات
----------	-----------

193.....	الرقصات
----------	---------

195.....	مباركة
----------	--------

Chapitre VIII EL-HAMEL

LES CONFRERIES RELIGIEUSES	201
----------------------------------	-----

LEUR ORGANISATION, LEUR REVENUS, LEUR INFLUENCE	204
---	-----

LA ZAOUIA	205
-----------------	-----

LES RAHMANIA.....	206
-------------------	-----

LA ZAOUIA D'EL-HAMEL. HISTOIRE ET INFLUENCE DU MARABOUT MOHAMMED BEN BELKACEM	209
---	-----

DE BOU-SAÂDA A EL HAMEL.....	212
------------------------------	-----

LE FILS DE MOKRANI	212
--------------------------	-----

EN VUE DE LA ZAOUIA. LA RECEPTION. LE TOMBEAU DU MARABOUT	215
---	-----

LELLA ZINEB.....	217
------------------	-----

الفصل الثامن

الهامـل

223.....	الطرق الدينية.
227.....	تنظيمات، عائدات، وتأثير.
228.....	الزاوية.
228.....	الرحمانية.
231.....	زاوية الهمـل، تاريخ وتأثير مرابط الهمـل محمد بن بلقاسم
234.....	أولاد المقراني.
237.....	مشهد الزاوية، الاستقبال، ضريح المـرابط.
239.....	اللة زينب.

Chapitre IX LE HODNA

LE HODNA. LA FLORE. LE CHOTT. LES CULTURES.....	243
TRISTE ATTELAGE	245
BANIOU.....	246
LE MIRAGE	247

الفصل التاسع

الحضنة

253.....	الحضرنة، الغطاء النباتي، الشط، المزروعات
255.....	العربة التعيسة.....
256.....	بنيو.....
257.....	السراب.....

Chapitre X M'SILA

HISTOIRE DE M'SILA.....	263
M'SILA PENDANT L'INSURRECTION DE 1871	266
LA COMMUNE MIXTE	268
LES HABITANTS NOMADS ET SEDENTAIRES.....	269
QUARTIER EUROPEEN ET VILLE ARABE, LE CHARLATAN, LES ARTISANS, LA PETITE PRINCESSE ET LA FILLE DE FELLAH.....	272
LES QUARTIERS DE LA RIVE GAUCHE	275
LES SCENES DE LA RUE	275
LES TROIS MOSQUEES: BOU DJEMLIN, SI OMAR BEN ABID	279
KHERBAT-TELLIS; LA PLAINE DE M SILA.....	279

الفصل العاشر

مسيرة

285.....	تاریخ المسیلة.....
289.....	المسیلة خلال ثورة 1871 م.....
292.....	البلدية المختلطة.....
292.....	حياة البداؤة والاستقرار.....
295.....	الحي الأوربي، المدينة العربية، المشعوذ، الحرفيون، الأميرة الصغيرة وبنت الفلاح ...
299.....	أحياء الضفة اليسرى، مشاهد من الشارع.....
303.....	المساجد الثلاثة: بوجملين، سي عمر بن عبيد، خربة التلisis. سهل المسیلة.....

Chapitre XI LE RETOUR

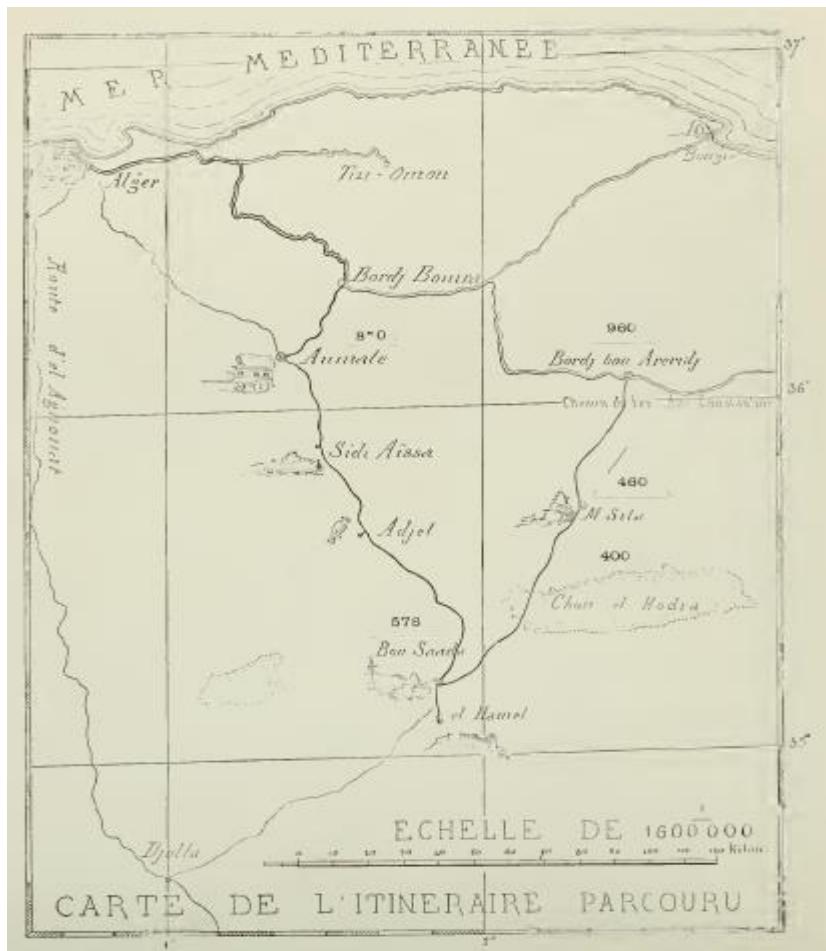
LE RETOUR	309
-----------------	-----

الفصل الحادی عشر

العودة

313.....	العودة.....
----------	-------------

خريطة الرحلة:¹



¹ ظهر المسارات على الخريطة الطرق المستخدمة خلال هذه الرحلة، ويبدا المسار من الجزائر العاصمة ويمتد جنوباً، مع تفرعات تتجه نحو الشرق إلى برج بوعريريج، والجنوب الغربي إلى سور الغزلان، كما توضح الخريطة وجود مسار آخر يمر عبر سidi عيسى وبوسعدة وصولاً إلى الهمام، ويُوضّح المسار الرئيسي محطات مختلفة مع الارتفاعات بالأمتار مثل أومال (850 متراً)، برج بوعريريج (960 متراً)، وبوسعدة (578 متراً)، وتشير الارتفاعات إلى مرور المسار بتضاريس متنوعة تشمل المناطق الجبلية والسهبية حيث تساعده في فهم الكيفية التي تنقل بها المؤلف بين المدن والبلدات في رحلته.

Avant-propos

Dans ce récit je me suis efforcé de peindre les paysages avec leur coloris, les villes sous leur véritable aspect; de décrire les moeurs avec sincérité, de traduire enfin mes sensations avec toute leur intensité. En une série de descriptions et de tableaux, j'ai voulu donner le reflet d'âmes obscures et la synthèse de la vie arabe. Y suis-je parvenu ? J'ose à peine l'espérer. On me reprochera peut-être d'avoir fait à la légende, à l'histoire, au passé une part trop large. Mais peut-on comprendre le présent sans se référer aux âges précédents ; les caractères, sans pénétrer les influences qui les ont formés ; la zaouïa et les khouan, sans montrer les évolutions de l'Islam et la vulgarisation, par les ouali, des idées religieuses?

Les documents sont autant de phares lumineux qui éclaireront notre route à travers l'immensité des solitudes, le mystère des villes et les obscurités du passé.

Un ami dévoué, un artiste délicat. M. Guiauchain, a su mettre en relief et en lumière les parties pittoresques du pavé que nous avons parcouru, et des scènes prises sur le vif. L'image sera un des principaux attraits de ce livre.

Au général Varloud, au commandant Crochard, au capitaine Pouget, au capitaine Rodet, chef du bureau arabe', au Lieutenant Claverie, au docteur Miramond, à Si Saïah, médecin de colonisation à Bou-Saâda, à M. Fournier de- M'Sila. Qui non-, aidèrent avec tant d'obligeance dans la préparation de notre voyage, à Si Abd-el-Kader ben M'hamed el Mobarek, dont l'hospitalité fut si généreuse, au cheikh Mohamed ben Hadj M'hamed. marabout de la zaouïa d'El-Hamel, à la marabouta Lella Zineb, qui voulut bien nous accueillir avec tant de bienveillance, nous adressons nos remerciements et l'expression de notre cordiale gratitude. Puissent-ils retrouver dans ce livre les traces d'une émotion et d'une admiration sincères.

مقدمة المترجم

يُعتبر كتاب "رحلة إلى بوسعدة والمسيلة" الذي ألفه الرحالة والكاتب الفرنسي شارل دي جالاند مرجعًا قيًّما لفهم الحياة الاجتماعية والثقافية في منطقتي بوسعدة والمسيلة، كونه يعكس تجربة فريدة لرحالة أجنبي في الجزائر، ويوفر رؤى عميقة حول تأثير الاستعمار الفرنسي، وفهمًا أعمق للبيئة الثقافية والاجتماعية في تلك المناطق، وقد تمحور الهدف الأساسي من هذه الرحلة حول تقديم نظرة شاملة ومفصلة عن منطقتي بوسعدة ومسيلة، اللتين كانتا معروفتين بتاريخهما الغني وثقافتهما المميزة.

لقد كان شارل دي جالاند (1851-1923) كاتبًا ومستكشفًا فرنسيًا شهيرًا، مهتمًا بتوثيق رحلاته في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وقد برز ذلك جلياً من خلال كتاباته العديدة على غرار كتاب الجزائر والجزائر (Alger et l'Algérie) الذي صدر سنة 1924، الذي قدم فيه تفاصيل مهمة عن الجزائر العاصمة والجزائر بشكل عام، وكتاب دفاتر الجزائر الصغيرة (Les Petits Cahiers Algériens Colligés) وهو مجموعة من الملاحظات والكتابات حول الحياة في الجزائر، نُشر سنة 1900، إلى جانب هذه الأعمال الرئيسية، نشر شارل دي جالاند عدة مقالات ودراسات أخرى تعكس اهتمامه الكبير بالثقافة والتاريخ والجغرافيا في شمال إفريقيا، وكانت أعماله تحظى بتقدير كبير نظرًا لدقتها وعمقها، وكتاب "رحلة إلى بوسعدة والمسيلة" ليست استثناءً.

يتكون الكتاب من 101 صفحة صادر عن دار النشر الفرنسية بول أولندورف¹ (Paul Ollendorff) التي قامت بنشر الكتاب في باريس سنة 1899 م، ويسرد المؤلف تفاصيل رحلته من الجزائر العاصمة إلى مدينة بوسعداء ثم إلى المسيلة، ويصف في طريق رحلته المناظر الطبيعية الخلابة والتضاريس المتنوعة لهذه المناطق، ولعل أبرز الأماكن التي وصفها المؤلف وصفاً دقيقاً وأعجب بها هي المدينة القديمة ببوسعادة وما اشتغلت عليه من أزقة ضيقة ومباني تقليدية مصنوعة من الطين، بالإضافة إلى سوق بوسعداء الذي يعتبر مركزاً رئيسياً للتجارة، وزاوية الهامل التي تعتبر مركز إشعاع ديني وثقافي بالمنطقة، مستعيناً في ذلك باللاحظات التفصيلية والرسوم التوضيحية التي أعدها الفنان ج. غياوشان والتي لعبت دوراً كبيراً في إضفاء الحياة على النصوص والوصف البصري للمشاهد والأشخاص.

ويندرج الكتاب ضمن أدب الرحلات الذي ازدهر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حينما كانت الجزائر مستعمرة فرنسية ووجهة شهيرة للعديد من المسافرين والكتاب الفرنسيين الذين كانوا يعتمدون استكشافها والتعرف عليها لفهم الثقافات المحلية ونقلها إلى القارئ الفرنسي. وقد قدم فيه المؤلف معلومات جغرافية دقيقة عن منطقتي بوسعداء والمسيلة، بما في ذلك التضاريس والمناخ والموارد الطبيعية، كما سلط الضوء على الأحداث التاريخية البارزة والشخصيات المؤثرة على غرار شخصية محمد بن الحاج ولالة زينب اللذين التقى بهما خلال زيارته لزاوية الهامل.

¹ أولندورف: ناشرٌ معروف في تلك الفترة، وكان له دور كبير في تقديم الأعمال الأدبية للجمهور الفرنسي.

لقد قام المؤلف بتسليط الضوء على العادات والتقاليد المحلية، بما في ذلك اللباس التقليدي، والطعام، والاحتفالات الشعبية، حيث وصفها وصفاً دقيقاً. بالإضافة إلى ذلك، تناول الفنون والحرف التي تشتهر بها بوسعدة والمسيلة، مثل صناعة الفخار والنسيج. كما قدم المؤلف تحليلًا مفصلاً للأنشطة الاقتصادية في منطقتي بوسعدة والمسيلة، متناولاً الزراعة، والتجارة، والصناعة المحلية، مع إبراز دور الأسواق المحلية وأهمية التجارة في الحياة اليومية للسكان.

من هنا فإن هذا الكتاب ليس مجرد وصف لرحلة، بل هو دراسة متعمقة للبيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمناطق التي زارها المؤلف، ووثيقة مهمة لفهم التفاعل بين الثقافة الفرنسية والثقافة الجزائرية المحلية خلال الفترة الاستعمارية، كونه يقدم معلومات قيمة للباحثين في مجالات التاريخ والأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية.

وتتجدر الإشارة إلى أنّ إنجاز هذه الترجمة لم يكن مجرد نقل لغوي للنص الأصلي، بل كان عملاً نقيضاً وتوثيقياً تطلب قراءة متأنية ومقارنة مستفيضة لمضمون الكتاب دامت قرابة أربعة سنوات، نظراً لطابعه الإثنوغرافي واحتوائه على معطيات جغرافية وتاريخية دقيقة تتعلق بمنطقتي بوسعدة والمسيلة خلال الفترة الاستعمارية، وقد استدعي ذلك ضبط أسماء المواقع الجغرافية والمسالك الطرقية التي سلكها المؤلف في رحلته انطلاقاً من الجزائر العاصمة وصولاً إلى بوسعدة ثم إلى المسيلة، والتحقق من صحتها.

كما اقتضت الإشارات التاريخية الواردة في النص-لا سيما المتعلقة بزاوية الهمامل وشخصياتها البارزة مثل لالة زينب ومحمد بن الحاج-الاستناد إلى مراجع أكاديمية إضافية لتحديد الإطار الزمني للأحداث وتفسير الخلفيات الدينية والاجتماعية المرتبطة بها. وإلى جانب ذلك، تضمن الكتاب أوصافاً تفصيلية للعادات واللباس التقليدي والحرف المحلية، مما تطلب عناية لغوية خاصة لاختيار المصطلحات العربية الملائمة التي تحافظ على الدقة الدلالية وتراعي الخصوصية الثقافية للمنطقة.

أما الرسوم التوضيحية التي أعدّها الفنان غياوشان، فكانت تتطلب بدورها قراءة تفسيرية دقيقة وربطًا منهجيًّا بينها وبين المدونات النصية للمؤلف، لضمان تقديم رؤية متكاملة للقارئ العربي تجمع بين البعد البصري والوصف الكتابي، وبناءً على ذلك، تأتي هذه الترجمة بصيغتها الحالية ثمرة جهد توثيقي وتحقيقي يهدف إلى الحفاظ على أمانة النص الفرنسي وإتاحته في قالب عربي رصين يتواافق مع متطلبات البحث العلمي والدراسة الأكاديمية.

والله ولي التوفيق.

مقدمة المؤلف

لقد اجتهدت في هذه القصة في رسم المشاهد بألوانها الحقيقية والمدن بمظاهرها الواقعية. وصورت الذهنيات بجدية وعبرت عن المشاعر بكل ما فيها من حدة. وذلك في فقرات وصفية ولوحات فنية لأنني أردت عكس التركيبة العربية الغامضة بأمانة، ولو أنني أشك بنجاحي في ذلك. فقد يتميّز البعض بسرد الأساطير من الماضي الواسع. ولكنني أدرك أنه لا يمكن فهم الحاضر إلا بالرجوع للعصور الماضية والشخصيات دون التطرق إلى مدى تأثيرها وللزوايا والإخوان دون التطرق لتطور الإسلام وتعديم اللغة على يد الأولياء الصالحين.

تعتبر الوثائق كلمات مضيئة تنير طريقنا نحو الغموض المنعزل فتكشف أسرار المدن وتضيء ظلمة الماضي.

صديقي المخلص غيوشا فنان عرف كيف يصور ويبين مناظر البلد المدهشة التي مرنا بها فكانت رسوماته الحينية بالفعل جزءا هاما من هذا الكتاب.

نتوجه بالشكر وأسمى عبارات التقدير لكل من الجنرال فارلو والقائد كروشار والنقيب بوجي والنقيب روبي ومسؤول مكتب الشؤون العربية والملازم كلافري والدكتور ميرامو وسي السايج طبيب الاحتلال ببوسعادة والسيد فورتييه بالمسيلة الذي ساعدنا ترتيب رحلتنا وسي عبد القادر بن احمد المبارك الذي تكرم باستقبالنا والشيخ محمد بن الحاج امحمد مرابط زاوية الهاشم والمرابطة لالة زينب التي استقبلتنا بحرارة. وأرجو أن يجدوا في هذا الكتاب ما يستحقون من مشاعر الاعتراف الإعجاب.

Chapitre I

D'ALGER A SIDI-AÏSSA

D'Alger à Bouïra

Le vendredi 24 janvier 1897, nous nous retrouvions, au nombre de douze, réunis en gare d'Alger. Ce groupe sympathique représentait, non pas les douze apôtres, mais tout simplement douze amis désireux de visiter le Sud algérien vers lequel ils se sentaient attirés depuis longtemps. Ils ne cédaient pas seulement au plaisir banal que procurent le voyage et le déplacement, mais à la séduction qu'exerce l'inconnu. Parmi nous, dois-je le dire? Il y avait de vieux Algériens qui ignoraient ces régions du sud. Des lectures et des récits nous avaient bien donné un avant-goût de cette excursion, quelques sensations mal définies, des notions incomplètes et des idées vagues. Nous supposions que le voyage serait agréable; mais aucun de nous n'eût été en état d'imaginer, dans leur ensemble, les impressions profondes et variées que la réalité devait nous donner dans ce pays.

On ne saura jamais assez combien notre Algérie est ignorée et des Français de France et des Algériens qui vivent et se confinent dans les grands centres. Pour beaucoup d'entre eux, l'Algérie entière se circonscrit sur la place du Gouvernement et sur les boulevards; aussi le seul écho qui traverse la Méditerranée provient du bruit discordant des luttes et des compétitions politiques, si mesquines et si stériles dans leurs résultats. Et pourtant les régions si riches du Tell et de la Mitidja, les massifs montagneux de la grande Kabylie, les Hauts Plateaux, les ksour, les oasis, les vastes solitudes elles-mêmes s'ouvrent devant non-connue autant de champs d'étude et d'exploration. Le paysage, le coloris, les habitants ne sont-ils pas faits pour éveiller l'intérêt et exciter la curiosité de l'artiste et de l'observateur ?

Plus on parcourt l'Algérie, plus on s'y attache et plus on l'aime. Tel est mon cas: il y a plusieurs années que je voyage à travers ce pays; et je me suis toujours efforcé, dans ma sphère d'action, de propager et de communiquer les sentiments d'admiration que j'éprouve. C'est du lyrisme, dira-t-on ! Non, c'est tout simplement un devoir que j'accomplis avec bonne foi et sincérité.

J'allais pouvoir enfin, en bonne et joyeuse compagnie, combler une lacune qui existait encore dans mon programme. C'est vous dire la joie avec laquelle nous entendîmes le signal du départ.

Avec de sourds halètements le train s'ébranla pour s'engager sur la combe gracieuse qui suit le rivage jusqu'à Hussein-dey. La mer, dans la rade, avait des irisations métalliques. L'atmosphère. Lavée par des pluies récentes, était d'une limpidité telle que l'on apercevait nettement, sur les rives opposées du golfe, connue des taches blanches et lumineuses, les fermes et les maisons du Fort de l'Eau et du cap Matifou.

Le train, avec des allures, hélas ! vite modérées, de grand rapide, passe devant Mustapha où se sont entassées, disgracieuses, les constructions lourdes et les cités ouvrières, devant les coteaux boisés et constellés de villas de Mustapha-Supérieur et du Hamma; puis traverse les cités industrielles de Husseindey et de Maison Carrée et prend la direction de l'est. Une fois de plus, nous emportons avec nous la vision de cette baie dont jamais on ne se lasse : vagues frangées d'écume, mer nacrée, sur laquelle semblent dormir des bateaux dont la voile teintée de rose se reflète comme dans un lac.



Nous voici dans la partie orientale de la plaine de la Mitidja: Rouïba, la Reghaïa. C'est toujours le même aspect: des fermes entourées d'eucalyptus, de vastes champs de vignes, des terres grasses et bien cultivées. Tout y témoigne d'une activité, d'une constance dans l'effort et d'une intelligence qui aboutissent à la prospérité et à la richesse.

On s'éloigne ensuite de la plaine de la Mitidja pour pénétrer dans la vallée du Bou Douaou, et le train s'arrête successivement à l'Alma, à l'Oued-Corso, à Belle-Fontaine et à Ménerville. Quand une station est pourvue d'un buffet, les voyageurs descendent en masse pour se munir de provisions abondantes, mais peu variées, et reviennent, les mains encombrées de pain, d'oeufs durs et de saucissons. C'est alors, pendant quelques instants, sur les quais de la gare, un grouillement de types disparates : des colons coiffés de larges feutres, des touristes anglais, des collégiens en vacances, des zouaves en congé, des chasseurs hauts guêtres, avec le fusil en bandoulière, y coudoient des Arabes, des Espagnols et des Italiens; les appels se croisent, les jargons se mêlent. . . . C'est d'un cosmopolitisme amusant.

Après les Beni-Amran, le train s'engage dans les gorges de Palestro qu'il traverse, tantôt sous des tunnels, tantôt à découvert, entre de hautes parois rocheuses au pied desquelles coule Tisser.

Aux champs de vignes succèdent des bois, des terrains argileux. 123 kilomètres sont franchis et le train stoppe à Bouïra.

De Bouïra à Sidi-Aïssa

Après le déjeuner en gare de Rouira, nous nous installâmes dans la diligence qui devait nous transporter jusqu'à Aumale, première étape de notre voyage.

De Bouïra à Aumale. Le paysage n'a rien de pittoresque. Sur le parcours, deux centres de colonisation Aboutville et Bertville. On a donné le nom d'Edmond About et de Paul Bert à ces villages naissants. Un peu plus loin, Aïn-Bessem, par l'importance de son marché, par l'extension de ses cultures et la richesse de ses vignobles, est en voie de prospérité.

Arrivés à 6 heures du soir à Aumale, l'antique Ausia des Romains, le Ksar R'ozlan (le rempart des gazelles) des Arabes, nous trouvâmes à l'hôtel Raveu un gîte confortable et une excellente nourriture.

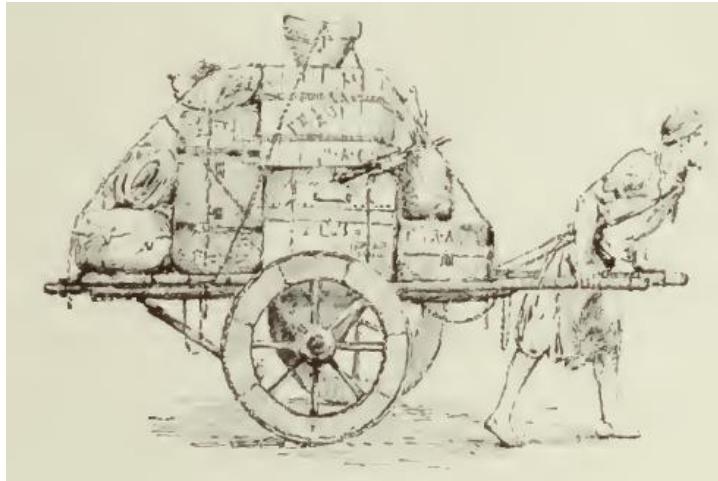
Le lendemain, toujours dans la même diligence, nous partîmes pour Sidi-Aïssa. Des brumes épaisse masquaient presque le massif montagneux; et le sommet neigeux du Dira, qui s'élève à 1812 mètres d'altitude, se montrait comme une tache dans la brume. Le pays commençait à prendre du caractère et de la grandeur. On croisait dans le brouillard des chameaux chargés, des Arabes derrière leurs bourriquots, un petit soldat conduisant deux mulets.

Après une rude montée où nos sept chevaux tirent preuve d'une rare vigueur, nous commençâmes à descendre les contreforts du Dira vers Sidi-Aïssa et la région des Hauts Plateaux.

A ce moment-là, les rayons du soleil trouèrent la masse épaisse des brumes et éclairèrent l'immensité qui se déroulait sous nos yeux. Nous eûmes une première sensation de la solitude sans fin. En un val verdoyant un pasteur indigène faisait paître ses moutons.

Au loin, dans la limpidité de l'atmosphère, apparaissaient, avec des dimensions d'une vraie cite, une kouba blanche, des maisons, des arbres. En réalité, ce n'était que la petite agglomération qui est formée par les bâtiments militaires, une auberge et quelques habitations.

C'est là que nous fûmes reçus avec beaucoup d'empressement et de courtoisie par le capitaine Pouget, le lieutenant Claverie et le docteur Miramond.



الفصل الأول

من الجزائر إلى سيدي عيسى

من الجزائر إلى البويرة

في يوم الجمعة الرابع والعشرون من شهر جانفي 1897 التحقت بمجموعة من المبشرين في محطة الجزائر. كنا مجموعة لامعة ضمت اثني عشر شخصا لم نكن فريقا فقط بل أصدقاء. كلنا متلهفون لزيارة الجنوب الجزائري الذي لطالما حلمنا بزيارته رغبة في اكتشاف المجهول وليس لمتعة السفر وحسب¹. كان معنا شيخان جزائريان ليس لهما علم بالجنوب وقد خيم على هذه الرحلة الكثير من الغموض والشعور الغريب بالرغم من القراءات والأفكار التي سمعناها حول تلك المناطق.

لا نعرف إلى أي مدى يجهل الفرنسيون الجزائر التي نشأوا فيها ولا الفرنسيين بفرنسا ولا حتى الجزائريين أنفسهم الذين يقيمون في المدن الكبرى. ذلك لأن الكثير منهم يرى أن الجزائر تنحصر في مقر الحكومة في المدن الكبرى. لذا فإن الصدئ الوحيد الذي يعم البحر الأبيض المتوسط يصدر عن نشاط النضالات والمعارك السياسية بكل أوزانها وتوجهاتها. وأنا أقول إن المناطق الغنية في التل ومتيبة وسلامل الجبال في منطقة القبائل الكبرى والهضاب العليا ومناطق لقصور والواحات والمساحات المزعولة نفسها تفتح أبوابها لكل مجالات الدراسة والاستكشاف. أليست المناظر الطبيعية والألوان والسكان مدعوة للاهتمام والتأمل لدى المشاهدين؟

¹ يبدوا أن الكاتب لم يفصح عن الهدف الحقيقي الذي كان وراء هذه الرحلة إلى منطقة الجنوب الجزائري، غير أنه وأشار إلى أن المجموعة تتكون من مبشرين، فهل كانت رحلتهم بهدف اكتشاف المجهول على حد تعبيره؟

إن السفر عبر الجزائر يجعلك تتعلق بها أكثر وتحبها وهذه هي حالي، فأنا أسافر في هذا البلد منذ سنوات؛ ولقد سعيت دائمًا في مجال تخصصي إلى إبداء مشاعر الإعجاب التي تنتابني وكأنها معزوفة جميلة! لا، إنها ببساطة طريقي في العمل بجد وإخلاص. إنني على وشك أن أسد هذا النقصان في برنامجي بفضل أولئك الرفاق، إنها صافرة الانطلاق تدوي بفرح على مسامعنا. تملكتنا لففة صامدة عندما انطلق القطار مع المنحدرات الجميلة المحاذية للشاطئ حتى حسين داي. تلون البحر عند المرفأ بألوان قوس قزح. لقد انتعش الجو بالأمطار الأخيرة وازداد لطفاً بحيث يمكن للمرء أن يرى بوضوح وخاصة المزارع والمنازل على السهول المقابلة لخليج فورد لو وبرج البحري وكأنها بقع بيضاء مضيئة.

مؤسف أن القطار اعتدل وانطلق بسرعة في سيدي محمد! فقد تدخلت المصانع الثقيلة والمدن العمالية وترامت بشكل قبيح على منحدرات التلال الغابية تخللها فيها فيلات سيدي محمد والحامة بعد ذلك نمر بالمدن الصناعية في حسين داي والحراش وننげ شرقاً. ومرة أخرى، ترافقنا صورة الخليج الذي لا نشبع منه أبداً: الأمواج محملة بالرغوة، والبحر اللؤلؤي يحمل القوارب النائمة ذات الأشرعة الوردية الملونة كما لو أنها في بحيرة. ها نحن الان في الجزء الشرقي من سهل متيبة: الرويبة والرغائية. على الجانب نفسه دائمًا مزارع محاطة بأشجار الأوكالبتوس وحقول الكروم الشاسعة والأراضي النضرة والمزروعة بدقة. كل شيء هناك يدل على النشاط والإتقان في الجهد والذكاء في تحصيل الثروة والازدهار. ونحن نبتعد عن سهل متيبة ندخل وادي بودواو حيث يتوقف القطار في كل من المحطات

بودوا وواد قورصو ثم تيجلايين وثنية. وكلما توقف القطار بمحطة متوفرة على مطعم ينزل المسافرون جماعيا للأكل والتزود بالمؤن الوفيرة ولو أنها قليلة التنوع فنلاحظ حين عودتهم أنهم محملون بالخبز والبيض المسلوق والنقانق. وبعد لحظات قليلة شاهدنا جماعات مختلفة من الأشخاص على أرصفة المحطة، بعض المعمرين يرتدون اللباد¹ الكبيرة، والسياح الإنجليز وأطفال المدارس في عطلة، والزواحف في إجازة، والصياديون بجزماتهم العالية والبنادق على أكتافهم، ورجال عرب جنبا إلى جنب مع الإسبان والإيطاليين. تقاطعت الأحاديث واختلطت المصطلحات... إنه تنوع عالمي ممتع. بعد بني عمران، يدخل القطار مضيق الأخضرية أحياناً تحت الأنفاق وأحياناً في البرية بين الجدران الصخرية العالية حيث تراءى لنا مدينة يسر لأشخاص على مطعم نزل أولئك الرفاق، إنها صافرة الانطلاق تدوي على مسامعنا عند السفح بعد مزارع الكروم تمتد غابات عبر التربة الطينية. بعد 123 كيلومترا وصل القطار إلى البويرة.

¹ اللباد هو نوع من القماش الكثيف المصنوع من صوف الحيوانات، خاصة الأغنام، يتم صنع اللباد عن طريق ضغط الألياف معًا باستخدام الرطوبة والحرارة، يستخدم اللباد في صنع القبعات والأحذية والملابس والعزل الحراري وحتى في بعض الأثاث والزخارف المنزلية.

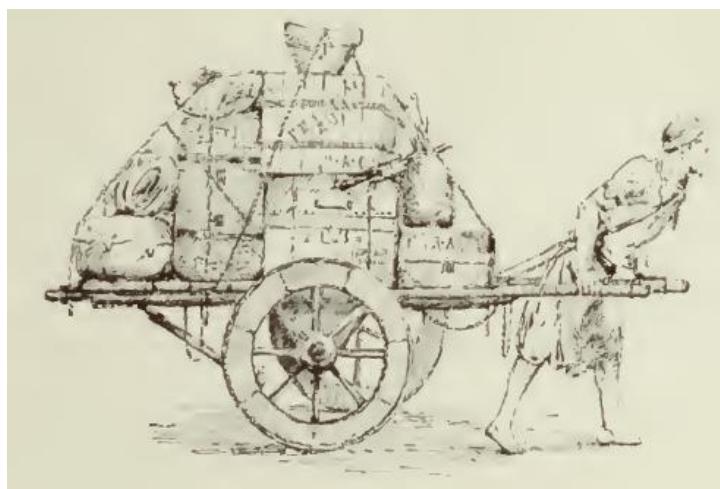


من البويرة إلى سيدى عيسى

بعد الغداء في محطة البويرة، جلسنا في المركز لنتنقل إلى سور الغزلان، المحطة الأولى في رحلتنا. من بويرة إلى سور الغزلان ليس هناك مناظر خلابة. على الطريق مررنا بمركزين استيطانيين عين الحجر (Aboutville) وعين بوذيب (Bertville). ترجع تسميات هذه القرى الناشئة إلى كل من إدموند أبوت وبول بيرت¹ Edmond About et de Paul Bert. لا تبعد مدينة عين بسام كثيراً، ما يميزها هو أهمية سوقها وامتدادها على مزارع الكروم الحديثة. وصلنا إلى سور الغزلان على الساعة السادسة مساءً، أطلق علمها الرومان اسم Ausia (أي قصر الغزلان أو سور الغزلان بالعربية) حيث وجدنا في فندق رافو (Raveu)

¹ بول بيرت (Paul Bert) 1833-1886 عالم فرنسي في مجالات الفسيولوجيا والطب له أبحاث في تأثيرات الأكسجين على الكائنات الحية وعلى ارتفاع الضغط الجوي، وقد سميت مستوطنة باسمه اعترافاً وتقديراً لمجهوداته.

المرقد المريح والطعام الممتاز. في اليوم التالي وبالوتيرة نفسها، انطلقنا إلى سيدى عيسى. ضباب كثيف يكاد يغطي سلسلة الجبال وتبرز قمة ديرة الثلاجية التي يصل ارتفاعها إلى 1812 متراً على مستوى سطح البحر وكأنها نقطة في الضباب. ها قد بدأت البلاد تأخذ رونقها الحقيقي. مررنا خلال الضباب بقوافل الإبل المحملة، وأعراب يسوقون حميرهم وجندي صغير يقود بغلتين. وصلنا إلى القمة بصعوبة بفضل خيولنا القوية والنشطة وأخذنا في الانحدار إلى سفوح ديرة باتجاه سيدى عيسى ومنطقة الهضاب العليا. في تلك اللحظة، اختربت أشعة الشمس كتلة الضباب السميكة وأضاءت الأجراء أمام أعيننا. اختلجننا شعور أولى بالوحدة اللامتناهية عندما صادفنا راعيا من الأهالي في واد أخضر يرعى أغنامه. لاحت لنا في الأفق القريبة ملامح مدينة حقيقية، قبة بيضاء ومنازل وأشجار. لم يكن هناك في الحقيقة سوى عدد ممن البناء العسكرية التي تشكل التجمع السكاني الصغير إضافة إلى مرقد وعدد من السكنات. استقبال حار وغبطة حضينا بها لدى القائد بوسي، والملازم كلافيри والدكتور ميراموند.



Chapitre II

SIDI-AÏSSA

Le marabout Sidi Aïssa

L'annexe de Sidi-Aïssa, qui dépend du cercle militaire de Bou-Saâda, est constituée par sept tribus dont la population s'élève à 20,822 habitants. Le nom de Sidi-Aïssa lui vient d'un marabout célèbre dont le corps repose dans une kouba voisine et dont la mémoire, comme le raconte le colonel Trumelet, est conservée par tous les fidèles de l'Islam.

Les indigènes gardent encore le souvenir de sa science et de sa piété; et, pendant les veillées, accroupis autour des feux clairs qui flambent sous le ciel étoilé, ils se plaisent à raconter les miracles accomplis et les bienfaits prodigués par le grand cheikh. Les origines connues du saint marabout remontent au IX siècle de l'hégire (au XVI siècle de notre ère). Sa famille descendait des Koreïch, tribu dont le prophète Mohammed était issu.

Son bisaïeul vint s'établir en Tunisie. Mohammed ben Ahmed, le père du saint, partit de la régence dans la direction du Moghreb et s'arrêta à Aïn-eth-Tholba, au pied du versant septentrional du djebel El-Naga, dans le pays même où nous nous trouvions. Sidi Mohammed, dont le corps repose à El-Guethla, dans le pays des Adaoura, laissa trois fils parmi lesquels le fameux Sidi Aïssa. C'est le marabout le plus populaire depuis Aumale jusqu'au djebel Amor et aux monts des Naïli. Il vécut jusqu'à l'âge de 120 ans.

Jusqu'à 40 ans, il fut l'élève de Sidi Abd-el-Aziz-el-Hadj, maître plein de savoir et de vertus, qui vivait chez les Béni Khalfoun, dans le cercle de Dra-el-Mizan. Pendant quarante années encore, il dompta sa chair, mortifia son corps et absorba sa pensée dans la prière. A 80 Ans, possesseur de la "baraka" (étincelle divine), et devenu "ouali" (l'élu de Dieu), il fit des miracles.

Sa fille Heuloua, gravement malade, réclamait en vain, pour apaiser sa fièvre, du lait de chamelle que personne ne pouvait lui procurer. Sidi Aïssa se rendit alors sur les bords de l'Ain Ahmed, et frappant la berge de son "eukazza" (bâton ferré), il fit jaillir du sol une source de lait. Les narrateurs ajoutent même que l'eau qui soit de cette source, située dans la fraction des Rouïba, a encore la blancheur du lait.

Une autre fois, tous les troupeaux étant atteints d'une gale maligne qui faisait un grand nombre de victimes, il donna aux pasteurs un remède miraculeux. Il les conduisit sur les bords de l'oued El Guethrini, chez les oulad Dris, et leur montra dans une excavation une couche épaisse de goudron, dont les onctions sur les corps malades arrêtèrent les progrès du mal. Un jour, il avait entrepris un long voyage avec une caravane, en plein été, sous un soleil torride. L'eau manquait, bêtes et gens étaient exténués et ne pouvaient plus avancer. Sidi Aïssa, qui se trouvait alors dans la sebkhat du Zarez, planta dans la couche éclatante de sel la hampe d'un drapeau, et, sous les yeux des voyageurs, une eau abondante et pure jaillit au milieu des salines. La source est encore désignée sous le nom de Haci-Sidi-Aïssa ben M'hamed. Très vieux, ayant dépassé la centième année, le saint, qui ne pouvait plus marcher, était porté sur une "gueçâa" (vaste plat taillé dans le tronc d'un frêne) à laquelle on avait adapté deux brancards. Les hommes des oulad Barka, qui avaient réclamé et obtenu l'insigne honneur de transporter le marabout sur ce pavois d'un nouveau genre, virent, comme par enchantement, se développer leurs épaules qui sont, même aujourd'hui, plus larges et mieux musclées que celles de leurs voisins.

Il recevait de toutes les tribus situées au sud d'Aumale le "r'efeur" (redevance, dîme en nature). Comme le "r'efeur" représentait un beau revenu, et que le saint, tout en songeant à Dieu, ne négligeait pas les biens de ce monde, il divisa le pays en sept zones qu'il répartit entre sept de ses fils auxquels devait revenir, par portions égales, l'impôt volontaire et sacré. Un seul, le huitième garçon, Sidi Abd-el-Ouhab, n'eut pas sa part des largesses paternelles. Comme il réclamait, Sidi Aïssa lui dit : "Toi, mon fils bien-aimé, tu auras en héritage ma piété, mes vertus et ma science." Et, en effet, depuis cette époque, les oulad Abd-el-Ouhab, descendants du huitième fils, ont fourni un grand nombre d'hommes pieux, de savants jurisconsultes et de docteurs estimés.

Sidi Aïssa mourut à l'âge de 120 ans et fut inhumé dans une kouba que les Arabes nous désignèrent avec un pieux respect. Le caïd Si Abd-el-Kader ben M'hamed el Mobarek est le descendant direct de Sidi Aïssa.

Chez le caïd: la reception, la fantasia



Nous continuâmes notre route vers la demeure du caïd Abd-el-Kader et la blanche coupole ne fut bientôt plus qu'une tache blanche sur la colline vaporeuse. Après avoir franchi 8 kilomètres, on arriva à la base d'un plateau légèrement déclive dont le sommet s'ouvrait en éventail. Sur la partie la plus élevée, des cavaliers demeuraient immobiles; à côté d'eux un groupe de beaux Arabes, recouverts de manteaux rouges, attendaient. C'était le caïd qui, suivant les usages, venait, avec ses gens, au-devant de ses hôtes. Cette réception, qui est toujours très belle, fut, cette fois, plus impressionnante que jamais.

Pour honorer un hôte et lui marquer, d'une façon sensible, l'estime dans laquelle on le tient, les Arabes déploient l'appareil le plus noble qui soit pour eux, l'appareil guerrier, le simulacre de la guerre. " L'homme n'est vraiment "homme, disent-ils, que sur son cheval, lorsqu'il brandit son fusil, se lance" en avant et fait parler la poudre . . . Homme, j'effleure de ma main la" main d'un homme, je la porte à mes lèvres d'où sortent des paroles de " bienvenue, sur mon cœur où germe l'amitié." Ce fut le prologue de cette inoubliable réception.

Des cavaliers, un à un, deux par deux, piquaient droit sur nous en un galop effréné.

L'homme, debout sur ses étriers, avec le bas du visage voilé d'une étoffe le burnous flottant, le fusil brandi à bout de bras, lancé en l'air et rattrapé au vol, le cheval harnache de rouge, l'encolure haute, le corps ramassé et s'enlevant par bonds dans une poussière d'or,. . . des chevauchées folles, des appels presque sauvages, des coups de feu, des simulacres d'attaque et de fuite, . . . voilà la fantasmagorie qui, dans une vision rapide, s'offrit à nos regards.

Apres quoi, les cavaliers reprurent leur rang, et le calme et le silence se firent autour de nous.

Nous nous dirigeâmes vers le caïd, qui nous dit simplement: " Soyez les bienvenus ! Vous êtes mes " hôtes, vous êtes chez vous."

Sur un vaste plateau d'où l'on aperçoit tout le pays environnant, le caïd a établi sa demeure.

Les grands chefs

Pour se faire une idée des Arabes de grandes tentes, se représenter la physionomie des chefs, leurs allures, l'appareil seigneurial au milieu duquel ils se montrent à leurs hôtes, il faut franchir le Tell et aller vers le sud.

Les tentes. Les chevaux. Les lévriers. Les FAUCONS

Les petites tentes, comparables à taupinières, que nous apercevons dans le Tell, autour des les chevaux, villages ou près des sources, ne ressemblent en rien à ces magnifiques campements du sud que décrit, Léon Roches.

Le sommet de la tente (en arabe "guntas"), supporté par trois montants, s'élève à 15 mètres du sol; il est quelquefois décoré de plumes d'autruche. Pour se rendre compte des vastes dimensions de cette demeure mobile, il est bon d'énumérer tout ce qu'elle abrite. La tente est divisée, par des tapis de haute laine, en plusieurs compartiments destines aux hôtes, aux femmes, aux juments qui ont mis bas, aux harnachements de prix et aux provisions de blé et de dattes.

Les troupeaux occupent le "m'rah" (intervalle situe au milieu du campement), et les montures sont entravées devant chaque tente.

Dans certaines parties du sud. Il y avait des bêtes admirables de forme et d'élégance. Malheureusement, la race chevaline, si l'on n'y prend garde, ne tardera pas à s'abâtar par des croisements mal faits. Lisez plutôt ce que disait autrefois Fromentin de ces types magnifiques de la race chevaline qui deviennent de plus en plus rares: "Il y avait là de fort beaux chevaux: mais "ce qui me frappa plus que leur beauté, ce fut la franchise inattendue de tant de couleurs étranges. ' Je retrouvai ces

nuances bizarres si bien observées par les Arabes, si hardiment exprimées par les "comparaisons de leurs poètes. Je reconnus ces chevaux noirs à reflets bleus, qu'ils comparent au "pigeon dans l'ombre; ces chevaux couleur de roseau, ces chevaux écarlates comme le premier sang " d'une blessure. Les blancs étaient couleur de neige; et l'alezan couleur d'or fin. D'autres, d'un "gris foncé, sous le lustre de la sueur, devenaient exactement violets; d'autres encore, d'un gris plus "clair et dont la peau se laissait voir à travers le poil humide et rasé, se veinaient de tons humains et "auraient pu s'appeler des chevaux roses. Tandis que cette cavalerie s'approchait de nous, je pensais à "certains tableaux équestres devenus célèbres à cause du scandale qu'ils ont provoqué et je compris la " différence qu'il y a entre le langage des peintres et le vocabulaire des maquignons."

Les grands chefs prirent leurs lévriers, fidèles compagnons de leurs courses et de leurs chasses, autant que leurs chevaux.

Le sloughi est l'objet des soins les plus attentifs : on lui attache au cou des " heurz " ou talismans et. Pendant la saison froide, on lui met une couverture sur le dos. Ajoutez à la tente, au cheval, au lévrier les équipes de faucons et vous vous représenterez, dans son ensemble, une existence faite pour la mobilité, les courses rapides et l'espace. Tout est en harmonie dans cette synthèse: le cheval alerte et nerveux ; le chien souple et léger ; l'oiseau au vol rapide ; l'homme qui n'a son allure vraie que sur sa monture ; la demeure que l'on plie, que l'on déplie et que l'on remonte. Dans cette nature, au milieu de ces solitudes, la pensée et l'imagination ne peuvent concevoir un autre décor, une autre manifestation de vie. La maison construite en maçonnerie y devient laide et hurle par un contraste violent. L'arbre, sous l'ombre duquel on pourrait s'attarder, n'existe pas ; la nature ne l'a pas voulu.

Les Koubas

L'espace s'ouvre devant les hommes qui, suivant leur destinée, ne doivent pas se fixer. En ces pays cependant, les koubas seules mettent, de loin en loin, sur le sol jauni la note éclatante de leur blancheur. Encore ne sont-elles que le symbole du silence éternel et de l'immobilité de la mort : sous ces petites coupole les marabouts dorment leur dernier sommeil. Seule la mort habite la maison bâtie. Ceux qui, méconnaissant cette loi fatale, s'agglomèrent et s'entassent en des oasis et en des ksour, deviennent les victimes de cette immobilité : minés par les maladies, épisés par la misère, ils sont aussi déchus que les nomades demeurent vigoureux.

Le Fellah

Dans ce milieu, ce n'est pas seulement le chef, agha, bach-agha ou caïd qui m'intéresse, mais aussi le fellah, le meskine. Sous son burnous en loques, le pauvre hère a encore de la dignité, du caractère, une originalité qui lui est propre. Quelle que soit son attitude, sa silhouette se détache toujours avec une vigueur de dessin et une harmonie de lignes qui attirent les regards. Soit qu'il gravisse les pentes des montagnes ou que, dans la plaine, il se tienne immobile à côté de son troupeau de moutons; soit que, dans le Hodna, il surveille les longues files de chameaux, ou qu'à l'heure de la prière, à 1' " aceur " et au " moghreb " il incline son front vers la terre, jamais il n'apparaît vulgaire ou grossier. La vulgarité n'appartient qu'aux civilisés; la banalité est la fleur de la civilisation. Stoïque dans le malheur, à la faim, à la misère il oppose son fatalisme et courbe la tête. Et dire que l'on voudrait transformer ces gens en électeurs. . . .

Chef de grande allure, serviteurs, cavaliers, fellah m'apparaissaient dans leur atmosphère, dans la nature qui leur convient, sous la tente où ils vivent, en une fin de journée où mes sensations s'affinaient délicieusement.

Les tentes avaient été dressées sur un plateau d'où le regard embrassait un cirque immense dont le ciel paraissait être la voûte. La tente du caïd est faite de bandes parallèles, à trois couleurs alternées, où le noir, le blanc et l'ocre s'accordent en tons austères sous les feux du soleil couchant. A l'intérieur, des tapis de haute laine, où dominent le bleu et le rouge, sont jetés sur le sol et suspendus en forme de parois. A côté, des tentes plus modestes et plus basses, formées de bandes noires et roses, mais toutes de lignes gracieuses, comme si quelque artiste avait présidé à la composition des couleurs, à l'assemblage des tons et à la structure de ces habitations si légères. Et plus que jamais je retrouvais en ces tentes le symbole de l'indépendance, de la vie errante et des migrations vers les lointains mystérieux.

La vie errante

Pour donner plus de force à ces impressions, la nature semblait s'agrandir, et l'espace de plus en plus vaste s'ouvrait devant nous. Les montagnes et les nuages, après la vive coloration des derniers rayons du soleil, paraissaient flotter dans des vapeurs nacrées ; du sol montaient des fumées lentes. La ligne d'horizon n'existant plus, et la plaine, sur les bords extrêmes, se confondait avec le ciel.

Devant nous, passa de l'est à l'ouest une longue file de chameaux, pendant qu'une étoile, une seule étoile, d'une grandeur et d'un éclat inconnus sous nos latitudes, s'allumait dans le ciel. D'où venait, où allait donc cette caravane en ce pays fantastique où la réalité devenait l'illusion et le rêve ? N'était-ce pas là l'image et la vision de la marche vers l'étoile, de l'aspiration vers l'idéal jamais atteint ?

La Diffa

Autour de nous des amas de bois brûlaient avec des crépitements secs, et les fumées épaisse étaient coupées de flammes subites.

Le caïd Si Abd-el-Kader nous convia à la diffa qu'il avait fait préparer pour nous, et nous pénétrâmes sous la tente. Les plats alors se succédèrent copieux, épices et sucrés: amoncellement de victuailles, sauces compliquées, moutons entiers rôtis en plein air, gâteaux délicats, sucreries savantes. Telles devaient être les homériques ripailles que faisaient, en leur manoir, seigneurs, vassaux et féaux sujets. Des serviteurs apportèrent d'abord la "chorba," bouillon onctueux et gras, relevé par une pointe d'acidité: puis le "hamis," ragoût de viande d'un goût nouveau à cause de la sauce dans laquelle on a fait mijoter longtemps des abricots et des dattes; après le hamis, des poulets qui furent suivis du "couscoussou," piqué de raisins secs et de lupins et dressé en dôme blond sur un vaste plat en bois, et enfin le "m'chouï," qui est l'inévitable couronnement de cette épopée culinaire. Le m'chouï est le mouton rôti. C'est le mets des races primitives, ce devait être le régal des guerriers et des preux chevaliers. On choisit dans le troupeau un mouton, jeune, gras et dodu; on le ligote, on le couche à terre et d'un coup on lui tranche la carotide. En un clin d'œil, l'animal est vidé, dépouillé, transpercé d'une broche primitive en bois et place devant un feu vif.

A l'aide d'un couteau bien affilé, on lui fait sur la peau des estañades légères et peu profondes que l'on arrose abondamment de beurre qui se fond et pénètre dans les chairs. Sous l'action du feu, le derme prend une teinte dorée et, lorsque le cuisinier juge que la cuisson est suffisante, l'animal est présent, en grande pompe, aux hôtes réunis. Je dois avouer que l'aspect du mouton est loin d'être réjouissant : ses lèvres brûlées se sont rétractées en une langue tuméfiée.

Il ne faut pas hésiter : entre le pouce et l'index on pince le derme que l'on arrache en fines lamelles, croustillantes, ma foi. Ce sont les morceaux de choix. Après les remerciements dus à la générosité et à la cordialité de notre noble caïd, chacun prit ses dispositions pour passer la nuit dans un confort relatif, mais suffisant. Au dehors la nuit était belle, le ciel constellé d'étoiles innombrables, si rapprochées les unes des autres qu'elles donnaient la sensation d'une poussière de diamant. Des feux trouaient toujours de lueurs rouges la profondeur de la nuit; puis ce fut le silence; si toutefois on peut désigner ainsi le silence que l'on entend, silence fait de frémissements légers, d'aériennes vibrations, échos affaiblis de la symphonie astrale.



(الفصل الثاني)

سیدی عیسی

تألف ملحقة سيدى عيسى التابعة للدائرة العسكرية لبوسعادة، من سبع قبائل يبلغ عدد سكانها 20822 نسمة. يرجع اسم سيدى عيسى إلى أحد المرابطين المشهورين، والذى يرقد في قبة هناك. لا تزال ذكراه حية لدى جميع المسلمين حسب رواية العقید تروملیت. ولا يزال الأهالى يحتفظون بتاريخه العلمي وتقواه فكلما تسامروا حول النيران المتوجحة في الليالي الهدائة أتوا على سرد المعجزات التي حققها والفوائد التي أغدقها الشيخ العظيم ويجدون في ذلك كل السعادة. تعود أصول المرابطين المشهورين إلى القرن التاسع الهجري (القرن السادس عشر الميلادي). تنحدر عائلته من قبيلة قريش قبيلة النبي محمد. لقد استقر جده الثاني في تونس. بعد ذلك ارتحل والده محمد بن أحمد إلى مملكة المغرب المنتدية لكنه نزل عند عين الطلبة بالجانب الشمالي من جبل الناقة، أي في المكان نفسه الذي نحن فيه. يرقد سيدى محمد في منطقة القلتة بالعزاورة وسيدي عيسى المشهور هو أحد أبنائه الثلاثة. إنه المرابط الأشهر من سور الغزلان إلى جبال العمور وجبال النايلى وقد عاش 120 سنة. تتلمذ حتى سن الأربعين على يد سيدى عبد العزيز الحاج المدرس صاحب المعرفة والفضائل الذي عاش في بني خلفون في دائرة ذراع الميزان. ثم قضى أربعين عاماً أخرى في تدريب جسده على الجلد والصبر وترويض نفسه وتربيتها على الصلاة والتعبد. امتلك معجزة "البركة" (الإشارة الإلهية) في سن الثمانين وأصبح ولها من أولياء الله وكانت له معجزات. مرضت ابنته مريضا خطيرا واسمها حلوة، وعثا حاولوا تهديه الحمى باستعمال حليب الإبل النادر. لكن سيدى عيسى إلى ضواحي عين أحمد، وضرب الأرض بـ "العказة" (العصا الحديدية)، فانفجر منبع لبن من الأرض. بل إن الرواة يؤكدون أن ماء هذا المنبع الواقع في جهة الرويبة يخالطه بعض بياض اللبن.

ومرة أخرى، أصيّبت جميع القطعان بالجرب الخبيث الذي قتل عدداً كبيراً منها فأعطي الرعاة علاجاً خارقاً حيث قادهم إلى ضفاف وادي القطريني، من بين أولاد دريس، وأظهر لهم في التنقيب طبقة سميكة من القطران بأولاد دريس ودلهم على طبقة سميكة من القطران داخل تجويف قائلة أن وضع بعض منها على الأجسام المريضة ومسحها يوقف انتشار المرض. وفي يوم من الأيام

تولى في رحلة طويلة قيادة قافلة في عز الصيف تحت أشعة الشمس الحارقة. لم يكن هناك ماء ولا شجر ولا حجر وقد أنهكهم السير على سبخات الزازر. عمد سيدى عيسى إلى طبقة ملح لامعة وغرز فيها ذراعه، وأمام أعين المسافرين، تدفقت المياه الوفيرة والنقية في أحواض الملح. ولا يزال ذلك المنشئ يحمل اسم حامى سيدى عيسى بن امحمد. بعد تخطيه العام المائة من عمره لم يعد الشيخ يقوى على السير لذلك استعان بقصبة تحمله وقد تم تركيبها على نقالة (والقصبة طبق كبير مصنوع من جذع شجرة عريضة). نال شرف نقل المرابط على هذه الآلة الجديدة رجال من أولاد بركة وقد تفاجؤوا طوال ملازمتهم للشيخ بنمو أكتافهم واستدادها بشكل مثير للدهشة، وهم حتى اليوم يتمتعون بأكتاف عريضة وقوية مقارنة مع أقرانهم.

كان يتلقى المرجع¹ من جميع القبائل الواقعة جنوب سور الغزلان ويتمثل في (الرسوم والعشور العينية). ولما كان "المرجع" مدخولاً جيداً بالنسبة لهذا الشيخ الورع فإنه لم يهمل خيرات هذا البلد، فقد قسم البلاد إلى سبع مناطق وضع على رأس كل منها واحداً من أولاده وكلفهم بالجباية. وتميز الضريبة بالطوعية والقدسية والمساواة في النصاب. كل منهم يأخذ حقه من العائدات ماعدا ابنه الثامن سيدى عبد الوهاب فقد ورث الورع كما قال له سيدى عيسى: "أنت يا بني الحبيب سترث تقواي وفضائي وعلمي". وبالفعل، منذ ذلك الوقت، انحدر من نسل عبد الوهاب الابن الثامن عدد كبير من الرجال الأتقياء والفقهاء المثقفين والأطباء المحترمين.

توفي سيدى عيسى عن عمر يناهز 120 عاماً ودفن في القبة المهيبة التي دلنا عليها العرب.

في حضرة القايد: الاستقبال، الفروسية

ووصلنا رحلتنا نحو مقر إقامة القايد سيدى عبد القادر بن محمد المبارك وهو السليل المباشر.

¹ المرجع: هو الشخص المسؤول عن جمع الرسوم والعشور العينية، حيث يتولى المرجع تنظيم عملية الجباية من القبائل أو الأفراد، ويعكس دوره التزامه بجمع المستحقات المالية وحرصه على تعزيز الموارد الاقتصادية من خلال متابعة الالتزام بالواجبات المالية المفروضة.

وسرعان ما ابتعدنا عن القبة البيضاء لتبدو من بعيد كبقعة بيضاء على التل. بعد اجتياز 8 كيلومترات، وصلنا إلى أسفل الهضبة المنحدرة قليلاً، حيث تمتد قمتها مثل مروحة. تسمى الخيالون مكانهم بجانبهم مجموعة من الأعراب الذين يرتدون معاطف حمراء، لأنهم كانوا ينتظرون. فقد جاء القايد مع قومه لاستقبال الضيوف، لقد كان هذا الاستقبال جميلاً جداً، ومثيراً للإعجاب هذه المرة أكثر من أي وقت مضى. ومن أجل تكريم الضيف وإغداقه بالاحترام الذي يحظى به، يرتدي العرب أرق الأزياء لديهم وهو الزي الحربي لمحاكاة المعركة، "فالرجل حسب قولهم لا يكون رجلاً حقيقياً إلا على حصانه، عندما يلوح ببنادقيته، ويرتدي إلى الأمام ويطلق البارود المدوي ... يا رجل، إنني أضع يدي على يد رجل، أتناولها وأرفعها إلى شفتي التي تنطق بكلمات الترحيب بالأصدقاء من أعماق قلبي". لقد كان هذا مقطعاً لا ينسى من مقدمة هذا الاستقبال.



انطلق الفرسان صوبنا مباشرةً واحداً تلو الآخر ومثنى مثنى في سباق محموم. كان الرجل ينتعل ركابه، وعلى وجهه لثام ويرتدى البرنس وهو رداء خفيف. وكان يلوح بالبنديقة على ظهر ذراعه، ثم يصوّها في الهواء، على الحصان رداء أحمر يعلو عنقه وجسمه المنسجم يقفز وسط الغبار الذهبي... فرسان مجانيين وصيحات متوجّحة وسط طلقات نارية ومناورات من الكر والفر... هذه هي المشاهد الخيالية وقد عرضت أمامنا في عجلة.

وبعد ذلك عاد الخيالة إلى صفوفهم وساد الهدوء والصمت حولنا.

مشينا نحو القايد، الذي قال ببساطة: "مرحباً! أنتم ضيوفى والبيت بيتكم". يمكننا من أعلى هضبة شاسعة رؤية كل المناطق حولنا،

كبار الزعماء

أمكنا أخذ فكرة عن فيزيولوجية العرب من خلال خيامهم الكبيرة وهنadam القياد، والزي الملكي الذي يرتدونه لاستقبال ضيوفهم، أي أن هناك فروقاً بين التل والمناطق الجنوبية.

الخيام، الخيول، السلوقي، الصقور

فالخيام الصغيرة، التي شاهدناها في التل أشبه بالروابي منتشرة خارج الأرياف وحول الينابيع، ولا يمكن مقارنتها بالخيام الجنوبية الرائعة والتي وصفها ليون روش بالمخيمات المثالية. ترتكز قمة الخيمة وهي القنطاس على ثلاثة قوائم ترتفع 15 متراً عن الأرض ومزينة أحياً بريش النعام لتكون للقارئ فكرة عن ضخامة هذا البيت المتنقل، ومن السهل تعداد ما تحويه الخيمة. وهي مقسمة بسجاد من الصوف المنتفخ، وتضم عدة حجرات للضيوف وأخرى

للنساء، وأخرى للأفراس الوالدة، وزاوية مخصصة للملابس والغالل من القمح والتمر. تحتشد القطعان في ما يسمى "المراح" وهو مجال يتوسط المخيم وترتبط الخيول أمام كل خيمة. يوجد في أجزاء من الجنوب بهائم رائعة وأنيقية الشكل، لكن لسوء الحظ تعاني سلالات الخيول من الإهمال الذي يحدث نتيجة لعدم حرصهم على حمايتها من التهجين السيئ. واقرءوا ما كتب فرومانتين¹ سابقاً عن سلالات الخيول هذه وكيف أنها أصبحت نادرة أكثر فأكثر: "كانت هناك بعض الخيول الرائعة ولكن ما أدهشني أكثر من جمالها هو النقاء الطارئ على الألوانها الغربية. تلك الألوان الغريبة المألوفة لدى الأعراب مذكورة كثيراً في قصائد الغربة. لقد تعرفت على هذه الخيول السوداء المزرقة، والتي يشبهونها بالحمامة في الظل؛ وهذه خيول ذات لون قصبي وتلك خيول قرمذية كلون الدم المتخثر. بعض الخيول بيضاء كالثلج أو بلون الكستناء المائل إلى الذهبي الخالص. والبعض الآخر رمادي غامق يلمع بالعرق المتدفق وقد تحول إلى الأرجواني أما الرمادي الآخر فلا يزال أكثر صفاءً حيث يمكن رؤية الجلد من خلال الشعر الرطب المحلول، كما أنه يميل تدريجياً إلى الألوان البشرية ويمكن تسميته بالخيول الوردية. عندما اقترب منا هؤلاء الفرسان تذكرت بعض لوحات الفروسيّة التي أثارت ضجة، هناك فعلاً اختلاف بين لغة الرسامين الصامتة ولغة الفرسان المدوية. يصطحب الرؤساء الكبار كلّاً لهم السلوقية، وهم الأصدقاء المخلصون الذين يعتنون بهم كما يعتنون بخيولهم.

¹ أوجين فرومانتين (Eugène Fromentin) له كتاب بعنوان "عام في الصحراء Un Été dans le Sahara) والذي يتحدث فيه عن تجربته ورحلاته في الجزائر، أشار فيه إلى الخيول العربية بشكل خاص. وقد تناول فرومانتين في كتاباته تفاصيل الحياة اليومية في الصحراء وثقافة البدو وأهمية الخيول في هذه البيئة. للمزيد ينظر: Eugène Fromentin, *Un Été dans le Sahara*, Michel Lévy Frères, 1857, 04.

يعتبر الكلب السلوقي أولى اهتمامات الأعراب، فهم يضعون على رقبته الحرز أو التعويذة. وفي موسم البرد يضعون على ظهره بطانية. بالإضافة إلى الخيمة والحصان وفرق الصقور التي توحى في مجلملها بالفريق المتماسك والمصمم خصيصاً للتنقل والسباقات السريعة والفسحة، والكل في تناسق ووئام.

فالحصان شديد التأهب والكلب مرن ورشيق والطائر سريع ينتظر إشارة سيده الرجل الذي لا يقل جاذبية عن حصانه المزين. أما المسكن فيتمثل في خيمة سهلة الطي والطرح حسب ظروف الترحال. في هذا المنظر المعزول في قلب الطبيعة، لا يمكن للفكر أو الخيال أن يتصور مظهراً آخر أكثر جمالاً. تبدو السكنات الطينية بمظهر قبيح وسط العراء حيث لا شجرة نستظل بظلها وكأن الطبيعة أرادت ذلك.

القباب

إن الفضاء مفتوح أمام الرجال الذين قدر لهم أن يسيراً في الأرض ولا يستقروا في هذه البلدة. وحدها القباب تظهر بضوء ناصعة على امتداد الأرض الصفراء القاحلة. إنها مجرد رمز للصمت الأبدي وحمود الموت: تحت هذه القباب الصغيرة يستقر المرابطون بمثواهم الأخير وكأن البيوت تبني فقط من أجل الموتى. لا يستثنى هذا القانون القاتل أحداً، حتى أولئك الذين يتجمعون في الواحات ويسكنون القصور، كلهم سيصبحون ضحايا هذا الجمود: يقوضهم المرض، ويرهقهم البؤس ويسقطون حتى الأقوياء منهم.

ال فلاح

لا يهمني في هذه البيئة الزعيم فقط، أو الآغا، أو الباشـآغا أو القائد، ولكن أيضًا الفلاح المسكين. ببرنوسه الخشن، لا يزال الرجل المسكين يتمتع بكلمة وشخصية وأصالة خاصة به. مهما كان مداها، تبقى صورته بارزة دائمًا بقوه وتناغم ملفت للأنظار. فهو إما يتسلق منحدرات الجبال أو أنه في السهل يقف مع أغنامه. تارة تجده في الحضنة يراقب طواوير الجمال الطويلة، وتارة يؤدي صلاة العصر أو المغرب ساجدا على الأرض. لا يعرف الابتدال ولا الفضاضة، فالابتدال يخص المتحضرين إن كانت لهم حضارة حقا. رواقي في الحزن والجوع والبؤس، يتحدى قدره ويحفي رأسه. آمنت حقاً أن هؤلاء الناس ينتمون إلى النخبة¹ ...

مع نهاية اليوم كنت قد تعرفت على القايد السامي والخدم، والفرسان، والفالحين في أبهى حلتهم وفي خيامهم التي يعيشون فيها على طبيعتهم التي تناسفهم، لقد أثارت مشاعري إلى حد كبير.

تم نصب الخيام على هضبة يهياً للناظرين أنها سيرك عملاق وقبته السماء الزرقاء. تتالف خيمة القايد من شرائط متوازية مفتولة من ثلاثة ألوان متناغمة، الأسود والأبيض والأمغر وهي ألوان متقاربة في سطوعها مع أشعة الغروب. نجد في الداخل سجادة من الصوف الرفيع المخضب بالأزرق والأحمر يغطي الأرض والجدران. تنتشر في الجوار خيام أكثر تواضعاً، مؤلفة من أحزمة سوداء ووردية ذات خطوط رشيقـة، كما لو أن فناناً تعمد زخرفتها بالألوان، وكلها منسجمة وهيأكلها خفيفة. لطالما أيقنت أن الخيمة في كل الأزمنة تعبر عن الاستقلالية وحياة التجوال والارتحال لاكتشاف العالم.

¹ هذا التوصيف الدقيق للمؤلف يبرز بوضوح قيمة وقدر الفلاحين في تلك الفترة لدرجة وصفهم بالنخبة.

الحياة المتنقلة

وما يزيد من قوة هذه الانطباعات، التوسع الدائم للطبيعة، وانفتاح
الفضاء أمامنا أكثر فأكثر. بدت الجبال والسحب، وقت الأصيل وكأنها تطفو
في أبخرة لؤلؤية. يتضاعد ببطء من الأرض وكأنها دخان. تلاشى خط الأفق،
واندمج السهل في أقصى أطرافه مع السماء.

مر أمامنا صف طويل من الجمال من الشرق إلى الغرب، بينما سطعت
نجمة وحيدة كبيرة الحجم أمكن للجميع رؤيتها في السماء.

من أين تأتي هذه القافلة في هذا البلد الرائع الذي أصبح الواقع فيه
وهما وأين وجهتها؟ أليست رحلة تعبير عن صورة السفر نحو النجوم والتطلع
إلى المثالية.

لم تصل البعيدة المنال؟

الضيافة

سرعان ما انتشرت حولنا رزم من الحطب توقد من القش الجاف.
تصاعد دخان كثيف تتخلله ألسنة النيران.

إنها الضيفة التي أعدت لنا داخل الخيمة وقد دعانا إليها القايد سمي عبد القادر. ثم تتابعت الأطباق الحارة والحلوة بغزاره: الطعام والصلصات المعقدة والجزور المشوية في الهواء الطلق والخبز الرقيق والحلويات الشهية. وكأننا نحيي أعياد هوميروس¹ التي ينظمها اللوردات وأتباعهم داخل القصور. أحضر الخدم "الشوربا" أولاً، وهي مرق ناعم ودسم، يتميز بنوع من الحموضة. ثم "الحميص"، وهو شرائح اللحم المخلوطة بالصلصة التي يتم إعدادها مسبقاً بالملحمة والتمر؛ بعد "الحميص"، يأتي الدجاج مع "الكسكس" المرصع بالزيت والترمس وقد وضع على طبق خشبي كبير، وأخيراً "المشوى"، وهو بيت القصيد في هذا الحدث وللحمة الطهي بلا منازع. يتم إعداد المشوى من لحم الضأن الذي يعود إلى الأجناس البدائية حيث كان عيداً للمحاربين والفرسان الشجعان. وقد حدث أن اختربنا من القطيع شاة صغيرة سمينة وقمنا بربطها ووضعها على الأرض وقطعنا الشريان السباتي. وفي غمرة عين، تم إفراغ الحيوان، وتقطيع أطرافه، وحمل على عصا خشبية، ووضع على نار ساطعة.

¹ أعياد هوميروس (Homeric Hymns) أناشيد يونانية قديمة تُنسب إلى الشاعر الإغريقي هوميروس، الذي يُعتقد أنه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، تتألف هذه الأناشيد من تصريحات وأغانٍ دينية تحتفل بالآلهة الأولمبية وتروي قصصاً عنهم. من أشهرها نشيد لأبوللو ونشيد لدليونيسوس. تستخدم الأعياد لغة شعرية مميزة وتحتوي على العديد من العناصر الأدبية التي تميز الأدب الإغريقي القديم. للمزيد حول هذه الأعياد ينظر:

Martin Litchfield West. "Homeric Hymns, Homeric Apocrypha, Lives of Homer." Harvard University Press. 2003.

باستخدام سكين حاد، تم إحداث بضوء سطحية على الجلد. وقمنا برشها بالزبدة التي تذوب وتتغلغل في الجسم وذلك بفضل حرارة النار. تأخذ الأدمة صبغة ذهبية، ثم يخبرنا الطباخ أن الطهي كافٍ، وأن الشواء جاهز، يقدم المشوي بأبهة إلى الضيوف المجتمعين. لكن ذلك الخروف لن يشاركتنا هذه البهجة: فقد بدت عيناه بؤس خارج تجاويفها تقلصت شفتيه المحترقان وكأنها ضاحكة، يتدلل بين الأسنان البارزة، لسان متورم. لا يتزدد أحد فيأخذ قرصة من اللحم المشوي باستعمال اصبعين، وتناولها بشراهة وخاصة الشرائح اللذيذة والمناطق الطيرية والكبدي وهي القطع المفضلة لدى الجميع. بعد تقديم الشكر للقائد النبيل على كرمه ووديته، أخذ الجميع أمتعة النوم القليلة لكنها تفي بالغرض.



الليل

كانت ليلة جميلة في الخارج، السماء مرصعة بنجوم لا حصر لها، قريبة جداً من بعضها البعض وكأنها غبار الماس. ما زالت النيران تتلألأ في عمق الليل ببريقها الأحمر. ثم ساد صمت رهيب. صمت يكاد يكون له حس، يسمع له ارتجافات طفيفة، وأصداء لسمفونية تعزفها النجوم.

Chapitre III

AÏN-HADJEL

Le lever du jour à Sidi-Aïssa

A 6 heures du matin, tout le monde était debout. Le ciel, sans éclat, était, par places, voilé de nuages légers. A l'orient, de larges bandes dorées se teignaient de pourpre; et à mesure que le soleil s'élevait sur la ligne d'horizon, les monts, les collines et les ondulations de terrain passaient du gris au violet tendre et au rose foncé, couleurs barrées d'ombres veloutées: et toujours, devant soi, on avait la vision ou l'illusion d'un pays sans bornes, se prolongeant dans des vapeurs lointaines.

Sur les tentes s'accrochait par lambeaux une fumée lourde qui, balancée d'abord par la brise matinale, finissait par s'éparpiller dans l'air en menues franges. De la cendre des feux à demi éteints des spirales bleuâtres s'élevaient doucement: quelques chèvres et des bourriquots paissaient une herbe rare; les chevaux, tout prêts et fringants sous leur harnachement, avaient déjà des piaffements d'impatience.

A mesure que le soleil montait dans le ciel, les brumes se volatilisaient; l'atmosphère était si pure en cette immensité, que les sons les plus lointains, les appels des bergers, les cris des nomades étaient nettement perçus et que les silhouettes des hommes et des animaux avaient des proportions fantastiques. Des chameaux, qui se suivaient avec leur habituel balancement d'arrière en avant, apparaissaient comme des bêtes apocalyptiques.

La diligence, la monstrueuse voiture dans laquelle nous nous entassions avait piteuse mine: En ce cadre grandiose, où tout est en harmonie, l'homme élégant et vigoureux, le cheval fait pour la chevauchée rapide, le chameau pour les voyages lointains, notre véhicule faisait tache; c'était un abcès sur un corps sain. Chacun reprit sa place habituelle dans la roulotte: notre cocher, d'un coup de fouet en huit, donna le signal du départ et les chevaux prirent la direction d'Aïn-Hadjel, lieu choisi pour la chasse au faucon.

L'arrivée, Nouvelle fantasia. Les deux sorcières

A quelque distance du bordj, sur un plateau élevé, Si Abd-el-Kader ben M'hamed, son fils, son neveu, un caïd du voisinage, quelques officiers, des cavaliers indigènes, imites et serviteurs, chasseurs et rabatteurs de gibier, s'étaient groupés pour nous recevoir. Suivant la coutume, de la troupe se détachèrent des cavaliers, deux par deux, botte à botte, épaule contre épaule, et se précipitèrent avec des envolées de burnous et des appels gutturaux. A 20 mètres de nous, nous faisant face, ils tiraient un coup de fusil et viraient avec la même allure suivant une courbe de court rayon. C'était toujours la même fantasia, offerte aux botes comme un suprême honneur.

Soudain, sortant de je ne sais où, deux vieilles sorcières en haillons se dressèrent devant nous ; l'une avec des yeux clos à la lumière, une bouche édentée, un visage parcheminé, l'autre avec des yeux papillotants et un museau de fouine. Aux coups de fusil, au bruit du galop des chevaux quadrupédant et sonore sur le sol sec, elles mêlèrent leurs stridents "you-you." Cris de joie ou glapissements d'hyène en quête de proie ? Je ne sais pourquoi, mais je crus voir deux mauvais génies protestant à leur façon contre la présence d'intrus profanes et inharmonieux. . . . Plus que jamais, en effet, par notre accoutrement, nos allures, notre véhicule, nous paraissions altérer la grande synthèse des choses.

Une aumône rapidement donnée, un geste impérieux écartèrent les vieilles qui disparurent, comme par enchantement, derrière un accident de terrain.

AïN-Hadjel :

Nous rejoignîmes la petite troupe. Nous étions à Aïn-Hadjel, situé à 16 kilomètres de Sidi-Aïssa.

Aïn-Hadjel est, dans le sud, un point d'arrêt pour les troupes en campagne. On l'a choisi parce qu'il y a une source dans le voisinage, un plateau spacieux pour le campement, et une colline d'où la vue s'étend au loin, et qui peut devenir, le cas échéant, un poste d'observation. De ce point culminant on aperçoit le pays des oulad Ali ben Daoud, des Adaoura Gueraba et des oulad Moktar.

L'autorité militaire y a fait construire un bordj clos de hautes murailles, dans lequel se trouvent trois chambres et une écurie. Autour, c'est la solitude, le prolongement infini des terres jaunes, sablonneuses, mouchetées de touffes d'alfa.

Tout était déjà préparé pour le déjeuner et disposé pour la chasse au faucon. Des tentes, les belles tentes du sud, s'érigeaient déjà avec leurs lignes harmonieuses et leurs bandes à deux couleurs alternées où le noir et le rouge s'accouplent si bien. C'est le complément parfait du décor. En groupes, ou sur une ligne, les chevaux étaient entravés. De grands feux s'allumaient çà et là.

Quelques moutons, victimes destinées au déjeuner du matin et au repas du soir, étaient attachés à des piquets.

Faucons et fauconniers

Adossés à leurs selles et au mur du bordj, les fauconniers se tenaient à l'écart, indifférents à ce qui se passait autour d'eux.

A quelques pas, le long d'un bâton sur deux pierres, les sept faucons de l'équipe étaient perchés, sous la lumière crue, coupée d'ombres claires.

Au repos, entravés avec des attaches en laine et de fines lanières en filali, les oiseaux avaient la tête recouverte de leur capuchon " kembid " en cuir rouge brodé d'or et surmonté d'un petit macaron pointu.

C'est l'équipe gracieusement prêtée au caïd par le bach-agha des oulad Naïl.

A notre approche, le vieux fauconnier du Bach-Agha, s'étant levé, prit un faucon, "thayer," le débarrassa de ses entraves et de son capuchon et le plaça sur sa main gantée du " guefass " (le gant du fauconnier).

L'homme et l'oiseau nous apparurent alors avec toute leur noblesse.

Le faucon est bien l'oiseau de combat, armé pour la lutte et l'attaque soudaine. Il est à la fois élégant et fort. Son bec, quoique petit, est acéré comme des cisailles ; ses yeux, ronds, au regard fixe et cruel, sont cerclés d'or ; ses ailes éployées donnent un sentiment de force étonnante ; ses griffes jaunes, dures comme de l'acier trempé, pointues comme l'extrémité d'un stylet, pénètrent au premier choc dans les chairs pantelantes de la victime ; le plumage est d'un gris clair sur le dos et les ailes, d'un blanc moucheté sur le ventre.



AÏN-HADJEL. FAUCONS ET FAUCONNIERS.

Adossés à leurs selles, les fauconniers se tenaient à l'écart...

A quelques pas, le long d'un bâton place, sur deux pierres, les sept faucons étaient perchés sous la lumière crue coupée d'ombres claires.

Il a grand air sur le "guefass" du vieux fauconnier qui, depuis quarante ans, vit avec ses faucons, sait les capturer et les dresser, leur rend la liberté à l'époque des amours et des accouplements et les reprend lorsque le maître prépare ses grandes chasses. On sent que le fauconnier est fait pour ces oiseaux et que, par adaptation et par habituel contact, il a fini par leur ressembler.

C'est un homme de soixante ans, haut, sec, nerveux, de gestes rares, de parler bref, au nez crochu, à l'oeil dur et fixe. Son regard, comme celui du faucon, semble scruter les profondeurs de l'air, en quête de la proie.

Au mois d'octobre, le fauconnier part sur son cheval et se dirige vers les régions où il a le plus de chance de trouver des faucons. Il emporte avec lui des perdrix ou des pigeons vivants. Le volatile est étroitement revêtu d'un filet en crins de cheval, d'où émergent seulement les pattes et les ailes. Au filet est attaché, par une longue ficelle, un poids léger qui n'empêche pas la perdrix de voler à une certaine hauteur et de donner à son ennemi l'illusion d'une proie libre. Dès qu'un faucon est signalé, la victime est

lâchée; et sur elle fond l'oiseau de proie dont les griffes incurvées s'empêtrent dans les mailles invisibles du filet. Le fauconnier s'empare du captif qu'il s'empresse d'encapuchonner. L'opération est répétée jusqu'à ce que l'équipe des oiseaux chasseurs soit au complet.

C'est ainsi que l'on faisait au moyen âge. A cette époque on leur cousait les paupières (on les cillait) et, après la première période, on les dessillait.

Il ne faut pas croire que la domestication de l'oiseau soit complète et que l'on se donne beaucoup de peine pour l'apprivoiser.

Le fauconnier l'habitue autant que possible à sa personne, à sa voix et à son cri d'appel ; et, après quelques jours de captivité, il lance devant lui un lapin auquel il a cassé une patte. Le faucon fond sur cette proie facile et s'en repaît. Tente-t-il de s'éloigner ? L'Arabe pousse un cri spécial, agite au-dessus de sa tête les débris du gibier et il est rare que l'oiseau ne revienne pas. Il importe surtout de ne pas le nourrir indistinctement avec la première viande venue ; il doit vivre du produit de sa chasse. En somme, il ne faut pas engraisser le faucon et l'empâter dans la bonne chère, mais tenir toujours en éveil ses instincts carnassiers.

Pour plusieurs raisons, le grand chef, quels que soient son faste et ses richesses, donne l'ordre de lâcher ses faucons à la fin du mois de mars. C'est l'époque des accouplements, comme je l'ai déjà dit. D'autre part, l'entretien, la nourriture d'une équipe complète de ces oiseaux, la solde des fauconniers non seulement entraînent à des frais élevés, mais deviennent trop souvent l'occasion de dépenses plus coûteuses encore. Les fêtes cynégétiques, exigeant beaucoup de peine et d'argent, deviennent de plus en plus rares. Les invités de marque, les cavaliers, rabatteurs, chameliers chargés du transport des tentes, et fauconniers sont, pendant plusieurs jours, eux et leurs bêtes, hébergés et nourris par les " djouad " (grands chefs).

On chasse avec les faucons l'outarde, le héron, la gazelle et le lièvre. Aussitôt que l'outarde " habbara " est signalée, on la pousse vers le fauconnier. Dès qu'elle a pris son vol, on lâche le faucon qui s'élève, fond de haut, la saisit dans ses serres et se laisse choir avec elle sur le sol. Quant au héron, il a l'habitude de faire, dans sa fuite, un long circuit ; le faucon alors, avec un flair et une expérience extraordinaires, suit le rayon du cercle S'agit-il de la gazelle ? Le faucon s'élance sur elle et que décrit le héron et le rencontre fatallement, lui crevé les yeux. C'est grâce à ces instincts développés, à sa force, à son regard perçant que cet oiseau est devenu l'auxiliaire précieux du grand chef, qui rappelle souvent le seigneur de l'ancienne féodalité.

Nous admirâmes pendant quelques instants encore l'oiseau qui allait être le principal acteur et le héros de la chasse et nous répondîmes à l'appel de notre hôte qui nous conviait au déjeuner.

Ce fut la même série de plats arabes, servis avec le même cérémonial, mangés suivant la mode indigène.

La chasse

Après quoi, chacun choisit sa monture, et, dans le cadre le plus grandiose qui fût, la troupe se mit en marche, précédée par le caïd, superbe d'allures, et par le fauconnier. Celui-ci, monté sur un petit cheval nerveux, agile, de formes admirables, avait juché le faucon sur son haut turban. Le cheval, mû comme par un ressort, bondissait sur place : l'oiseau, pour se tenir en équilibre, déployait ses ailes: cimier vivant, il donnait au cavalier l'apparence d'un guerrier fantastique du Walhalla.

A côté de lui, Si Abd-el-Kader, grave, presque austère, tenait l'oiseau sur son gant. Tel le seigneur du moyen âge dont il était, à ce moment, la personnification parfaite.



Cependant les rabatteurs, les uns derrière "les autres, contournaient la colline pour ramener les lièvres dans le champ d'action.

Voici que l'on aperçut tout à coup un lièvre dévalant, par sauts rapides, à travers les hautes touffes d'alfa, et ne montrant que son derrière orné de sa houppette blanche.

En un clin d'œil, les faucons, décapuchonnés et lâchés, s'élevèrent, puis, après une seconde d'hésitation, se précipitèrent comme un trait sur le lièvre, pour l'étourdir à coups d'aile, lui crever les yeux avec leur bec et lui déchirer le corps de leurs griffes. Ce ne fut, sur le sol, qu'une masse confuse d'ailes agitées, de poils arrachés et envolés! Comme une trombe, les cavaliers s'étaient précipités en avant, pour arracher le gibier à la plus affreuse des curées; et, malgré la promptitude de l'élan, ils n'enlevaient des serres terribles qu'une pauvre loque lacérée et écharpée d'où le sang s'égouttait, d'où s'échappaient les entrailles.

Une sorte de folie sanguinaire s'était emparée de tous, des novices et «les vétérans. Le barbare, le primitif qui sommeille en chaque homme, s'était réveillé: la griserie du plein air troublait les cervelles; et, cédant à cette fougue, les plus timides donnèrent de l'éperon dans les flancs des chevaux pour suivre, en une course folle, le fauconnier dont le mobile cimier semblait être le symbole de la destruction et du carnage !

Il arrivait que le lièvre avisé parvenait à éviter le choc des faucons par d'habiles ricochets et une savante stratégie. Les oiseaux, qui avaient heurté le sol avec violence, s'élevaient de nouveau, tournaient en des cercles concentriques pour retrouver la trace du fugitif. . . .

En trois ou quatre heures, on prit plusieurs lièvres. Après chaque capture, les faucons tournaient un instant, puis, avides de liberté, semblaient vouloir s'éloigner pour ne plus revenir ; mais le fauconnier ramenait vite auprès de lui les oiseaux en agitant la dépouille du lièvre et en poussant son cri d'appel.

La chasse terminée, on tourna bride et, au petit trot, on revint vers le campement.

Le retour. Le soir

On avançait dans un cirque sans fin, sous un ciel de féerie, d'un bleu pâle sous la voûte qui s'abaissait vers l'horizon en teintes dégradées jusqu'au violet fauve, avec les bords extrêmes frangés de longs nuages calmes, Léviathans colorés de rose, masses floconneuses ourlées de sang vermeil, ou iceberg figés dans l'immensité.

Le soleil descendit majestueusement derrière les nuages dont les contours se teignirent de pourpre, en une sorte d'apothéose, puis les tons s'atténuerent, se noyèrent peu à peu, et la première étoile s'alluma dans le ciel pur.

De longues gerbes de flammes, s'éparpillant en paillettes d'or, en bouquets de gemmes ignées, s'empanachant de torsades de fumée, éclairaient l'animation du camp et les derniers préparatifs du repas du soir et du coucher.

Un dernier mouton bêlait encore. On l'entraîna près d'un foyer; et, pendant que deux hommes lui maintenaient la tête et les pattes, un troisième, d'un coup sec, lui ouvrit la gorge. De lueurs brutales, la flamme éclairait le tableau; le sang qui s'épandait sur le sol ressemblait à des coulées de rubis. Les hommes qui, le couteau aux dents et les mains rouges, se démenaient pour dépecer la bête, ressemblaient aux acteurs d'une scène démoniaque. Dans les alternatives de lumière crue et d'ombre profonde, un éclair brillait sur les lames, une flamme s'allumait dans les regards, et les saillies et les lignes de visages sataniques s'accusaient sinistrement.

Dans la nuit, on voyait confusément les entassements de selles, les rangées de chevaux et de mulets entravés. En un coin, les faucons encapuchonnés demeuraient inertes. Près d'eux un lièvre, les yeux crevés et la gorge ouverte, était encore secoué par des spasmes d'agonie. On mit fin à son supplice.

Le repas terminé, nous allâmes nous coucher sous la tente. Au dehors, on n'entendait plus que les aboiements des chiens, les ébrouements des chevaux, et les chuchotements de quelques serviteurs qui terminaient leur besogne.

(فصل الثالث

عين المجل

شروق الشمس في سيدني عيسى

على الساعة السادسة صباحاً، استيقظ الجميع. كانت السماء مغشاة بعض الغيوم المتناثرة هنا وهناك. يكتسي المشرق تدرجات ذهبية عريضة يشوبها اللون الأرجواني؛ كانت الشمس تشرق خلال الأفق بينما كانت التلال والمرتفعات تتسلل من لونها الرمادي إلى البنفسجي الناعم والوردي الغامق، وكانت الألوان تنام تحت ظلال خفيفة. ويتباين للناظرين على الدوام طيف مدن تمتد عبر الأبخرة بلا نهاية.

تتعلق على الخيام أشلاء دخان كثيف تتمايل مع النسيم صباحاً ثم تتشتت إلى أطراف رقيقة في الهواء. بربت من الرماد البائت حلزونات مزرقة. بعض الماعز والحمير تبحث عن الأعشاب؛ كانت الخيول كلها جاهزة ومندفعة في مرابطها وتضرب بحوارها بلطف.

مع شروق الشمس، تبخر الضباب في السماء. كان الجو كذلك نقيا تماما حتى أن الأصوات تسمع من بعيد، نداءات الرعاة وصرخات البدو واتخذت صور الرجال والحيوانات أبعاد رائعة. ظهرت الجمال تسيرا في خط مستقيم ورؤوسها تتأرجح كأنها وحوش مروعة. العربية التي كانت تقلنا مثيرة للشفقة خاصة في هذا المكان الفخم، حيث كل شيء في تناسق، فالرجل أنيق وقوى، والحصان مهيأ للركوب والسباق والجمل للرحلات البعيدة أما مركبتنا فكانت تبدو وكأنها لطخة على ثوب نظيف. أخذ الجميع مكانهم المعتمد في العربية وأعطى سائقنا إشارة الانطلاق بضربة سوط متلوية، واتجهت الخيول نحو عين الحجل، المكان الذي تم اختياره لصيد الصقور.

الوصول، نوع جديد من الفروسية. الساحرتان

على مسافة قريبة من البرج يتجمع على هضبة عالية كل من سي عبد القادر بن محمد وابنه وابن أخيه وقائد الجي وعدد قليل من الضباط والفرسان المحليين والمرافقين والخدماء والصيادين. كلهم كانوا في استقبالنا. وكما جرت العادة، انفصل الفرسان وساروا مثنى مثنى، القدم للقدم والكتف للكتف واندفعوا في مناورات وجولات حلقة. بعد أن ابتعدوا 20 متراً منا أطلقوا النار من بنادقهم وانحرفوا بنفس السرعة وبزاوية حادة. إنها دائمًا نفس الفنتازيا التي تعرض أمام الضيوف كنوع من التشريف.

وفجأة، خرجت ساحرتان عجوزان بثياب رثة ووقفاً أمامنا. إحداهما بعينين مغمضتين في الضوء، وفم بلا أسنان، ووجه رقيق، والأخرى بعيون مرتعفة وأنف بارز. تخللت الطلقات النارية وجبلة الجياد زغاري.

ارتطم صداتها بالأرض الجافة، وهي صرخات الفرح التي تشبه صيحات الضبع. لا أعرف ماذا حدث، لكنني رأيت رجلين يطردان بعض المتسللين غير المنسجمين... في الواقع، بدا لي أننا أحدهما تغييراً طارئاً على الجو هناك، وذلك من خلال ملابسنا، وإيقاعنا، وسياراتنا. اختفت المرأةان بمجرد أن حصلنا على هبات صغيرة في أيديهن.

عين الحجل

ووصلنا الرحلة مرة أخرى حتى وصلنا إلى عين الحجل التي تبعد 16 كيلومتراً من سidi عيسى. عين الحجل في الجنوب هي نقطة توقف للقوات العسكرية. تم اختيارها لأن هناك نبعاً في الجوار، وهضبة واسعة للتخييم، وتلة تطل على المناظر، ومن الممكن تحويلها إلى نقطة تفتيش إن لزم الأمر. يمكنك من الأعلى أن ترى أرض أولاد علي بن داود، وخربة العذورة، وأولاد المختار. وكان للسلطة العسكرية برج مبني هناك، محاط بأسوار عالية، وفيه ثلاث غرف نوم واسطبل. في كل مكان نلاحظ العزلة والامتداد اللامتناهي للأرض الرملية الصفراء المرقطة بخصلات الحلفاء. كان كل شيء جاهزاً بالفعل لتناول طعام الغداء وقد تم الترتيب لمطاردة الصقور. نصبت الخيام، الخيام الجميلة في الجنوب تتناغم بخطوطها وشرائطها ذات اللونين المتناوبيين حيث ينسجم الأسود والأحمر. إنه نسق مثالي للديكور. كانت الخيول مقيدة في مجموعات أو في صف. أوقدت نيران كبيرة هنا وهناك. تم تقييد عدد قليل من الأغنام من أجل الضيوف المتجهين لتناول الغداء ووجبة العشاء.

وقف الصقارون على سروج خيولهم أو متكئين على جدار البرج، غير مبالين بما يحدث من حولهم. على بعد خطوات قليلة، كانت الصقور السبعة للفريق تجثم على طول عصا مثبتة على حجرين، تحت الضوء الصافي الذي تخلله ظلال صافية. وأثناء الاستراحة، كانت الطيور مكبلة برباطات صوفية وأحزمة رفيعة وكانت رؤوسها مغطاة بغطاء جلدي أحمر "الكمبيد"¹ المطرز بالذهب وتعلوه شارة مدبية صغيرة. هذا هو الفريق الذي أرسل خصيصاً من أولاد نائل إلى القائد الباشاغا. عند اقترابنا، قام الصقار المتمرس للباشا غا وأخذ صقرًا "الثاير" وحرره من أغلاله وغطائه ووضعه على يده الملمسة بـ"القفاص".

ثم ظهر لنا الرجل والطائر بأبهة وعظمة. الصقور طيور قتالية مهيأة بالفعل للقتال والمباغة. إنها أنيقة وقوية. ومنقارها حاد مثل المقص رغم صغرها؛ عيونها مستديرة ومحدقة وقادسية مطفوحة بالذهب. تمنح أجنبتها الممدودة إحساساً بالقوة المذهلة؛ مخالبها الصفراء صلبة مثل الفولاذ، حادة مثل طرف الخنجر.

¹ الكمبيد: (Combid) يُستخدم هذا الغطاء، المعروف بالبرقع، لهيئة الطير ومنعه من الهياج أو التشتت أثناء عملية التدريب أو النقل، يساعد الكمبيد في الحفاظ على تركيز الطير، ويمكن أن يكون مزيتاً أو مطرداً بالذهب أو مواد زخرفية أخرى، خاصة في الثقافات التي تهتم بالصقارية كتراث وتقاليد.



عين الحجل. صقور ومدربوها

متكئين على جدار البرج، غير مبالين بما يحدث من حولهم. على بعد خطوات قليلة، كانت **الصقور السبعة** للفريق تجثم على طول عصا مثبتة على حجرين، تحت الضوء الصافي الذي تخلله ظلال صافية...

تخترق عند أول وهلة جسد الفريسة المجهدة. يكسوها ريش رمادي باهت على الظهر والأجنحة، أبيض مرقط على البطن. يبدو رائعاً على القفاص لأن الصقار العجوز الذي عاش مع صقره لمدة أربعين عاماً ويعرف جيداً كيف يمسكها ويدربها ويعطيها الحرية في وقت التزاوج ويستعيدها عندما يحين وقت الصيد. نشعر أن الصقار خلق من أجل هذه الطيور وأنه من خلال التعامل معها، انتهى به الأمر إلى أن يصبح مقرباً منها. إنه رجل في الستين من عمره، طويل القامة، نحيف وعصبي، قليل الحركة والكلام له أنف معقوف وعين صلبة وثابتة. نظراته مثل نظارات الصقر، تبدو وكأنها تفحص أعماق الهواء بحثاً عن فريسة. في أكتوبر، ينطلق الصقار على حصانه متوجهًا إلى المناطق التي من المرجح أن يجد فيها الصقور. يأخذ معه طيور الحجل الحية أو الحمام التي تكون مغطاة بإحكام بشبكة من شعر الخيل، لا تظهر منها سوى الأرجل والأجنحة. يتم ربط الفراخ الخفيفة بالشبكة بخيط طويل حتى يتسرى للحجل

الطيران على ارتفاع معين قبلة الطير. بمجرد ظهور الصقر يتم إطلاق الفريسة فينقض عليها الطائر الجارح، الذي تتشابك مخالبه المنحنية في الشبكة الرفيعة. يمسك الصقار الطير ويضع على رأسه قلنسوته. تتكرر العملية حتى يكتمل فريق الطيور.

هذه هي الطريقة التي عرفت في العصور الوسطى حيث كان يتم خياطة جفونها وبعد الفترة الأولى يقومون بفكها. لا تعتقد أن تدجين الطائر قد اكتمل إذ لابد أن تبذل جهوداً كبيرة لتزويفه. يعتاد الصقر قدر الإمكان على صاحبه ويعرف على صوته وصراخه. وبعد أيام قليلة من الأسر، يلقى أمامه أربن مكسور الساق لينقض عليه يتغذى منه. ولكن هل يحاول الهروب؟ لا. فالرجل العربي يطلق صرخة خاصة، يلوح ببقايا الفريسة فوق رأسه ومن النادر أن لا يعود الطائر. من المهم عدم إطعامه عشوائياً باللحم. يجب أن يتغذى على نتاج صيده الأول. باختصار، لا ينبغي على المرء أن يسمم الصقر ويثقله بالطعام الزائد، ولكن يجب أن يحافظ دائمًا على غريزة الكواسر مما يجعله في حالة تأهب. لعدة أسباب يصدر الزعيم الأمر بالإفراج عن صقروره في نهاية شهر مارس. فهذا هو عصر التزاوج كما قلت من قبل. من ناحية أخرى، فإن المتابعة وإطعام فيق كامل من هذه الطيور ودفع أجور الصقارين يتتحول غالباً إلى نفقات باهضة. تناقصت مهرجانات الصيد بشكل متزايد لأنها تتطلب الكثير من المتاعب والمال. يتولى "الجوداد" إيواء الضيوف المميزين والخياليين والمنسقين وسائل الإبل المسؤولين عن نقل الخيام والصقارين وحيواناتهم وكذا إطعامهم لعدة أيام ويتم الترتيب لذلك مسبقاً. تستخدم الصقور لصيد الحباري ومالك الحزين والغزال والأرنب البري. عند الإشارة يتم دفع "الحباري" نحو الصقار الذي يفلت الصقر فيرتفع وينقض عليها ثم يمسكها بمخالبه وهو يهوي بها على الأرض. أما مالك الحزين فيحلق بشكل دائري أثناء هروبه لكن الصقر أكثر دهاء وخبرة.

إذ ينطلق من مركز الدائرة ويشق طريقه صوب الطائر ويرتطم به في نقطة مدرستة بدقة. وماذا عن الغزال؟ يندفع الصقر نحوها ويقتلع عينها بفضل غرائزه التي طورها وقوته وبصره الثاقب. يمكن القول أن هذا الطائر أصبح المساعد الأول للزعيم الأكبر الذي يذكرنا بالأسيد الإقطاعيين. كنا من هرين بالطائر الذي كان بحق المثل الرئيسي وبطل الصيد بلا منازع. دعانا المضيف لتناول الغداء فاستجبنا. كانت سلسلة الأطباق العربية نفسها، وتم تقديمها مع الاحتفالية نفسها كذلك، وقد أكلنا بطريقة الأهالي.

الصيد

بعد ذلك، اختار كل واحد مركبه، وانطلق الركب في فخامة لا متناهية حيث يتقدمنا القائد بهياته الزاهية والصقار بجانبه يعتلي حصانا صغيرا، حصان عصبي ورشيق يثير الإعجاب. جثم الصقر على عمامته العالية والحصان ينط برشاقة في مكانه بينما يتارجح الصقر ليحفظ توازنه. نشر جناحيه فأعطى الفارس مظهرا رائعا وكأنه محارب فالهالا¹.

¹ فالهالا (Valhalla) هي قاعة ضخمة ومحيبة في الأساطير الإسكندنافية، تستقبل فيها الأرواح الشجاعة للمحاربين الذين ماتوا في المعارك. هؤلاء المحاربون يُعرفون باسم "أيهيريار" (Einherjar). وتعتبر فالهالا مكاناً مقدسًا ومحترماً، حيث يستعد المحاربون فيه للمعركة النهائية المعروفة باسم "راكناروك . (Ragnarök)، وقد وصف المؤلف الفارس وكأنه محارب أسطوري من محاري فالهالا، مما يضفي عليه حالة من البطولة والقوة.

بجانبه سي عبد القادر بملامحه المترممة والقاسية أحياناً، حمل الطائر على قفازاته وكأنه إله من العصور الوسطى. في تلك الأحيان تهافت الطبالون الواحد تلو الآخر، يتسلقون التلة لإعادة الأرانب البرية إلى ميدان المطاردة.



فجأة رأينا هناك أرنباً يندفع للأسفل،
بخطوات سريعة بين خصلات الحلفاء العالية، ولا
يظهر سوى ذنبه مزيتاً بالأبيض الناصع. وفي لمح
البصر، انتفضت الصقور المتحررة، واندفعت بلا
تردد نحو الأرب لتضريها بأجنحتها وتفقاً عيونها
بمناقيرها وتمزقها بمخالبها. بوسعك أن تشاهد على
الأرض كتلة سوداء من الأجنحة المهززة يتطاير بينها
الشعر الممزق مشكلاً زوبعة. اندفع الفرسان إلى الأمام
لانتزاع الفريسة من مخالب الطيور. لكنهم لم يفتوكوا
سوی قطعة صغيرة وممزقة على الرغم من سرعتهم. كان الدم يقطر
منها والأحشاء تت撒قطر.

خيّم نوع من الجنون الدموي على الجميع، المحاربين منهم والمسالمين. كلنا نحمل تلك النفس البربرية المتوحشة التي تسكن في أجسادنا وقد استيقظت. لقد تشبع الهواء بالحرارة والجنون، تحمست الخيول وتتابعت مثل خيول توتنهام في تسابق جنوني خلف الصقار الذي اتخذ من عمamته وصقره رمزاً للتدمر والقوة!

وقد حدث أن تمكن الأرنب الدهنية من الإفلات من الصقور عن طريق الارتداد الماهر والاستراتيجية المدروسة. هرست الطيور مرة أخرى بعدما اصطدمت بالأرض، وحلقت في دوائر حول نقطة المركز لتتابع أثر الفريسة الهازبة...

في غضون ثلات أو أربع ساعات، تم صيد عدة أرانب. تستدير الصقور للحظة بعد كل أسر وكأنها تطالب بالحرية لتمضي بعيداً ولا تعود.

ولكن سرعان ما أعاد الصقار الطيور إليه، ملوحاً بجلد الأرنب ودفعه وهو يطلق صيحة. عندما انتهى الصيد استدرنا وهرولنا إلى المخيم.

العودة. المساء

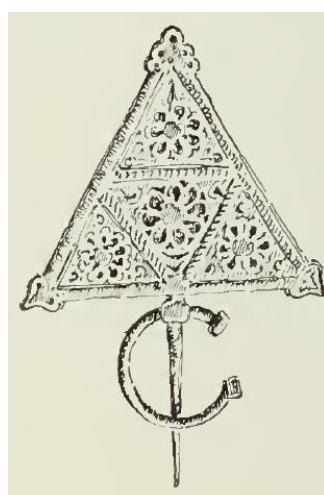
تقدمنا في استعراض كما لو أننا في سيرك، تحت سماء خرافية ملونة بالأزرق الباهت تحت خط الشفق الذي يهبط نحو الأفق في ظلال مختلطة بالبنفسجي والبني، بينما تكسو الأفق القصوى سحب طويلة هادئة وبعضاها منفوشة ملونة بالوردي وأخرى محفوفة بلون الدم المزاج أو لون جبل الجليد الضخم.

غربت الشمس بشكل مهيب خلف الغيوم التي تشوبت معالمها باللون الأرجواني اللامع، ثم خمدت الأصوات وغرقت شيئاً فشيئاً. أضاء أول نجم في السماء الصافية وتناثرت حزم طولية من اللهب في رقائق ذهبية كأنها باقات من الأحجار الكريمة النارية. وأضاءات خصلات من الدخان لتبعث الروح في المخيم. إنه إشعار بجاهزية وجبة العشاء ووقت النوم. كان الخروف الأخير

لا يزال يغزو وقد جروه إلى الموقد. أمسك رجلان برأسه ورجلية بينما شق ثالث حلقة بضربة قوية. رفعت قبضات من النار أضاء الموارد بلهما. بدا الدم الذي انتشر على الأرض مثل ياقوت أحمر. استعد الرجال لسلخ الخروف وهم يضعون سكاكينهم في أسنانهم وأيديهم حمراء، حيث بدوا وكأنهم ممثلين في مشهد شيطاني. على وجوههم تبادر الضوء الحاد مع الظلال العميقية، أشرق و Mimeض على نصال خناجرهم، وبدت شعارات مضيئة في عيونهم وفي أخداد وجههم، كانت خطوط وجوههم شيطانية تشبه وجوه الأشرار.

في الليل، كنا بالكاد نرى أكواام السروج وصفوف الخيول والبغال المربوطة. في إحدى الزوايا، كانت الصقور المقنعة تریض بلا حرalk. بالقرب منها أرنب مذبوح ومثقوب العيون، كان لا يزال يتخبط بسبب تشنجات الألم لكننا أنهينا محنته.

أنهينا الوجبة، وخلدنا إلى النوم في الخيمة. في الخارج، كل ما يسمع هو نباح الكلاب وشخير الخيول وهمسات من الخدم الذين كانوا ينهون عملهم.



Chapitre IV

ENTRE AÏN-HADJEL ET BOU-SAÂDA

Dans le pays des Oulad Sidi-Brahim

Dès l'aube, l'animation régnait dans le campement.

Les étoiles brillaient encore de tout leur éclat; le temps était pur, mais une bise aigre donnait une sensation de froid vif. Après avoir terminé les préparatifs du départ, nous saluâmes le caïd, et la diligence roula avec de durs cahots à travers les ornières.

Entre Aïn-Hadjel et Aïn-Kerman, le terrain est accidenté et la piste mauvaise. Ce ne sont que montées et descentes, tantôt dans du sable, tantôt dans des terres détrempées où les roues de notre voiture s'enfonçaient profondément. Dans ce pays des oulad Sidi-Brahim, qui fait face à la plaine du Hodna, les mamelons succèdent aux plateaux suivant des pentes souvent très déclives.

Les chevaux avançant avec peine, nous descendîmes du coche pour marcher et réagir contre le froid qui nous envahissait. Le thermomètre, à 600 mètres d'altitude, marquait, en effet, 5 degrés au-dessous de zéro; le givre avait constellé de gemmes les maigres touffes d'alpa et de drinn. Dans ce paysages désolé, sous un ciel pâle, on ne voyait que les ondulations du terrain, un sol presque nu dont la monotonie n'était interrompue que par quelques pistachiers sauvages, et, de loin en loin, par un campement composé de deux ou trois tentes noircies par la fumée, seuls indices de vie humaine.

Ain Kerman

Après une dernière descente. Aïn-Kerman apparut enfin. Aïn-Kerman est situé à 584 mètres d'altitude, à 94 kilomètres d'Aumale, et à 30 kilomètres d'Ain- Hadjel. C'est une ancienne oasis abandonnée. Le site en est pittoresque. Sur le monticule, au pied duquel une source donne une eau abondante, s'élèvent le bord] et quelques ruines. Dans le ravin qui contourne la colline, des bouquets de lauriers roses et des palmiers mêlent encore leur verdure. Sur le bord de la route, quelques constructions servent d'écuries, de remises, et d'habitation. De ce point, la vue s'étend sur toute la partie occidentale du Hodna, sur ce vaste triangle formé par le chott, le massif des Haouamed et les collines des oulad Sidi-Brahim. C'est à la pointe sud-ouest de ce triangle que se cache Bou-Saâda.

Il était n heures du matin, la marche, le froid vif avaient si bien creusé les estomacs (pie tous nos compagnons axaient les dents longues et criaient famine. C'est dire que l'on fit honneur aux provisions étalées sur des banquettes de sable, à proximité de la source. Le café nous manquait, ce café si agréable dans la vie ordinaire, si nécessaire en excursion. On allait se lamenter sur le mode mineur, lorsque la Providence envoya à notre secours une brune fille d'Espagne qui nous offrit un liquide très noir mais très peu parfumé. Était-ce du café? A quoi bon approfondir? Il est des sujets que l'on ne doit effleurer que des lèvres. Nous fîmes mieux: le café fut effleuré et même absorbé. La foi sauve ! Des félicitations et des remerciements furent prodigués à la piquante Ascension dont la belle humeur égayée la tristesse du caravansérail.



BOU-SAADA. LA KOUBA, LE FORT ET LA VILLE.

Après avoir dépassé l'éperon du djebel el Bathen, nous arrivâmes enfin sur les dunes qui s'étendent devant Bou-Sâda, et l'oasis nous apparut dans la magie d'une cité de rêve.

A partir d'Aïn-Kerman, on franchit un petit désert où, entre les pierres et les éboulis de rochers, poussent à foison des roses de Jéricho qui s'épanouissent subitement sous l'influence de l'humidité. A cette solitude d'une grande mélancolie je donnerai le nom de désert de la " tortue " à cause d'une roche qui a l'apparence d'une gigantesque carapace.

Quelques instants après, nous sortions de cette nature désolée, de ces mamelons et de ces collines, pour aboutir à la plaine et contourner le massif montagneux des oulad Sidi-Brahim. Par un contraste subit, le décor se développa dans toute sa splendeur.

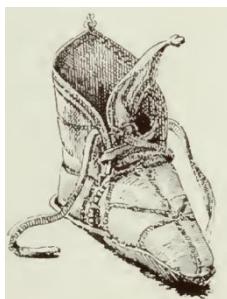
A droite s'élèvent des montagnes presque parallèles, s'allongeant de l'ouest à l'est. Le sommet en est constitué par une surface plane soutenue par des murailles rocheuses semblables à des remparts. L'une d'elles, isolée, de forme presque rectangulaire, s'appelle " le billard du colonel Pein."

En vue de Bou-saâda

Après avoir dépassé l'éperon du djebel El-Bathen, nous arrivâmes enfin sur les dunes qui s'étendent devant Bou-Saâda, et l'oasis nous apparut dans la magie d'une cité de rêve. D'Aïn-Hadjel à Bou-Saâda nous avions franchi 70 kilomètres. Rien, je crois, ne saurait rendre des sensations qui deviennent si subtiles et si affinées, que le coloris des mots ne les peut traduire ni peindre.

La dune, couleur d'or vierge, s'élève en monticules, s'épand en nappes, se dresse en petites vagues, et semble défendre l'accès d'une ville sacrée, protégée d'autre part par les parois rocheuses déjà teintées de rose.

Sur les palmiers, sur les maisons flottaient des fumées bleuâtres, et toute cette nature semblait être imprégnée de mélancolie douce, dans un recueillement de prière.





PANORAMA DE BOU SAÂDA.

الفصل الرابع

بين عين الحجل وبوسعدة

في بلاد أولاد سيدي إبراهيم

مع بزوج الفجر، بدأت مشاهد المخيم تتراءى لنا. كانت النجوم لا تزال تتلألأً وكان الجو صافياً لكن نسيماً شديداً أعطى إحساساً بالبرودة الشديدة. بعد أن انتهينا من حزم أمتتنا، قدمنا التحية للقائد، وانطلق الركب بسرعة عبر الأخداد. بدت التضاريس بين عين الحجل وعين خرمان وعرة والمسار رديئاً. أخذ السير يتقلب صعوداً وهبوطاً. أحياناً نغوص في الرمال وأحياناً على أرض رطبة حيث تغرق عجلات سيارتنا بعمق. في أولاد سيدي إبراهيم هذا البلد الذي يقابل سهل الحضنة تتابع النتوءات عبر منحدرات شديدة. واجهت الخيول صعوبة في التقدم فترجلنا للمشي والاحتماء من البرد المحتاج. وصلت الحرارة على ارتفاع 600 متر إلى 5 درجات تحت الصفر؛ كان الصقيع يرصع الأحجار وخصارات الحلفاء والدرءين. لم يسعنا في هذا المشهد المهجور وتحت السماء الشاحبة سوى رؤية تمويجات الأرض، وهي أرض شبه عارية لم يكسر بساطتها سوى عدد قليل من أشجار الفستق البرية. تراءى لنا شيئاً فشيئاً مخيم من خيمتين أو ثلاثة وقد سودها الدخان.

عين خرمان

وأخيراً أشرفنا على بلدة عين خرمان العلامة الوحيدة لوجود حياة بشريّة في هذه الأرض. تقع عين خرمان على ارتفاع 584 متراً فوق سطح البحر، وتبعد 94 كيلومتراً عن سور الغزلان، و30 كيلومتراً عن عين الحجل.

إنها واحة قديمة مهجورة وموقعها خلاب. على صفتها المرتفعة ينبع ماء غزير وبعض الآثار. لا تزال حزم من الدفل والأشجار النخيل تمتزج مع الخضراء في الوادي الضيق الذي يطل على التل. هناك عدد قليل من المباني على جانب الطريق تستخدم كاسطبلات وحظائر ومساحات للعيش. من هذه النقطة، يمتد المنظر إلى الجزء الغربي بأكمله من الحضنة حيث تنتشر كتلة الحوامد وتلال أولاد سيدي إبراهيم بشكل مثلث شاسع ينتهي عند بوسعاده بالجنوب الغربي.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والمسير الطويل قد أنهك بطنوننا خاصة وأن البرد شديد (اصطكت أسناننا وصاح الرفاق من الجوع وقد اتخذ كل منا مقعده على بجانب الماء. القهوة هي كل ما ينقصنا، نعم تلك القهوة الممتعة جداً في حياتنا، والتي لا غنى عنها في الرحلات. كنا نتصور جوعاً حتى أرسلت لنا النجدة فتاة إسبانية سمراء لمساعدتنا وقدمنا لها شراباً معطرًا شديد السوداد. هل كانت قهوة؟ لم هذا السؤال على أية حال؟



بوسعادة، القبة، القلعة والمدينة

سيكون من الأفضل أن نتهامس فقط حول هذا الموضوع، وكما كان الحال اكتشفنا أنها قهوة حقيقة بمجرد أن لمست شفاهنا. لقد نجونا بأعجوبة وغمرتنا عبارات التهاني والشكر التي أيقظت روح الفكاهة وسط القافلة. عبرنا صحراء صغيرة في عين خرمان حيث تنتشر الحجارة والحصى وبعض من ورود الأريحا¹ التي تتفتح تحت تأثير الرطوبة.

¹ ورود الأريحا، أو زهرة أريحا، هي نبات صحراوي يتميز بقدره على التحمل في الظروف القاسية، يعرف أيضًا بـ"النبتة القابلة للعيش" أو "نبتة القيامة" بسبب قدرته على التجدد بعد الجفاف، تتواجد بشكل رئيسي في المناطق الصحراوية، خاصة في الصحراء الكبرى، تُستخدم لأغراض طبية وشعبية، حيث يعتقد أن لها فوائد صحية متعددة وتُستخدم في العلاج التقليدي.

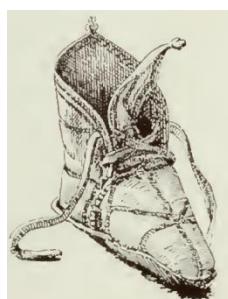
سأطلق اسم صحراء "السلحفاة" على هذه القفار الكثيبة لأن بعض الصخور تشبه الصدفة العملاقة. بعد لحظات كنا قد تركنا تلك الطبيعة المقفرة والتلال، لنصل إلى السهل ونلتقي حول سلسلة جبال أولاد سيدى إبراهيم، تطور الديكور فجأة في تناقض تام.

ترتفع الجبال المتوازية إلى اليمين، وتمتد من الغرب إلى الشرق. يتكون أعلى الجبل من سطح مستو مدعوم بجدران صخرية تشبه الأسوار.

أحد الجبال معزول وشبه مستطيل الشكل، يسمى "صالحة العقيد باين" أو "le billard du colonel Pein" بالفرنسية.

على مشارف بوسعادة

بعد أن تجاوزنا طرف جبل البطن، وصلنا أخيراً إلى الكثبان الرملية المترامية أمام بوسعادة، وظهرت لنا الواحة الساحرة كمدينة الأحلام. قطعنا من عين حجل إلى بوسعادة مسافة 70 كيلومتراً ولم يفتنا حسب اعتقادي شيء ولم يكن في أنفسنا وقع حيال أي منظر كما كان لمنظر ألوان الكثبان الرملية، إنه لون الذهب الخالص. كانت الرمال تنتشر في طبقات على التلال وترتفع في موجات صغيرة، كأنها تحاصر مدينة مقدسة وتحميها. تحميها من ناحية أخرى جدران صخرية مشوبة باللون الوردي. تطفو سحب من الدخان المزرق علىأشجار النخيل وعلى البيوت، ويبدو أن كل هذه الطبيعة تغوص في كآبة ناعمة وكأنها جلسة تأمل.



Chapitre V

BOU-SAÂDA

Les fondateurs de Bou-Saâda Ben Rabia. Sidi Thameur. Si Dehim

Le commandant Crochard, dont l'obligeance et la courtoisie furent si parfaites, a bien voulu me communiquer sur l'histoire de Bou-Saâda quelques documents, qui, naturellement, ont leur place marquée en cet ouvrage.

Chaque fois qu'en pays arabe on veut se référer aux origines, l'histoire, faite de traditions, se trouve mêlée à la légende, le merveilleux au réel. Comme je ne suis pas historien, je me borne à relater, en laissant au lecteur le soin de faire un juste départ entre le fantastique et le vrai.

Vers le VI^e siècle de l'hégire, un personnage du nom de Sliman ben Rabia, qui était parti du Tafilalet, séduit par le paysage et l'abondance des eaux, s'arrêta sur les bords de la rivière, à 2 ou 3 kilomètres de la ville actuelle, à l'endroit où est situé le moulin de M. Ferrero. Il y construisit quelques demeures pour lui et les siens. Peu de temps après, il y fut rejoint par Si Dehim, originaire des environs de Médéa.

Vers la même époque, un chef de bande redouté, Sidi Tsameur, entraîné par son humeur vagabonde et aventureuse, fit une incursion avec ses hommes dans la région montagneuse des oulad Naïl qu'il voulait piller. Il fut, paraît-il, détourné de ce dessein criminel par la volonté divine. Oblige de s'arrêter en route pour reprendre ses faucons qui s'étaient enfuis et ne répondraient plus à ses appels, il eut, pendant la nuit, une vision céleste et entendit une voix qui lui ordonnait de renvoyer ses compagnons et de poursuivre seul son chemin. Sidi Tsameur courba la tête et se rendit seul à El-Aouinet, où il rencontra Si Sliman. Celui-ci, ouali de Dieu et possesseur de la "baraka," ne tarda pas à l'instruire et à le convertir au bien. Ce lieu, consacré par la présence du saint

homme et par la conversion de Sidi Tsameur, s'appela désormais " Taïbin" (en arabe, la conversion, de " tab " se repentir, se convertir). C'est encore le nom de la plaine qui s'étend en aval de Bou-Saâda. De plus. Us indigènes, désireux de perpétuer ce souvenir, donnèrent à la montagne, au pied de laquelle Sidi Tsameur avait égaré ses faucons, le nom de " Kef Tiour " (la roche aux faucons).

Les trois marabouts ne restèrent pas longtemps à El-Aouinet. Pendant que, suivant le cours de la rivière, ils cherchaient des terres fertiles propres à la culture, la femelle d'un chacal sortit de son trou, et, au lieu de fuir à leur approche, vint au-devant d'eux pour les inviter à se fixer en cet endroit, qui est encore connu sous le nom de " Diba " (diba, femelle du chacal, " dib " en arabe).

Convaincus par ce prodige, témoignage de la volonté divine, ils n'hésitèrent pas à construire en ce lieu des maisons pour eux et une mosquée, la Djemaa El Assik, du nom de la femme de Si Tsameur. Autour de ce premier oratoire se groupèrent d'autres demeures; et c'est ainsi que se créa la cité naissante.

Désireux de donner un nom à ce douar, mais ne pouvant s'entendre, ils avaient résolu de s'en rapporter au hasard, lorsqu'une négresse, qui suivait une caravane, passa en appelant sa chienne " Saâda ! Saâda !" "bonheur! bonheur!" Le mot leur parut d'un bon augure et les trois hommes décidèrent, d'un commun accord, que la ville s'appellerait Bou-Saâda (le père du bonheur).

Suivant une autre opinion, cette dénomination proviendrait de la situation même de la ville, qui, bordée, d'un côté, de dunes arides, adossée, de l'autre, aux parois d'une montagne, apparaît, dans un cadre de désolation, comme la terre promise avec ses ombrages et ses eaux abondantes.

La bourgade ne tarda pas à prospérer et à s'agrandir, bien qu'elle fût inquiétée par une tribu de pillards, les Bidarna, d'origine inconnue, qui vivaient dans le djebel Kerdada et auxquels les habitants de Bou-Saâda durent donner go chamelles pour acheter leur tranquillité. Les Bidarna disparurent, en abandonnant leur village qui finit par tomber en ruines.

De Sidi Dehim descendent les Cheurfat, fraction actuelle de Bou-Saâda; de Sidi Tsameur, les oulad Sidi Arkhat, les Achacha, les oulad Atiz et les oulad Hamida.

Sidi Azouz, originaire des Laghouat-Ksal, qui était venu s'installer auprès de sidi Tsameur, fut le père des Zeroum.

Enfin les Mouamin descendant d'un Saharien qui, lui aussi, s'était implanté à côté des trois fondateurs.

Ces Mouamin, après quelques luttes intestines avec les oulad Sidi Harkhat, finirent par avoir le dessous; mais ils obtinrent la paix et s'installèrent définitivement dans le quartier de Bou-Saâda qu'ils occupent encore aujourd'hui.

L'occupation Française: Zaatcha. Le capitaine Pein

Les Français firent en 1843 une première apparition à Bou-Saâda, mais sans y rester. En 1849, lorsque Bou Zian et son lieutenant Si Moussa soulevèrent les tribus du sud et se fortifièrent avec des munitions, des vivres et des partisans fanatiques, dans l'oasis de Zaatcha considérée comme une forteresse imprenable, les habitants de Bou Saâda et les oulad Naïl s'agitèrent d'une façon inquiétante. Un marabout de Bou-Saâda, Ben Chabira, qui correspondait avec Bou Zian, était parvenu à entraîner un notable parti de la ville.

"Le marché, dit le colonel Pein dans ses lettres familières, devint le rendez-vous des révoltés; "ils y achetaient, pour la guerre sainte, des armes et des munitions; partout, dans les rues, dans les maisons, on fabriquait de la poudre. . ." On frappa un grand coup.

L'assaut, le sac de Zaatcha, le massacre de tous les révoltés, la mort de Bou Zian et de tous les siens mirent un terme à l'insurrection. Epouvanté, Bou-Saâda rentra dans le devoir. Ce n'est pas sans émotion que je songe à ce fait d'armes si glorieux et que j'évoque le souvenir de ceux qui succombèrent, des braves parmi lesquels se trouvait mon oncle Rosetti, tué d'une balle en plein cœur.

C'est avec fierté que je rappelle ici les noms de Canrobert, de Bourbaki, de du Barrai, de Lourmel, du général Herbillon, qui commandèrent les opérations en cette journée du 26 novembre 1849.

Le colonel du Barrai, à la tête de ses troupes décimées par les balles et le choléra, s'arrêta à Bou-Saâda, avant de rentrer à Sétif. Le 14 février 1850, il y installa le capitaine Pein en qualité de commandant supérieur du cercle militaire, avec une compagnie du 38e de ligne et un peloton de spahis. Il avait paru indispensable de fortifier ce point stratégique et de soumettre les tribus arabes à l'action immédiate et énergique d'un chef militaire.

Le capitaine Pein demeura à son poste pendant deux années consécutives, du 14 février 1850 au 13 février 1852, jusqu'au jour où il passa au 2^e régiment de zouaves.

Pendant cette période, sa vie ne fut pas une sinécure. Sur l'ordre du général de Mac-Mahon et d'après les indications du général Bosquet, on commença la construction du fort; et la direction de ces travaux fut confiée à un capitaine du génie dont le nom devint célèbre, au capitaine Faidherbe. Pein v installa tous les services du commandement militaire.

Entre temps, avec une infatigable activité, le capitaine parcourait le pays, pénétrait dans les régions montagneuses, ramenait sur le marché de Bou-Saâda les oulad Naïl, qui, par crainte de notre autorité ou par naturelle méfiance, restaient confinés dans leur pays et se tenaient sur la réserve.

Par sa fermeté et son infatigable activité, il maintint ses administrés dans le devoir, malgré toutes les tentatives faites par Mohammed ben Abdallah, chérif d'Ouargla, pour entraîner dans un mouvement insurrectionnel les tribus du sud. Ce chérif d'ailleurs eut beau s'appeler pompeusement " Moul-es-Saa," le maître de l'heure, il fut battu, à sept lieues de Biskra, par les chasseurs d'Afrique du lieutenant Andrieu et ne se releva pas de ce coup porté à son prestige.

De son côté, le capitaine Pein, concurremment avec M. Boudeville, commandant supérieur du cercle de Biskra, s'opposa à la défection des oulad Athia, réprima la révolte des oulad Sassy et, pour ce brillant succès, fut cité à l'ordre du jour, le 19 juillet 1852, par le général Bosquet, qui commandait alors la subdivision de Constantine.

Aux heures de loisir, il établissait la carte topographique de son cercle avec le lieutenant l'outet, du 2^{ème} régiment de la légion étrangère, et le sous-lieutenant Thomassin, dont la carrière militaire fut si brillante, et enfin, en des lettres familières, il écrivait ses impressions avec beaucoup d'humour et une verve endiablée. (Lettres familières du colonel Pein, chez Ad. Jourdan, Alger.) En ces récits se retrouvent les qualités de notre race: l'esprit, la belle humeur et le courage chevaleresque. Son nom fut donné, en 1897, à la place principale de Bou-Saâda.

Le cercle militaire. Les tribus. Les Oulad Nail

Le commandant supérieur Crochard, par une longue expérience acquise en pays arabe, par une connaissance parfaite des moeurs locales, est le digne successeur de ces brillants officiers.

Le cercle militaire qu'il administre dépendait autrefois de la subdivision de Sétif: il relève aujourd'hui de la subdivision de Médéa et de la division d'Alger.

Il a une superficie de 1,484,725 hectares. Sur ce vaste territoire, en plaines et en montagnes, sont disséminées 21 tribus, dont 7 font partie de l'annexe de Sidi-Aïssa. Dans le cercle de Bou-Saâda; oulad Sidi Brahim, les oulad Gherib, les oulad Sidi Zian, les Roumana, les oulad Sliman, les Cheurfat El Ilamel, les Messaad, les o. Ali ben M'hamed, les o. Khaled, les o. Ameur Dahra, les o. Ameur Guebala, les o. M'hamed Mebarek, les o. Amara, dont l'effectif s'élève à 29,820 habitants. L'annexe de Sidi-Aïssa comprend les Adaoura Cheraga, les Adaoura Gheraba, les o. Abdallah, les o. Ali ben Daoud, les o. Sidi Aïssa, les Sellamat, les o. Sidi Hadgerès. Soit un effectif de 20,822 habitants: et, dans l'ensemble, une population totale de 56,237 indigène.

Les Arabes qui vivent dans la région montagneuse sont confondus sous la dénomination commune d'oulad Naïl. Les monts des oulad Naïl, prolongement géographique des monts des ksour et du djebel Amour, s'étendent dans le département d'Alger, au sud des Hauts Plateaux. Leur altitude maxima est de 1500 mètres et le djebel Bou-Khaïl semble en être le noeud central. Les oulad Naïl sont des montagnards vigoureux, de-marcheurs infatigables et des guides excellents. Pendant la période de sécheresse, ils descendent dans le pays plat de Mahaguen, sur les bords du chott du Hodna ou dans le Tell pour faire pâturer leurs bestiaux.



BOU-SAADA.

La ville est construite sur une colline et s'étend en un amphithéâtre incliné vers l'oasis.

Leurs femmes, qui ont une réputation de légèreté excessive, sont les victimes d'une légende : on raconte que les femmes de ces tribus, aussitôt après leur nubilité, vont de douar en douar, de ville en ville, en quête d'amours faciles et de bénéfices rémunérateurs ; et que, leur dot constituée, elles rentrent dans leur tribu où elles trouvent un mari. Chez les Arabes eux-mêmes, " Naïlia " (femme des oulad Naïl) et " Sadaouïa " (femme des oulad Saad ben Salem) sont les synonymes de "filles de mauvaise vie." Ce n'est qu'une légende ! Il va dans ces tribus de bonnes épouses et des femmes fidèles avec lesquelles les gens de Bou-Saâda se marient volontiers.

En voici une preuve : les filles qui ont commencé à se livrer à la débauche rentrent rarement dans la tribu et continuent à alimenter les couvents spéciaux qui leur sont attribués à Bou-Saâda, à M'Sila, à Biskra et dans les autres villes du sud.

Quoi qu'il en soit, les oulad Naïl n'ont pas une confiance exagérée dans la vertu et la fidélité de leurs femmes qu'ils appellent " chouatin'" (des coquines) ; et, quand ils sont obligés de s'absenter, ils les placent sous la surveillance d'un oncle, d'un frère ou d'une vieille. En général, elles ne sont pas jolies. Les rudes travaux auxquels elles se livrent ont vite altéré leur visage et déformé leur corps.

Altitude. Climat. Habitants

Bou-Saâda est situé au sud-ouest du Hodna, au pied des contreforts de ces montagnes, à 578 mètres d'altitude, à 200 kilomètres à vol d'oiseau du littoral. Maigre cette altitude, la température y est beaucoup plus élevée que dans d'autres régions placées sous le même parallèle.

La ville, située entre deux chaînes de collines rocheuses à parois lisses, orientées du sud-ouest au nord-est, reçoit, pendant l'hiver, les vents du nord-est froids et secs ; et, en été, du sud-ouest, un vent chaud et étouffant qui souffle parfois, durant des semaines entières, avec une extrême violence.

Pendant quatre mois d'été, Bou-Saâda, entre ces murailles et les dunes surchauffées par un soleil implacable, se trouve comme dans un four et le thermomètre s'y maintient entre 40 et 42 degrés, quand il ne monte pas jusqu'à 47 degrés. L'air y est relativement sec.

Les pluies sont rares. Le pluviomètre n'y accuse qu'une moyenne de 250 millimètres.

Il y a quelques violents orages, surtout à la fin de la saison chaude. Les autres phénomènes, brouillard, grêle, Gelée, sont exceptionnels. L'hiver y est vraiment délicieux.

La ville arabe est divisée en six quartiers dont quelques-uns ont conservé les noms des fondateurs ou des premières tribus qui plantèrent leurs tentes sur les bords île l'oued : les Mouamin, les o. Zéroum, les o. Hameida, les o. Sidi Arkhat, les o. Assik et les o El llalleug.

Le déridier recensement donne pour la population agglomérée de Saâda 5,595 habitants, se répartissant ainsi :

Français.....	135
Européens étrangers	72
Arabes	5.020
Tunisiens-Marocains	11
Israélites.....	357

La partie française est composée de militaires, de quelques fonctionnaires, de rares commerçants ou industriels ; l'élément étranger, de Maltais, d'Espagnols et d'Italiens. Les Arabes sédentaires sont artisans ou horticulteurs ; beaucoup croupissent dans l'inaction et dans la misère et sont presque tous atteints de maladies contagieuses qui résultent d'agglomérations trop denses et de véritables foyers d'infection. Chez les enfants, en particulier, on remarque souvent des blépharites ciliaires, des ophtalmies purulentes et des taies sur la cornée.

Les juifs. Description intérieur

Il y a, avons-nous dit, à Bou-Saâda 357 Israélites qui vivent là, de père en fils, et dont les familles se sont implantées en ce pays, depuis un temps immémorial. Aussi, avec la facilité d'adaptation d'un particulière à leur race, ils ont pris les mœurs, les coutumes et le costume des Arabes qui les tolèrent et auxquels ils se sont rendus indispensables.

La plupart vivent en des maisons d'une saleté repoussante. Le hasard d'une promenade me conduisit dans un de ces intérieurs dont je conserverai longtemps le souvenir : dans une chambre basse, éclairée par un rayon de lumière qui se glisse par la porte entrebâillée, vit dans une promiscuité complète toute une famille composée de deux femmes, d'une grand'mère, de plusieurs enfants et du chef de cette petite communauté.

Lorsque j'entrai, les deux femmes hâves, décharnées, pâles d'une pâleur d'êtres qui ne voient jamais le soleil, étaient en train de tisser un burnous. Enturbannées de chiffons à la manière arabe, vêtues de loques, elles étaient accroupies sur le sol en une posture de cul-de-jatte. Sans même lever les yeux sur moi, elles continuèrent leur travail d'un mouvement automatique de machine. Dans la trame perpendiculaire elles passaient le fil, le rabattaient et le tassaient, pour former le tissu, avec un peigne en fer, entrecroisaient à nouveau les fils de la trame et répétaient la même opération, qui sera toujours la même, dans la même monotonie, dans la même puanteur, jusqu'à la fin de leur vie.

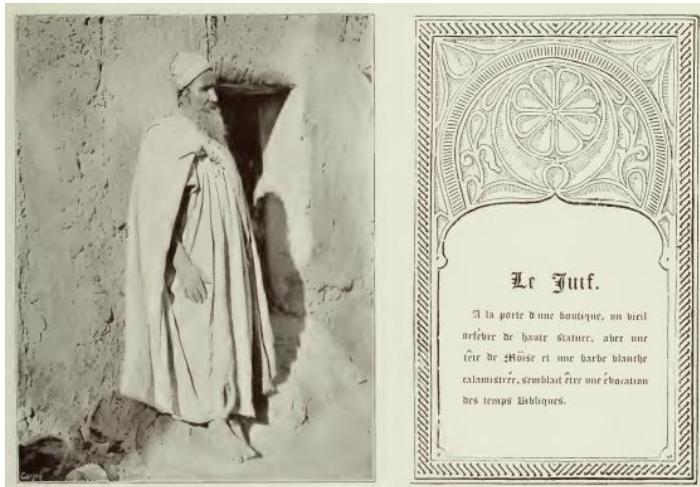
A côté des deux femmes, l'épouse et la sœur, la grand'mère, vieille si vieille qu'elle n'a plus d'âge, tenait entre ses bras le dernier-né, petit être atteint déjà de rachitisme et voué aux écrouelles. La vieille, au bec crochu, au menton en galochette, à la peau tannée, balançait, en marmottant, le paquet informe d'où des vagissements sortaient aigres et plaintifs. Dans son visage de momie les yeux seuls vivaient encore, deux yeux sans cils, cerclés de rouge, vifs, inquiets, fureteurs, deux yeux de souris en quête d'une rognure de fromage.

Sur une corde transversale étaient jetées des loques sans nom, des peaux mal séchées en proie à la vermine. Une grosse poule noire et borgne picorait mélancoliquement ; et, avant de donner son coup de bec sur l'insecte ou le grain, elle infléchissait la tête et, de son oeil unique, observait la proie.

Dans un four à pain encore tiède s'était réfugié le chat, dont la tête seule émergeait du trou rond. A proximité, dans la chambre même, un cloaque où s'entassent les ordures. Le chef de famille se contentait de ne rien faire ; il attendait sans doute que le burnous fût achevé pour aller le vendre sur la place de Bou-Saâda. ... Et toujours, dans la même monotonie, dans la même pénombre, dans la même puanteur, jusqu'à la fin de leur vie, les deux femmes accroupies devant leur métier, tisseront des burnous, sans même avoir la consolation de tisser le linceul où dormira leur corps décharné.

Je ne parle que des plus pauvres; les plus riches commencent à faire bâtir des maisons mieux aménagées et plus aérées.

Presque tous portent le costume indigène, à l'exception de la coiffure et de la chaussure auxquels ils substituent la chéchia rouge ou la casquette, et les souliers de forme européenne. Leurs enfants ont au lobe de Toreille gauche un anneau d'or.



Comme ils ne se marient qu'entre eux, ils conservent un type sémitique très caractérisé.

Dans le nombre, s'il y a des êtres sordides et repoussants, on remarque, d'autre part, quelques types dignes de fixer l'attention de l'artiste.

A la porte d'une boutique, ce fut d'abord un vieil orfèvre, de haute stature, avec une tête de Moïse biblique et une barbe blanche calamistrée. Un peu plus loin, sur la place même, nous croisâmes une juive toute, jeune, d'une inoubliable beauté : ses yeux alanguis, son nez fin d'un dessin parfait, son menton d'un modelé admirable, des dents dont la blancheur était avivée par le carmin des lèvres, sa peau d'un blanc mat, tout en elle était séduction.

Par une claire matinée, je vis encore un autre type de juive lavant son linge sur une roche plate et lisse de la rivière. Celle-ci, d'un blond roux, rappelait, par l'ampleur de ses formes et le ton de sa carnation, les femmes de Rubens. Au lieu de frotter son linge avec ses mains, elle le frappait et le retournait de ses pieds, dans une danse rythmée.

Les juifs de Bou-Saâda, comme leurs congénères, se livrent au commerce. Ils sont épiciers, joailliers, marchands d'étoffes, d'objets de quincaillerie et de grains. Ils prêtent de l'argent à des taux variables, très variables même, jusqu'au " douro bikhouh," expression originale et vive que l'on pourrait traduire ainsi " un douro pour son frère," ou encore, " une pièce de cinq francs doit ramener une pièce de valeur égale."

On m'a affirmé que le total de la dette contractée par les indigènes du cercle militaire s'élevait à 850,000 francs. Sans vouloir tirer de conclusion de ce fait, je me borne à me demander si une maison de crédit aurait consenti à faire de pareilles avances sans garanties solides.

Les M'zabites le commerce

Il est vrai que les M'zabites ne le leur cèdent en rien et leur font une rude concurrence. Ces, enfants du M'zab, qui ont l'instinct du trafic poussé au plus haut degré, se répandent dans toute l'Algérie, dans les bourgades, dans les douars, dans les ksour et dans les grandes villes.

A Bou-Saâda, ils sont installés dans des boutiques qui occupent tout un côté de la place et qui regorgent des objets les plus disparates, de casseroles, de tissus, d'articles indigènes et d'épiceries. On les voit, trapus, replets, robustes, avec de larges faces encadrées d'une barbe clairsemée, trôner derrière leurs comptoirs, parmi les entassements de marchandises.

C'est que Bou-Saâda est un centre où se traitent de nombreuses affaires, ou, en des marchés hebdomadaires, les transactions sont relativement considérables. Les droits du marché sont affermés annuellement, et le prix de l'adjudication s'est élevé jusqu'à 53,000 francs. On y vend en moyenne, chaque année, 130,000 moutons et 150,000 toisons de laine. Les gens de l'oued Rhir y apportent de grandes quantités de dattes qu'ils échangent contre des grains venant, en partie, de la plaine du Hodna et de Sétif. Le principal marché a lieu le mardi.

Le quartier Européen la ville arabe les femmes et les enfants l'école

La ville est construite sur une colline et s'étend en un amphithéâtre incliné vers l'oasis. Sur la partie la plus haute s'élève le fort, où le commandant nous reçut avec tant d'aménité. Le fort est la ville arabe, séparé de la ville par un petit bois en pente devant lequel s'étend la place de Bou-Saâda. A l'ouest, les ruelles, au pied du fort, a été construit le cercle des officiers où l'on se sent dans une atmosphère de civilisation : des tableaux de Clairin, de Gasté y jettent une note d'art ; des revues et des journaux apportent en cette solitude les échos d'une civilisation trop souvent troublée. Un peu plus loin, l'habitation du capitaine du bureau arabe, M. Rodet, qui nous accueillit également avec courtoisie ; et enfin, dans une rue transversale, la ligne des maisons européennes.



BOU-SAADA.

Une mosquée avec son portique.



BOU-SAADA

Les bourriquets, voués aux plus ingrates besognes, sont chargés du service de la voirie.

La place est bordée d'un côté par les boutiques indigènes, de l'autre, par le commissariat de police, maison d'école, l'asile des Naïlia et des Sadaouïa, des épiceries et l'unique hôtel de l'endroit, où M^{me} Chevassus, l'aimable hôtelière, nous prouva raffinements qui seraient appréciés même en pays horrible fontaine dont l'architecture excita notre dattes sèches, du tabac en feuilles et en poudre.

La principale rue qui débouche sur la place que, dans le sud, la cuisine pouvait avoir des civilisés. Sur cette place, où a été construite une indignation, de nombreux marchands vendent des denrées accès dans les quartiers arabes. C'est le véritable centre du commerce et des industries locales. Les commerçants juifs, les artisans indigènes et les épiciers y sont nombreux. Les boutiques des cordonniers, des orfèvres, les entrepôts de céréales se succèdent serrés les uns contre les autres: mais, à l'exception des éventails, des couteaux et surtout des chaussures qui ont une forme asiatique et dont Guiauchain a fait de si jolis dessins, aucun de ces objets manufactures n'a un caractère original ou artistique.

De temps en temps, on se heurte à une troupe de chameaux chargés île sacs de blé. Les animaux avancent d'une marche pesante, en tendant en avant leurs lèvres lippues d'où coule une bave visqueuse.

Des bourriquots, voués aux plus ingrates besognes, y sont chargés du service de la voirie.

Dans les quartiers arabes, les nus étroites montent, descendant, s'entrecroisent pour se perdre au fond d'un cul-de-sac assombri ou s'ouvrir, eu éventail, en un carrefour baigne de soleil. Ouvertes au jour par d'étroites baies, ou closes par des ponts jetés d'une maison à une autre, ces ruelles sont une joie pour l'œil, tant les jeux de lumière et d'ombre y sont imprévus. Après la rue

ensoleillée et barrée d'ombres violettes, nous voici dans un passage où le clair-obscur, avec toutes ses gradations d'ocre pâle et de gris, aboutit à une traînée lumineuse. Un peu plus loin, par une saignée faite dans les poutrelles du pont, filtre un rayon de soleil, rais d'or où dansent des poussières! Et soudain, du fond de la rue assombrie, par une ouverture pareille à un cadre, on voit sur le fond bleu du ciel, dans une apothéose^e de lumière, un sommet de kouba et le panache d'un palmier, Ces rues exiguës, obscurcies et voilées, se défendent contre le soleil qui doit être un hôte bien incommodé pendant la période d'été.

Les ruelles silencieuses sont bordées de banquettes en terre durcie où des Arabes viennent s'asseoir et se tiennent immobiles et silencieux. Ln des coins, des femmes sont assises, paquets de linge sale ou guenons au repos, belles par l'harmonie des lignes lorsqu'elles sont debout.



"Au demeurant, comme le dit Fromentin, si l'on voit peu "de femmes qui soient belles, on en rencontre encore moins "qui n'aient ce côté grand ou pittoresque de la tournure. Ce serait ici le cas ou jamais de faire une théorie sur la beauté des haillons ... Ce qu'il y a de vrai, c'est (pie les peuples à vêtements flottants n'offrent rien de comparable à la pauvreté sans ressources d'un habit troué. Ils conservent, quand même, ceci d'héroïque, que bien ou mal ils sont drapés; et ceci d'à peu près semblable aux divinités, qu'un peu plus ils seraient nus comme elles. . ."



**Une Rue
à
Bou-Saâda**

Les rues montent, descendent s'entrecroisent, pour se perdre au fond d'une impasse ou s'ouvrir en un carrefour baigné de soleil . . . ces ruelles sont une joie pour l'œil, tant les jeux de lumière et d'ombre y sont imprévisibles.



**Une Rue
à
Bou-Saâda**

Après la rue ensOLEillée et barrée d'ombres hachées, nous voici dans un passage où le clair-obscur, avec toutes ses gradations de force au gris, aboutit à une traînée lumineuse.

Mais, pour que l'impression soit juste, il faut que la femme soit libre dans ses mouvements et ses gestes. Si elle nous apparaît pliant l'échiné sous le faix, courbée en deux, la tête en avant et la croupe en saillie, ce n'est plus une femme, c'est une bête de somme. Telles étaient les pauvres créatures qui transportaient des outres pleines d'eau.

Elles vont puiser dans les " sedia " (ruisseaux dérivés de l'oued) cette eau dont elles emplissent des peaux de mouton, ou des cruches en cuivre ou encore des vases faits d'un tissu très serré et légèrement goudronné. Les récipients empilis et chargés sur le dos ou sur l'épaule, elles remontent la rue en escalier.

Le silence des rues était troublé par des bandes de petits garçons et de petites filles qui se pressaient pour demander un sou ou voir passer l'étranger. Ils étaient retenus par la crainte et poussés par l'appât d'une aumône ; si l'on se retournait trop brusquement, ils prenaient leur volée comme des moineaux effrayés par un coup de fusil, ou se tassaient dans des angles avec des attitudes craintives.

Petits Arabes et petits juifs vont à l'école où un instituteur et sa femme, tous les deux pleins de zèle et de dévouement, leur apprennent à parler le français, à lire, à écrire, à compter. C'est surtout l'enseignement par les yeux. Le maître place devant les élèves de grandes images et, de sa baguette, désignant une couleur ou un objet, en fait répéter en chœur la dénomination. Et tous, de chanter en rythmant: " Li bandalon di zouab i roge " le pantalon du zouave est rouge! Curieux est le spectacle qu'offrent ces petits burnous rangés sur les bancs d'où émergent des figures éveillées ! Quelques-uns, Dieu me pardonne, font des problèmes compliqués!...

Les maisons

De l'école, retournons dans les quartiers arabes où il y a tant de sujets d'observation. A l'extérieur, les maisons ont quelquefois des murs lisses ; mais, le plus souvent, les saillies du premier étage, des encorbellements naïfs, des moucharabis primitifs, voire des défauts d'aplomb contrarient la ligne droite. Les portes lourdes, en planches de palmier, reliées par des traverses en bois dur, tournent sur des gonds en thuya. Le verrou, large pièce de bois, glisse dans les gâches et se fixe à l'aide d'un taquet placé dans une encoche correspondante. C'est simple et solide.

Toutes ces maisons sont construites en terre pétrie et séchée au soleil. La couleur en est agréable ; mais la solidité de ces immeubles laisse singulièrement à désirer. S'il pleut longtemps, les matériaux se désagrègent et les écroulements sont à redouter.

L'aménagement intérieur est le même partout. C'est, à l'entrée, un vestibule avec des banquettes en terre durcie; après le vestibule, une petite cour découverte, à l'angle de laquelle une jarre en poterie, enfouie dans le sol jusqu'à l'orifice, sert aux ablutions; et deux ou trois chambres s'ouvrant sur ce patio des premiers âges.

On peut s'estimer bien heureux, quand, en traversant la cour, on ne tombe pas dans le cloaque creusé dans le sol où l'on dépose les immondices et les ordures.

De la cour, par un escalier, toujours en terre, on a accès dans une autre pièce couverte et sur les terrasses. C'est bien la disposition, à l'état sommaire, de la maison mauresque telle que nous la connaissons.

Les planchers, faits avec des branches de thuya, sont supportés par des troncs d'arbre coiffés de courtes poutrelles appelées "corbeaux." Ce système de construction rappelle naïvement la colonne de la Grèce primitive.

Les mosquées

LA MOSQUEE DES OULAD ATTIG LES LITS SUR LES TERRASSES. ETABLISSEMENT DE BAINS LA DJEMAA EL NEKHLA :

C'est dans l'intérieur des maisons que les femmes fabriquent des burnous et des tapis dont la réputation paraît méritée.

La mosquée des oulad Attig est très ancienne. On pénètre d'abord dans la petite zaouia ; au premier étage se trouve le "Mirab," le lieu de la prière. Du haut de la mosquée on a devant soi les deux koubas de Sidi ben Athia à l'ouest et celle de Sidi Brahim à l'est. Puis la vue s'étend sur les terrasses qui vont dévalant, par gradins larges et plats, jusqu'aux premières lignes des palmiers. Sur les terrasses, dans l'indécision du jour qui finit, on aperçoit, parmi les battements d'ailes la djemaa des pigeons, de vagues silhouettes de femmes, et les lits étranges dont se servent les gens de Bou-Saâda durant la canicule En été, pendant la nuit, chacun s'étend sur un cadre en bois recouvert de larges palmes en forme de voûte, et ce lit, qui, de loin, a les apparences d'un tumulus funéraire, s'appelle " sedda."

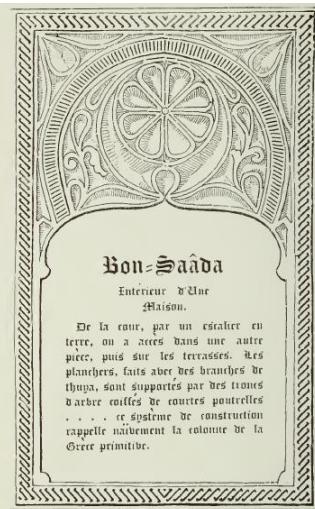
Pendant la saison violente, Bou-Saâda, vu de haut, doit ressembler, pendant la nuit, sous la clarté le la lune, à un immense dortoir ou à une vaste nécropole.

Avant de pénétrer dans la mosquée du Palmier, Djemaa el Mekhla, arrêtons-nous devant la source du village, "Ain el Ksar." D'un rocher, que l'on a recouvert d'une toiture, sort une eau abondante et limpide. C'est un va-et-vient continual de gens qui descendant, puisent et remontent. Sous le frottement non interrompu, les marches sont luisantes et les roches lustrées. Ain el Ksar n'est pas seulement la fontaine où l'on puise, c'est aussi le hammam où l'on vient se laver. A côté de la source, on a suspendu, sur un foyer en maçonnerie, une grosse bassine dans laquelle l'eau est chauffée. L'homme ou la femme, qui veulent se laver, puisent, avec une écuelle, l'eau chaude qu'ils répandent sur leur corps. On se rince avec l'eau qui sort de la source. On s'habille et on se déshabille dans une petite chambre voisine.

On peut prendre des abonnements . . . comme en pays civilisé, et ça coûte moins cher qu'à Vichy. Jugez-en: 50 centimes pour une saison de 4 ou 5 mois.

D'après certaines légendes assez accréditées dans le quartier, c'est à Aïn el Ksar que ce serait arrêté le premier marabout fondateur de Bou-Saâda, et c'est autour de cette source que les premières maisons auraient été construites.

A côté, s'élève la mosquée du "Palmier," Djemaa el Mekhla, la plus belle de toutes, récemment restaurée. L'entrée, avec un petit passage plafonné de thuya, est charmante. Le lien de la prière est vaste et, dans sa simplicité archaïque, assez austère.



C'est un lieu saint et vénéré où volontiers, à l' "auteur," les Musulmans viennent prosterner leur front.

Mais pourquoi y a-t-on placé une de ces horribles horloges à poids dont le coffre en bois est badigeonné de couleurs heurtées?

Enlevez l'horloge, fidèles de l'Islam, et vous aurez bien mérité de Mohammed.

Pour échapper à cette horrible obsession de l'horloge, dont le tic-tac bête semblait une profanation, je grimpai sur la terrasse pour calmer mes nerfs et me reposer la vue.

Bou-Saâda vu du haut de la mosquée

Sur le sommet de la mosquée du Palmier, je me sentis pénétré par le charme mélancolique du paysage qui se déroulait sous mes yeux. Faut-il toujours le grand soleil sur cette nature? Je ne le crois pas. Sous un ciel gris, la vibration à peine perceptible des tons, les teintes atténuées jusqu'au flottement indécis ont un attrait (pie rien ne peut rendre).

Au moment où je me trouvais sur le minaret de la " Djemaa el Mekhla." le ciel était embrumée; une pluie fine tombait et interposait la trame légère de ses fils ténus entre les objets et l'œil du spectateur. La dune apparaissait comme une tache d'or passe, avec un éclat doux de tapis ancien éclairé par un rayon de lune. Sur les palmiers flottaient des gazes d'azur éteint qui estompaient les contours, adoucissaient les lignes, noyaient les lointains dans les vapeurs du mystère. Les monts, aux tons effacés, paraissaient plus mystérieux encore. J'avais devant moi les trois collines qui s'élèvent, en forme de pyramide, devant Bou-Saâda, l'éperon du djebel El-Bathen, et, enfin, les apparences étranges des montagnes voisines semblables à des tiaras persanes, à des cônes évasés, avec des ceintures de roches verticales ; au pied des monts, la dune, toujours la dune, mer d'or terni qui est à la fois l'attrait et l'obstacle.

Dans le calme de toute cette nature, des chuchotements de voix, des sensations apaisées: deux pigeons sur une terrasse : et, non loin, une jonchée de piments rouges, large tache de sang coagule. Après les terrasses grises, des palmiers avec toute la grâce de leur tronc svelte et la majesté de leur chevelure. Ils apparaissent, en ce décor, comme les symboles d'une vie figée.

Chez L'émir El Hachemi Ben Abd-El-Kader

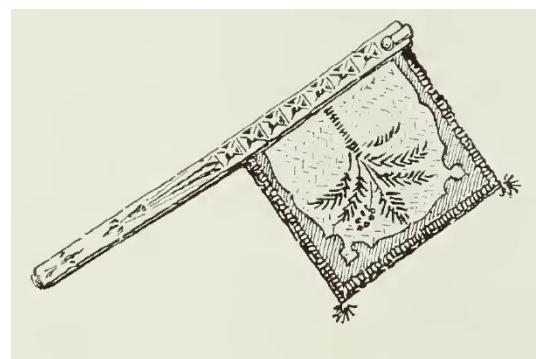
En quittant la mosquée, M. Saïah, notre guide si obligeant, nous conduisit chez l'émir El Hachemi, fils d'Abd-el-Kader, le héros de la lutte soutenue contre la France envahissante. La maison qu'il habite n'a aucun caractère particulier. C'est un gros cube en maçonnerie. Un escalier en échelle donne accès dans la pièce où Si el Hachemi voulut bien nous recevoir. Dans ce petit salon meublé à la française je ne remarquai qu'un agrandissement photographique du portrait d'Abd-el-Kader. Je retrouvai dans cette image la physionomie énergique de l'émir, telle que Léon Roches l'a dépeinte : "... Son front est large et élevé. Des sourcils noirs, fins et bien arqués, " surmontent les grands yeux bleus qui m'ont fasciné. Son nez est fin et légèrement aquilin, ses "lèvres minces sans être pincées; sa barbe noire et soyeuse encadre l'ovale de sa figure expressive. "Un petit " ouchem " (tatouage) entre les

deux sourcils fait ressortir la pureté de son front. Sa " main, maigre et petite, est remarquablement blanche. ... Sa taille n'excède pas cinq pieds et " quelques lignes, mais son système musculaire indique une grande vigueur ... il tient toujours "un petit chapelet noir dans sa main droite. ... Si un artiste voulait peindre un de ces moines "inspirés du moyen âge, il ne pourrait, il me semble, choisir un plus beau modèle. ..."

L'émir El Hachemi nous accueillit avec beaucoup de dignité ; et, pendant que nous dégustions une tasse d'excellent moka, il rappela, non sans mélancolie, tout un passé glorieux et nous parla de la vie de son père à Damas, de son rôle en 1860, pendant les massacres des Maronites en Syrie. On se rappelle, en effet, que les Druses, accompagnés d'Arabes et de Kurdes, se ruèrent sur les Maronites qu'ils égorgèrent sans pitié. Le 10 juillet 1860, Abd-el-Kader reçut dans sa demeure plusieurs milliers de ces malheureux qu'il arracha à la fureur de leurs ennemis et auxquels il sauva la vie.

Si El Hachemi, privé de la vue, vit dans la solitude avec ses souvenirs et il a consacré ses loisirs à une histoire d'Abd-el-Kader écrite en deux volumes.

Ses deux frères sont généraux de division au service du Sultan. Deux de ses fils, héritiers d'une grande tradition, sont au service de la France : l'un est sous-lieutenant, l'autre maréchal des logis de spahis.



الفصل الخامس

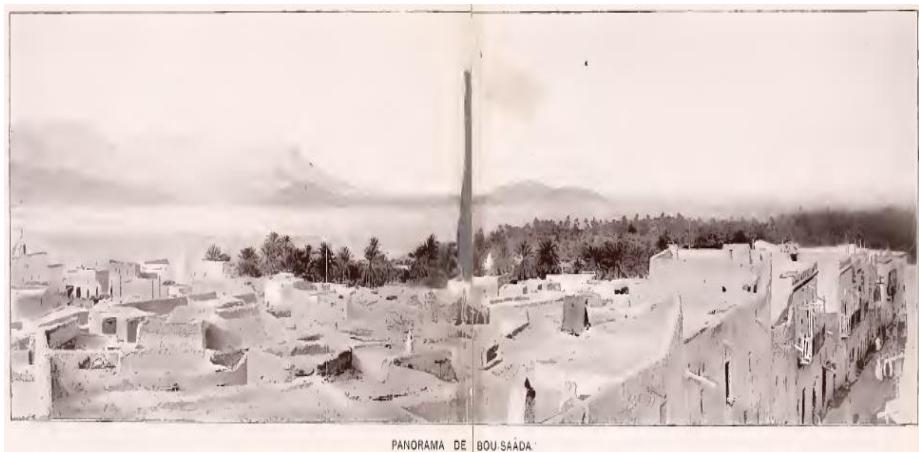
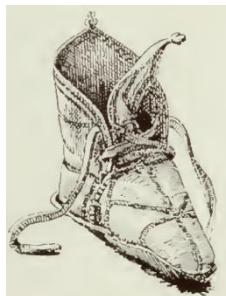
بوسعادة¹

¹ تشكل واحة بوسعداء جزءا من الهضاب العليا الجزائرية، وتقع في نقطة التقائه الاحداثيات الجغرافية (11-4) على خط الطول الشرقي، و(35-13) على خط العرض الشمالي، ويبلغ ارتفاعها على سطح البحر حوالي (560م)، وتعتبر المنطقة ملتفاً للطرق يربط البحر المتوسط بالصحراء، حيث تربط منطقة الزيبان بالجزائر العاصمة، وتتصل من الناحية الشمالية بمنخفض الحضنة الذي يشكل وسط سطح الحضنة، أما من الناحية الجنوبية فتغطيها الكثبان الرملية، ينظر: غرس الله عبد الحفيظ: الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية مقاربة سوسيولوجية، مجلة المواقف، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي، معسكر، ع 1، ديسمبر 2007، ص 19

كان القائد كروشار لطيفاً معنا بما فيه الكفاية، فقد أراد تبليغي بعض الوثائق الخاصة بتاريخ بوسعدة، إنها وثائق جد مهمة في هذا العمل بطبيعة الحال. عندما نريد الإشارة في البلدان العربية إلى الأصول، فإن التاريخ يختلط بالأساطير ويختلط الخيال بالواقع. بما أنني لست مؤرخاً، فإني أكتفي بإعادة سرد القصص وأترك الأمر للقارئ فيحكم بعدل بين الخيال والحقيقة¹. في نواحي القرن السادس للهجرة، توقفت شخصية قادمة من تدعى سليمان بن ربيعة على ضفاف النهر فقد استوقفها سحر المناظر الطبيعية ووفرة المياه. وعلى بعد 3 كيلومترات من المدينة الحالية، حيث توجد مطحنة السيد فيريرو بني هناك عدداً قليلاً من المساكن له ولأسرته. بعد فترة وجيزة، انضم إليه سي دهيم، وهو من سكان المنطقة المجاورة للمدينة. في نفس الوقت تقريباً نزل بالمنطقة سيدى ثامر وهو زعيم عصابة خطير، كان في إحدى خرجاته المغامرة رفقة رجاله في منطقة أولاد نائل الجبلية التي كان يخطط لنهاها. ويبدو أنه بقدرة إلهية عدل عن هذا المخطط الإجرامي. فاضطر للتوقف في الطريق لمطاردة صوره التي هربت ولم تستجب لنداءاته، فكانت له جلسة تأمل في السماء ليلاً وسمع همساً يدعوه إلى صرف رجاله بعيداً ومتابعة الرحلة بمفرده. حتى سيدى ثامر رأسه وذهب بمفرده إلى العوينات حيث التقى بسي سليمان. هذا الأخير، هو ولـ الله الصالح وصاحب "البركة"، لم يدخل جهداً في تعليمه وهدايته إلى الخير. أطلق على هذا المكان منذ ذلك الوقت اسم "تايبين" (أو باللغة العربية، التائبين، من "التوبة").

¹ مع ذلك فإن الأساطير تضيف بعدها غنّياً ورمزاً للثقافة، لكنها لا تغنى عن الحاجة إلى البحث والتدقيق التاريخي لفهم الواقع والأحداث كما حدثت بالفعل. هذا التوازن بين الأسطورة والحقيقة يشكل جزءاً أساسياً من دراسة التاريخ وفهم الماضي.

لإزال هو اسم السهل الذي يمتد من بوسعادة إلى مصب الوادي. علاوة على ذلك، لا يزال السكان الأصليون حريصين على تخليد هذه الذكرى، ولقد أطلقوا على الجبل الذي فقد سيدتي تامر صقوره عند سفحه، اسم "كاف الطيور" (صخرة الصقور). لم يمكث المرابطون الثلاثة طويلاً في العوينات. وبينما هم يبحثون عن أرض خصبة صالحة للزراعة حول مجاري النهر، خرجت ذئبة من حجرها، وبدلاً من الهروب عند اقترابهم، تقدمت لاستقبالهم في هذا المكان الذي لا يزال يعرف باسم "ذيبة" أو الذئبة. أيقن الرجال أن هذا الإعجاز علامة للإرادة الإلهية ولم يتربدوا في بناء منازل في هذا المكان ومسجد جامع العتيق الذي سمى على اسم زوجة سي تامر. حول هذا البناء الديني الأول بنيت مساكن أخرى؛ وهكذا نشأت المدينة الجديدة.



رحب الرجال في إعطاء اسم لهذا الدوار، لكنهم لم يتفقوا لذلك قرروا ترك التسمية للصدفة. وعندما مرت امرأة سوداء كانت تسير خلف قافلة فنادت كلبة لها "سعادة! سعادة!" بدت الكلمة بالنسبة إليهم فائلاً خيراً واتفقوا ثلاثة أن تسمى المدينة بسعادة (أو بالعربية أبو السعادة). ووفقاً لرأي آخر، فإن هذا الاسم يأتي من الحالة التي تميز المدينة فهي مدينة تحدوها من جانب كثبان قاحلة، وتتكئ على جدران جبلية من ناحية أخرى، فتظهر من بعيد كأنها في خراب وتشبه أرض الميعاد في ظلالها ووفرة مياها.

سرعان ما ازدهرت المدينة ونمطت على الرغم من تعرضها لهجمات النهب من قبيلة البدارنة اللصوص مجحولي الأصل والذين كانوا يعيشون في جبل الكردادة وقد اضطر سكان بسعادة إلى تقديم تسعين ناقة مقابل العيش بسلام. اختفى البدارنة وتركوا قريتهم وتحولت في الم نهاية إلى أنقاض. ينحدر الشرفات القاطنوون حالياً في بسعادة من الجد سيدى دهيم وينحدر من ساللة سيدى تامر كل من أولاد سيدى حركات والعشاشة وأولاد عتيس، وأولاد حميدة. أما سيدى عزوز الذي استقر مع سيدى تامر فينحدر من الأغواط-كسال وهو جد قبيلة زروم. وأخيراً نذكر مومن الصحاوى الأصل الذي استقر أيضاً بجوار المؤسسين الثلاثة. تورط المؤمنين في بعض الصراعات الداخلية مع أولاد سيدى حركات وانتهى بهم الأمر بالنزول إلى المنحدر. لكنهم عاشوا في أمن وسلام واستقروا بشكل دائم في بسعادة إلى يومنا هذا.

الاحتلال الفرنسي، الزعاطشة، النقيب باين

ظهر الفرنسيون لأول مرة في بوسعداء عام 1843، لكنهم لم يبقوا هناك. وفي عام 1849 عندما احتى بوزيان¹ وملازمه سي موسى بالقبائل الجنوبية وتحصنوا بالذخيرة والمؤن والثوار المتعصبين في واحة الزعاطشة الحصن المنيع، انتفض سكان بوسعداء وأولاد نايل انتفاضة شديدة. ولقد نجح أحد مرابطي بوسعداء وهو بن شبيرة² مراسل بوزيان الشخصي في إقحامأغلبية سكان المدينة. يقول العقيد باين Pein في رسائله: "أصبحت السوق ملتقى المتمردين فقد اشتروا من هناك أسلحة وذخيرة من أجل الجهاد في الشوارع وفي المنازل وفي كل مكان، وصنعوا البارود...". ثم تلى ذلك الرد من الفرنسيين. فقد وضع حد للتمرد وذلك بالاستيلاء على الزعاطشة وقتل كل الثوار واستشهاد بوزيان وكل أتباعه.

¹ الشيخ بوزيان: هو عبد الرحمن بن زيان أحد موظفي الأمير عبد القادر بالمنطقة الملقب بالشيخ على واحة الزعاطشة كان من المرابطين الأشرف ومن أحسن الرماة، حارب ضد جنود أحمد باي سنة (1831م)، استطاع من خلال نفوذه أن يجتذب للثورة عدداً من المرابطين والمujahidin في أماكن بعيدة مثل الخنقة وبوسعداء وأولاد جلال. استشهد سنة (1849م) أثناء مقاومة الزعاطشة. ينظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج 1، ص 331-332. ينظر أيضاً شهادة برات PERRET قائد سابق للزوابف حول نشاط بوزيان بالمنطقة:

PERRET (Eugène), ÉDOUARD (Émile): *Les Français en Afrique Récits Algériens*, Bloud et barral libraires éditeurs, Paris, P 09.

² محمد بن شبيرة: هو محمد بن علي بن شبيرة رجل الدين من مدينة بوسعداء، دعا إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي حيث قدم الدعم لبوزيان في ثورة الزعاطشة، كما قاد هجوماً على الحامية العسكرية الفرنسية بقيادة العقيد دوماس سنة (1849م) مما أدى بالجيش الفرنسي إلى احتلال بوسعداء في نفس السنة. ينظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج 1، ص 338-339.

وعاد بوسعادة إلى ما كانت عليه تحت طائلة الرعب. يخالجي شعور غريب وأنا أفك في ذلك العمل المسلح الرائع، إنني أستحضر ذكري أولئك الذين استسلموا، وكان من بينهم الشجاع عمي روزيقي الذي قُتل برصاصة في القلب. أذكر هنا بكل فخر أسماء كانروبير وبورباكي ودوباري ولورميل والجنرال هيربيون الذي قاد العمليات في مثل هذا اليوم من 26 نوفمبر 1849.

توقف الكولونييل دو باراي على رأس جنوده المالكين بالرصاص والكولييرا ببوسعادة قبل أن يعود إلى سطيف. في 14 فبراير 1850، عين الكابتن باين هناك كقائد أعلى للدائرة العسكرية، مع سرية الخط الثامن والثلاثين وفصيلة من الصباحيين spahis. بدا أنه من الضروري تقوية هذه النقطة الاستراتيجية وإخضاع القبائل العربية لعمل فوري ونشط يقوم به قائد عسكري.

ظل الكابتن باين في منصبه لمدة عامين على التوالي، من 14 فبراير 1850 إلى 13 فبراير 1852 إلى اليوم الذي انتقل فيه إلى فوج الزوااف الثاني. خلال هذه الفترة، لم تكن حياته سهلة، فقد شرع في بناء التحصين وذلك بأمر من الجنرال دي ماك ماهون وبتوجيهات من الجنرال بوسكي أوكلت إدارة هذا العمل إلى نقيب المهندسين المشهور باسم الكابتن فيدربي. أسس باين هناك كل مصالح القيادة العسكرية. في ذلك الوقت، اكتسح الكابتن البلاد بنشاط غير مسبوق وتغل في المناطق الجبلية، وأعاد أولاد نايل إلى سوق بوسعادة حيث ظلوا محصورين في بلدتهم. لا ندري سبب بقاءهم هنا هل هو الخوف من سلطتنا أو انعدام الثقة في المناطق المجاورة لذلك بقوا متحفظين. تمكّن بفضل حزمه ونشاطه الذي لا يعرف الكلل من إبقاء ناخبيه قيد الخدمة، رغم كل شيء.

محاولات محمد بن عبد الله، شريف ورقلة في إشراك قبائل الجنوب في حركة التمرد. علاوة على ذلك، قد يطلق الشريف على نفسه لقب "مول الساعة" أو مالك الساعة وقد أصيب سبع مرات في بسكرة بنيران الصيادين الأفارقة تحت إمرة الملازم أندريلو ولم يتعاف من هذه الإصابات. تعاون النقيب باين مع السيد بودفيلي القائد الأعلى لدائرة بسكرة لمواجهة تمرد أولاد عطية والتصدي لأولاد ساسي ولقد كللت هذه العمليات بالنجاح الباهر وجعل لها الجنرال بوسكي قائد قسمة قسنطينة يوماً تذكارياً هو 19 جويلية 1852.

في أوقات فراغه، رسم الخريطة الطبوغرافية لدائرة مع الملازم ليوتيت من الفوج الثاني للفيلق الأجنبي، والملازم توماسين الذي أمضى حياة عسكرية رائعة، وأخيراً، كتب في رسائله الروتينية انطباعاته بكل دعابة وحيوية فائقتين "رسائل روتينية من العقيد باين -جورдан -الجزائر العاصمة". حيث يسرد قصصاً تجمع كل صفات عرقنا: الذكاء وروح الدعابة والشجاعة. ولقد أطلق اسمه عام 1897 على الساحة الرئيسية في بوسادة.

الدائرة العسكرية، القبائل، أولاد نايل

كان القائد الأعلى كروشوار هو الخليفة المناسب لهؤلاء الضباط اللامعين. بخبرته الطويلة في البلاد العربية ومعرفة التامة بالأدب المحلية. تخضع دائرة العسكرية التي كان يديرها ذات يوم لقسمة سطيف وهي اليوم دائرة تابعة للقسم الفرعي للجزائر العاصمة وتتربع على مساحة 1484725 هكتاراً. تنتشر على هذه الأرض الشاسعة 21 قبيلة في السهول والجبال،

سبعة منها تابعة لملحقة سيدى عيسى. في دائرة بوسعادة نجد أولاد سيدى إبراهيم وأولاد غريب وأولاد سيدى زيان والرمانة وأولاد سليمان وشرفه الهاشمي ومسعد وأولاد علي بن محمد وأولاد خالد وأولاد عامر الظهرة وأولاد عامر لقبالة وأولاد محمد مبارك وأولاد العمارة ويبلغ عدد سكانها 29820 نسمة. تشمل ملحقة سيدى عيسى عداورة شراقة وعداورة لغراية وأولاد عبد الله وأولاد علي بن داود وأولاد سيدى عيسى والسلامات وأولاد سيدى هجرس بكثافة سكانية تصل إلى 20820 نسمة، ويبلغ إجمالي عدد السكان 56.237 مواطناً. يعرف العرب القاطنون في المنطقة الجبلية باسم أولاد نايل. تمتد جبال أولاد نايل جغرافياً مثل جبال القصور وجبال عمور من مقاطعة الجزائر إلى جنوب الهضاب العليا ويبلغ أقصى ارتفاع لها 1500 متر ويبدو أن جبل بو خيل هو النقطة المركزية فيها. يعتبر أولاد نايل من سكان الجبال النشطين والمشاة الذين لا يعرفون الكلل وهم مرشدون ممتازون.



خلال موسم الجفاف يهبطون إلى أرض المحاقد المسطحة على ضفاف شط الحضنة أو في التل لرعى ماشيتهم. تدور بعض الأساطير المزعومة حول نسائهم: حيث سمعنا أن نساء هذه القبائل وفور بلوغهن سن المراهقة، يتنقلن من دوار إلى دوار، ومن مدينة إلى مدينة بحثاً عن الحب السريع وبعض التصرفات المربربة وأن مهرهم يشكل ثم يعدن إلى قبيلتهن حيث يجدن زوجاً. تعتبر المرأة النايلية والسعداوية (نسبة لسيدي نايل وسيدي سعد) لدى العرب مرأة شقية ولكنها تبقى مجرد أسطورة! ففي هذه القبائل توجد زوجات صالحات وزوجات مخلصات يتزوجن بمحض إرادتهم.

مما أدعم به ما قلت هو أن الفتيات اللائي مارسن الدعاارة نادراً ما يعدن إلى القبيلة. ويتابعن العمل الموكل لهن في الأديرة الخاصة سواء في بوسعادة أو في المسيلة أو في بسكرة والبلدات الجنوبية الأخرى. مهما كان الأمر، فإن أولاد نايل لا يثقون إلى حد بعيد في ورع وإخلاص زوجاتهم حيث يسمونهم "ال Shawatîn " أو اللئيمات بالعربية وعندما يضطرون للسفر، فإنهم يضعونهن تحت إشراف العم أو الأخ أو عجوز ما. كما إنهن لسن جميلات على أية حال فلقد تسبّب لهن العمل الشاق بتغيير وجههن وتشويه أجسامهن بسرعة.

الارتفاع، المناخ، السكان

تقع بلدة بوسعادة جنوب غرب الحضنة، عند سفح الجبال، على ارتفاع 578 متراً فوق مستوى سطح البحر وتبعد 200 كيلومتر بخط مستقيم عن الساحل. على الرغم من هذا الارتفاع، فإن درجة الحرارة هناك أعلى بكثير مما هي عليه في المناطق الأخرى الواقعة في نفس المستوى.

تقع المدينة بين سلسلتين من التلال الصخرية ذات الجدران المنساء، وتتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتعرف خلال الشتاء رياحاً شمالية شرقية باردة وجافة وفي الصيف ريح جنوبية غربية حارة وخانقة. وأحياناً تهب بقوة طوال أسابيع كاملة.

ترتفع درجة الحرارة في أشهر الصيف في بوسعادة فتحول الكثبان الرملية بين جدران الجبال إلى فرن حقيقي ويستقر معدل الحرارة هناك بين 40 و42 درجة ولا ترتفع إلى 47 درجة ويبقى الهواء هناك جافاً نسبياً.

تندر الأمطار ويتوقف مقياس المطر عند 250 ملم. تحدث بعض العواصف الرعدية العنيفة خاصة في نهاية الموسم الحار. أما الظواهر الأخرى كالضباب والبرد والجليد فهي استثنائية. يتميز الشتاء باللذة.

تنقسم المدينة إلى ستة أحياء يرجع بعضها إلى أسماء المؤسسين أو القبائل الأولى التي نصبت خيامها على ضفاف الوادي: كلموامين وأولاد زيروم وأولاد حميدة وأولاد سيدي حركات وعسيق والحلالق

يشير التعداد السكاني للسكان المجمعين إلى 5595 نسمة موزعين على النحو التالي:

الفرنسيون	135
الأوروبيون الأجانب	72
العرب	5020
التونسيون والمغاربة	11
اليهود	357

يتكون الجزء الفرنسي من جنود، وعدد قليل من موظفي الخدمة المدنية والتجار أو الصناعية. الأجانب هم المالطيون والإسبان والإيطاليون. والعرب المستقرون يعدون حرفيين أو بستانيين، الكثير منهم يعاني الجمود والبؤس

ومعظمهم تقريباً مصابون بالأمراض المعدية التي تنتج عن التجمعات الكثيفة التي تعتبر بؤر عدو حقيقي.

نلاحظ عند الأطفال خصوصاً التهاب الجفن الهدبي والرمد القيحي وتقرحات في القرنية.

اليهود، وصف داخلي

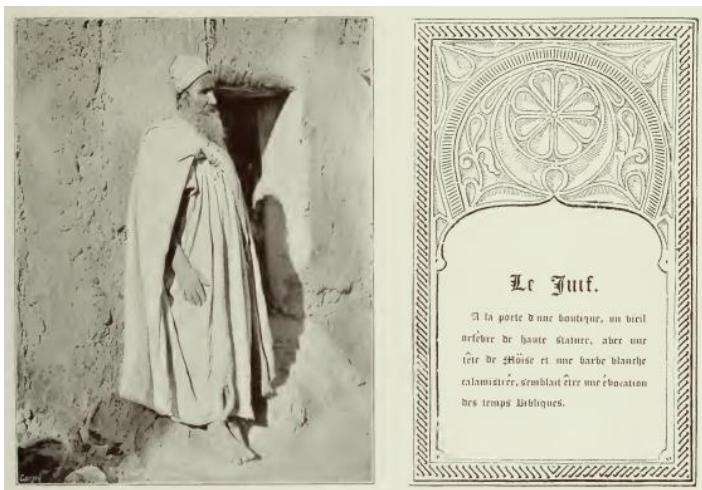
يعيش في بوسادة 357 يهودياً كما قلنا. وقد نشأت أسرهم في هذا البلد منذ زمن بعيد أباً عن جد. وقد تعلموا بسهولة أخلاق وعادات وملابس العرب المتضامنين والمتعايشين معهم، ويعيش معظمهم في منازل قذرة ورخيصة.

وقد صادف أن قادتني النزهة إلى أحد تلك البناءيات بالداخل ولا أزال أتذكرها: هناك غرفة سفلية يتخللها شعاع الضوء الذي ينفذ عبر الباب حيث تعيش أسرة تتكون في مجلملها من امرأتين وجدة وعدد من الأطفال ورب الأسرة. وعندما دخلت، كانت المرأةتان الهزيلتان شاحبتان وكان ملامحهما لم تر الشمس أبداً، كانوا ينسجن البرنوس. كانوا يتربعون على الأرض وعليهما أردية عربية. وأصلاً عملهما على الآلة دون أن يرفععن أيديهم إلى لاحظتهما وهما يقومان بتمرير العارضة العمودية على الخيط ثم يطويانه لأسفل لتشكيل النسيج، كل ذلك مع مشط حديدي حيث تتشابك خيوط العارضة مرة أخرى وتكرر نفس العملية بالرتابة نفسها، والرائحة النتننة نفسها كذلك، حتى نهاية حياتهم.

بجانب المرأةتين، الزوجة والأخت والجدة الطاعنة في السن حتى درجة النكس تحمل بين ذراعيها مولوداً جديداً يعاني بدوره من الكساح المحتوم. إنها امرأة عجوز بأنف معقوف وذقن مسدود وجلد مدبوغ ومتدل، تغمغم وتطلق تتممات نواح شديدة. يتوسط وجهها المحنط عينان محدقتان بلا رموز ومحاطتان باللون الأحمر تتأجحان باضطراب كعيبي الفأر الذي يبحث عن قطعة الجبن.

هناك حبل مشدود وقد أُلقيت عليه خرق من الثياب، والجلود الجافة المليئة بالديدان. وكذا دجاجة سوداء كبيرة عوراء تنقر بيأس، تثنى رأسها وبعينها الوحيدة تلاحظ الحشرة أو الحبوب قبل أن تضرها بمنقارها. وعلى بقایا الكانون الدافئة تتکور القطة حيث لا يبدو منها سوى رأسها المستدير. في الغرفة نفسها وفي مكان قريب توجد بالوعة تراكم فهـا القمامـة. يكتفي رب العائلـة بالجلوس دون حراك منتـظراً انتهاء نسيـج البرـنـوس ليبيعـها في سـاحة بـوـسعـادـة...

الروتين نفسه، وبصيص من ضوء الشمس والرائحة النتنة نفسها تخيم على حياتهم إلى الأبد. المرأة تتابع حرفهما، منهمكتان في نسج البرنوس ولن يكون لهما الوقت حتى لنسج أكفان لجسديهما المهزيلين. إنني هنا فقط أتحدث عن الفقراء أما الأغنياء فهم يبنون منازل أفضل تجهيزاً وأكثر تهوية. يرتدي جميعهم تقريباً الزي التقليدي، باستثناء غطاء الرأس والأحذية التي يستبدلونها بالشاشة الحمراء أو القبعة، والأحذية الأوروبية، ويضعون لأطفالهم حلقة من الذهب في شحمة أذنهم اليسرى.



إنهم يتزوجون فيما بينهم فقط لذلك يحافظون على عرقهم السامي المميز. وكما هناك شخصيات دينية ومثيرة للاشمئاز هناك أيضاً بعض الشخصيات التي تستحق اهتمام الفنان.

عند باب أحد المتاجر، كان هناك صائغ عجوز طويل القامة برأس مسوبي ولحية بيضاء مهلهلة. وليس ببعيد قليلاً، صادفنا شابة يهودية جمالها لا يُنسى، بعينيها الضعيفتين وأنفها الرقيق المثالي وذقنها المثير للإعجاب وأسنانها الناصعة المختلطة بقرمذية الشفتين وبشرتها البيضاء الداكنة كانت محل إغراء بالفعل. وذات صباح، رأيت يهودية من نوع آخر تغسل الملابس على صخرة مسطحة ملساء في النهر. كان شعرها أشقر محمر وملامحها متسعة بشرتها جميلة تذكرني بجمال نساء روبنز. وبدلًا من فرك غسيلها بيديها، ركلته وقلبته بقدمها ورقصة إيقاعية.

يعمل يهود بوسعادة مثل أقرانهم في التجارة. فهم بـاللون وتجار مجوهرات وأقمشة كما يبيعون الأجهزة والحبوب. يقرضون المال بمعدلات متفاوتة وأحياناً متغيرة ويتدالون مصطلح "الدورو بخوه" وهو تعبير تقليدي ومشهور يترجم بـ"الدورو مقابل أخيه" ومعنى أنه يجب أن تقابل قطعة الخامسة فرنك نظيرها من عملة أخرى.

قيل لي أن إجمالي الديون المتعاقد عليها بين أبناء الدائرة العسكرية بلغت 850 ألف فرنك. لم أرغب في استخلاص أي استنتاجات من هذه المعلومة إلا أنني تساءلت في نفسي عما إذا كان البنك يوافق على تقديم مثل هذه السلف دون ضمانات قوية.

يعتبر المزابيون منافسین شرسین لا يرضخون لأحد بأي شكل من الأشكال. إن بني مزاب الذين امتهنوا التهريب إلى أعلى درجة انتشروا في الجزائر في القرى والدواوير والقصور والمدن الكبرى. ولقد استقروا في بوسعادة بمحلاتهم التجارية التي تحتل جزءاً كاملاً من الساحة والتي تتنوع بالمقتنيات والأواني والأقمشة والأشياء المحلية والبقالة. تراهم ممتلئي الأجسام وأقواء ووجوههم كبيرة محاطة بلحية متناثرة يجلسون خلف مناضدhem بين أكواخ البضائع.

والسبب أن بوسعادة هي مركز للمعاملات مع العديد من الشركات، حيث تكون المعاملات في الأسواق الأسبوعية كبيرة نسبياً. يتم تأجير السوق سنوياً ويرتفع سعر المنح إلى 53 ألف فرنك. في المتوسط يتم سنوياً بيع 130.000 خروف و 150.000 حزمة من الصوف. يجلب أهل وادي رهير كميات كبيرة من التمور التي يتداولونها بالحبوب الآتية من سهل الحضنة وسطيف. يقام السوق الأسبوعي يوم الثلاثاء.

الحي الأوروبي، المدينة العربية، النساء، الأطفال، المدرسة

وتمتد المدينة المبنية على تل في مدرج مائل باتجاه الواحة. وعلى الجزء الأعلى يرتفع التحصين حيث استقبلنا القائد بحفاوة كبيرة. يفصل بين الحصن والبلدة غابة صغيرة منحدرة تنتهي عند تخوم المدينة. إلى الغرب، وعند سفح الحصن، تم بناء دائرة الضباط في بيئة حضارية تحتوي على لوحات لكتلتين، حيث أبدى غاستي ملاحظته الفنية؛ جلبت المجلات والصحف إلى هذا المكان لإضفاء أصداء للحضارة المصطربة. في مكان ليس ببعيد يقع منزل نقيب المكتب العربي، السيد روديت، الذي رحب بنا أيضًا بحفاوة. وأخيرًا، في شارع اجتنابي تصطف المنازل الأوروبية.



يحد الساحة مجموعة من المتاجر المحلية من جانب، ومن الجانب الآخر مركز الشرطة والمدرسة ومنازل النوايل والسعادة ومحلات البقالة والفندق الوحيد في المنطقة حيث السيدة شوفاصي Chevassus، مدمرة الفندق اللطيفة، استطاعت أن تضفي كل الرونق والأناقة على الطبخ في مناطق الجنوب ولقد حظي ذلك بالتقدير والإعجاب. أنشئت في هذه الساحة نافورة رائعة أثارت هندستها المعمارية عقولنا، يتجمع حولها تجار التمر المجفف وأوراق التبغ والبارود.

يتيح الشارع الرئيسي المؤدي إلى الساحة الوصول إلى الأحياء العربية. إنه المركز الحقيقي للتجارة والصناعات المحلية. وهناك العديد من التجار اليهود والحرفيين المحليين والبقالين ومحالات صانعي الأحذية والمجوهرات وأكياس الحبوب يتکي بعضها على بعض. باستثناء الأشياء المصنعة في الخارج كالمراوح والسكاكين والأحذية الآسيوية الشكل والتي تحمل نقوش غيوشا Guiauchain الجميلة.

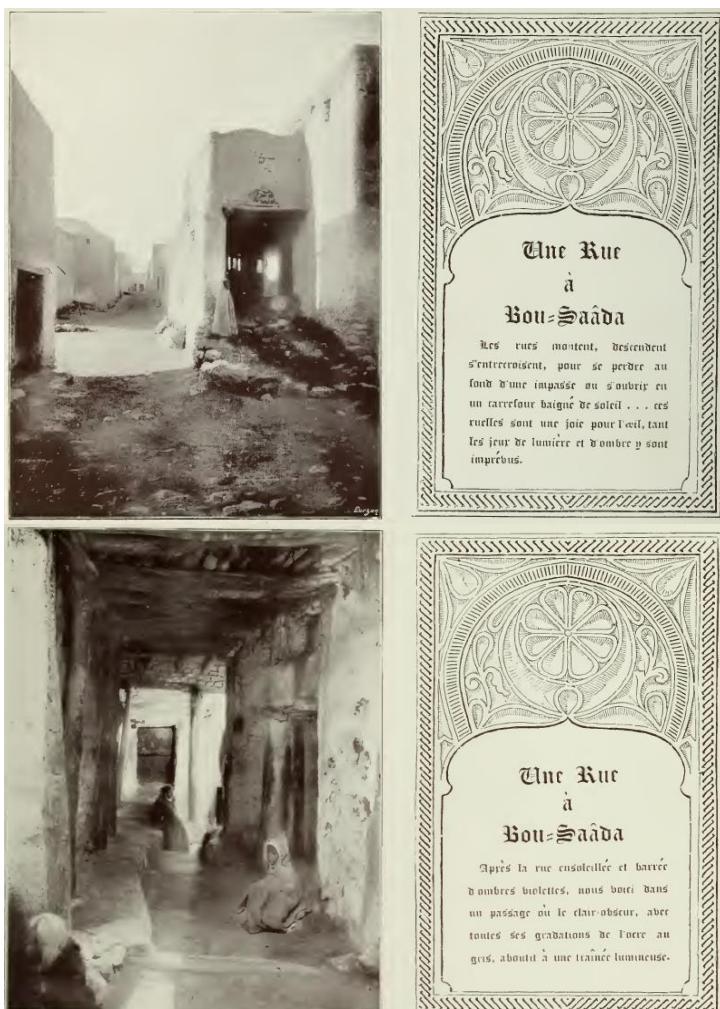
كنا نصادف بين الحين والآخر قطبيعاً من الجمال محملاً بأكياس القمح. تقدم هذه الحيوانات بخطوات ثقيلة وتمتد شفاههم السميكة إلى الأمام التي يتدفق منها لعاب لزج. أما الأحمراء فهي مكرسة لأكثر الأعمال قسوة وتستخدم في شق شبكة الطرق.



في الأحياء العربية، تتقاطع الأرقة الضيقة لأعلى ولأسفل لتنتهي بطريق مسدود معتم أو يفتح على شكل كوة في مفترق طرق عبرها ضوء الشمس. وغيرها، هذه الأرقة هي متعة للعين كما أن هناك الكثير من تداخلات الضوء والظل الرائعة. بعد الشارع المشمس المتقطع بظلال بنفسجية ها نحن هنا في ممر حيث تلتقي الأشعة بالظلال ما ينبع عنها

درجات اللون الأصفر الباهت والرمادي في خط مضيء. وبعيداً قليلاً نمر من خلال أخدود مصنوع بعوارض الجسور أين يتدفق خط من أشعة الشمس تضيء شرطاً من الغبار المتطاير! وفجأة وعبر فتحة مستطيلة لاحت لنا السماء الزرقاء في نهاية الشارع المظلم تبدو من خلالها خلفية مضاءة تتوسطها قمة القبة وجذع نخلة. تم تصميم الشوارع الضيقة المظلمة والمحجبة من أجل الاحتماء من أشعة الشمس الغير مرغوب فيها وخاصة خلال فترة الصيف.

تصطف على جوانب الأزقة الصامدة مقاعد أرضية صلبة حيث يجلس السكان أو يقفون بلا حراك. يكون مظهر النساء الجالسات في الزوايا قبيحاً بسبب حزم الثياب المتسخة لكنهن يكتسین تناعماً في الألوان عند الوقوف. علاوة على ذلك حسب رأي فرومنتين، إذا رأى المرء عدداً قليلاً من النساء الجميلات فإنه يتجاهل النساء القبيحات حيث لا يراهن إلا نادراً. هذا هو الحال هنا جمال النساء يختفي داخل الخرق ... ما عهدهناه هو أن الأشخاص الذين يرتدون الملابس الفضفاضة لا تبدو منهم أي زينة مذكورة.



لكن تلك الزينة موجودة بالفعل وسط الفقراء وتظهر من معطف
ممزق، إن هذه الميزة البطولية ستكون أقوى لو أنهن مكسوات جيداً
ولو كان للجمال آلهة وكانت هاته الآلهة عارية مثلهن تماماً...



ولكن لكي يصدق انطباعي يجب
أن تكون المرأة حرة في حركاتها وإيماءاتها. إذا بدت
لنا وهي تحفي ظهرها بشغل وتشفي رأسها للأمام
بغطائه البارز فهي لم تعد امرأة بل وحش ضخم.
كانت هذه المخلوقات الفقيرة تحمل جلوذاً
مملوءة بالماء.

سوف يسحبون هذه المياه من "السادية أو الساقية" ويملؤون بها جلود
الغنم أو الأباريق النحاسية أو حتى المزهريات المصنوعة من قماش ثixin
ومضرج بالقار. تملأ الأوعية وتحملها على ظهرها أو أكتافها ثم تصعد
إلى الشارع على الدرج.

يكتسح الشوارع الصامدة مجموعة من الفتىyan والفتيات الصغيرات
ويحتشدون للتسلول فور رؤية شخص غريب يمر. أوقفهم الخوف ببرهة ودفعهم
إلى الوراء. استدررت فجأة فإذا هم يطيرون مثل العصافير التي فرت من رصاص
البندقية ثم يتجمعون في الزوايا في جو مشوب بالخوف.

يرتاد الصغار من اليهود والعرب المدرسة حيث يتولى المعلم وزوجته بحمامس وتفان تعليمهم اللغة الفرنسية والقراءة والكتابة والحساب. إنه قبل كل شيء تعليم اختياري. يضع المعلم صوراً كبيرة أمام التلاميذ وباستخدام عصاهم، يعين لوناً أو كائناً، يطلب منهم تكرار الاسم في الدرس. يردد الجميع أغنية: "سروال الجندي أحمر!" والغريب هو مشهد البرانيس الصغيرة المصطفة على المقاعد تظهر منها وجوه مستيقظة! بعضها يثير حساسياتي، آسف على هذا التعبير...!

المنازل

لنعد من المدرسة إلى الأحياء العربية حيث يوجد الكثير من الأشياء للمراقبة. في الخارج، تكتسي المنازل أحياناً جدران ملساء؛ وتتوفر في أغلب الأحياء على نتوءات للطابق الأول بالحواف الساذجة والمسارب البدائية، وهناك حتى عيوب هندسية. أبوابها الثقيلة مصنوعة من خشب النخيل المتصلة بواسطة عوارض من الخشب الصلب. ترتكز على مفاصل من خشب الأرض حيث ينزلق البرغي على قطعة كبيرة من الخشب في المضارب ويتم ثبيته باستخدام وتد موضوع في الشق المقابل. إنها هندسة بسيطة ومتينة.

كل هذه البيوت مبنية من التراب المعجون والمجفف في الشمس. لون هذه المبني لطيف لكن صلابتها لن تدوم طويلاً. فإذا هطل المطر لفترة طويلة، فإن المواد تتلف وتتعرض للانهيار.

التصميم الداخلي هو نفسه في كل مكان. فعند المدخل دهليز به مقاعد أرضية صلبة، ثم يليه فناء صغير مفتوح، توضع في الزاوية منه جرة فخارية مدفونة في الأرض حتى الفتحة تستخدم للوضوء؛ هناك غرفتان للنوم أو ثلاث غرف تفتح على هذا الفناء البدائي.

يمكنك أن تعتبر نفسك محظوظاً عندما تعبّر الفناء دون أن تسقط في الحوض المحفور في الأرض والمخصص للأوساخ والقمامة. يؤدي الدرج المحفور في الأرض من الفناء وصولاً إلى غرفة أخرى مغطاة ومنه إلى السطح. هذا هو التصميم الأساسي للمنزل المغربي كما نعرفه.

الأرضيات المصنوعة من أغصان الأرز مدعاومة بجذوع الأشجار تعلوها روافد قصيرة تسمى "الغرائب" أو الغربان وهو نظام البناء المستند ببساطة إلى عمود كما عند اليونان القدماء.

المساجد، مسجد أولاد عطية، السرر فوق السطوح، إنشاء الحمامات،
جامع النخلة

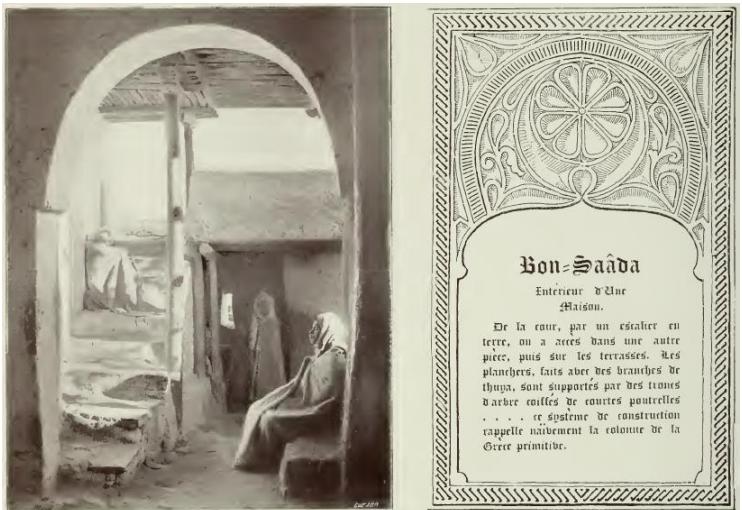
في داخل البيوت تصنع النساء البرنوس والسجاد، ويبدو أن لها سمعة ذاتية.

مسجد أولاد عطية قديم جداً. ويتألف من الزاوية الصغيرة عند مدخل الطابق الأول وتسمى "المحراب" أو مكان الصلاة، وأعلى المسجد أمامنا نجد قبة سيدى بن عطية من الغرب وقبة سيدى ابراهيم من الشرق. ثم يمتد بنا البصر من على السطح وينحدر شيئاً فشيئاً حتى الصفوف الأولى من أشجار النخيل. يتراهى لنا في غموض تحت ضربات أجنبة الحمام خيالات للنساء والأفرشة الغربية التي نصها أهالي بوسعادة للنوم أثناء موجة الحر في الصيف وأثناء الليل، حيث يتمدد الجميع على إطار خشبي مغطى بسقف نخيل كبيرة على شكل قبو، ويسمى هذا السرير الذي يبدو من بعيد وكأنه تل جنائزي "السدة". وأثناء الليل تظهر بوسعادة من الأعلى تحت ضوء القمر وكأنها مرقد ضخم أو مقبرة شاسعة.

قبل دخول مسجد جامع النخلة نتوقف أمام منبع القرية "عين القصر" حيث تتدفق مياه غزيرة ونقية من صخرة مغطاة بسقف يرتاده الناس جيئةً وذهاباً وباستمرار مما جعل الدرجات الصخرية لامعة بفعل الاحتكاك المستمر. عين القصر ليست نافورة مياه فقط، بل هي أيضًا الحمام الذي يأتيه الناس للاغتسال. تم تعليق حوض كبير بجانب النبع وتسخن المياه فوق موقد حجري. فمن يريد أن يغتسل سواء رجلاً كان أو امرأة، يغترف بوعاء الماء الساخن وينثره على جسده. نفرك أجسامنا بالماء الذي يخرج من النبع ثم نبدل ملابسنا في غرفة صفيرة مجاورة. يمكنك اعتماد الاشتراكات كما هو الحال في بلد متحضر، والتكلفة أقل مما كانت عليه في فيشي، أي 50 سنتيمًا لموسم من 4 أو 5 أشهر.

تقول بعض الأساطير في المنطقة، أن أول مرابطين مؤسسين لبوسعادة قد نزلوا بعين القصر والتي بنيت حولها المنازل فيما بعد.

بجانبه ينتصب مسجد "جامع النخلة"، الأجمل على الإطلاق، وقد رمِّ مؤخرًا. يتميز المدخل بالبساطة العريقة بممره الصغير الساحر المزين بخشب الأرز. كما أن صالة الصلاة واسعة وبسيطة.



1

إنه مكان مقدس وموقر يرتاده المسلمون وقت العصر ليقيموا الصلاة عن طواعية. لكن لماذا وضعوا في المسجد ساعة داخل صندوق خشبي ثقيل ومتضارب الألوان؟

^١ ترجمة النص الموجود في الصورة: "من الفنان، عبر سلم مصنوع من الطين، يمكن الدخول إلى غرفة أخرى، ثم إلى الأسطح. الأرضيات مصنوعة من فروع الزعتر، وتُدعم بواسطة جذوع الأشجار الموضوعة على أعمدة قصيرة ومنخفضة. هذا النظام الإنشائي يشبه إلى حد كبير العمارة في اليونان البدائية".

تُظهر الرسمة منزل تقليدي في بوسعادة تشمل عمارة المنزل مداخل مقوسة وجدرانًا ترابية، ما يبرز طرق البناء التقليدية المذكورة في النص، كما توجد دعامات وعوارض خشبية تشكل هيكل السقف، بما يتماشى مع الوصف الذي يتحدث عن فروع الزعتر المدعومة بجذوع الأشجار، بالإضافة إلى ذلك هناك أشخاص موجودون بالداخل، وقد منحت الصورة على العموم إحساساً بالهدوء والراحة، مما منحنا مزيجاً فريداً من المواد الطبيعية وتقنيات البناء التقليدية المستخدمة في المنطقة.

أزيلوا تلك الساعة يا مسلمين، يرضي عنكم محمد:

صعدت إلى الشرفة للهروب من هوس تلك الساعة الرهيبة التي بدت
دقاتها الغبية وكأنها تستهزئ بنا.

بوسعادة المطلة على المسجد

على قمة مسجد النخلة، شعرت بأن سحر المناظر الطبيعية يخترقني
وهو يرتسن في الظلام أمام عيني، لا أعتقد أن هناك حاجة إلى الشمس الساطعة
على هذه الطبيعة لأنها تمنحنا حساً مرهفاً لرنين النغمات الجذابة تحت السماء
الرمادية، نغمات طبيعية لا يمكن لأي آلة أن تصنعها.

بمجرد أن اعتليت مئذنة "جامع النخلة" تغشت السماء بالضباب
وسقطت أمطار غزيرة وتداعت مكونات المناظر وتبينت الأشياء. فلقد ظهرت
الكتبان الرملية كقطعة من الذهب المصفى، مع لمعان ناعم على السجاد القديم
تحت شعاع القمر. كانت تطفو على أشجار النخيل أبخرة الشفق العجيبة التي
تطبع الأرجاء وتلطف الأجواء وتكنس الأفاق. فقدت الجبال نغماتها الباهة بدت
أكثر غموضاً. ترتفع أمامي التلال الثلاث بشكل هرمي أمام بوسعادة وكذلك
قمة جبل البطن وأخيراً مناظر غريبة للجبال المجاورة التي تشبه التيجان
الفارسية تعلوها أقماع متوجهة مع أحزمة من صخور عمودية. عند سفح
الجبال تتمدد كثبان رملية. الكثبان الرملية هي بحر ذهي باهت أمواجه مغربية
ومنيعة.

في سكون كل هذه الطبيعة، همست أصوات وأحاسيس هادئة: زوجان
من الحمام على الشرفة وعلى مقربة منها يتناثر مسحوق الفلفل الأحمر
كأنه بقعة كبيرة من الدم المتاخر. يلي الأسطح الرمادية أشجار النخيل بجمال
جذوعها النحيلة ورونق سعفها حيث تظهر في هذا المكان كرمز للحياة الجامدة.

في حضرة الأمير الهاشمي بن عبد القادر

عند مغادرته المسجد قادنا مرشدنا الفاضل محمد السايج لرؤية الأمير الهاشمي نجل عبد القادر بطل الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي. لم يكن المنزل الذي يعيش فيه مميزاً. كان عبارة بناء مكعب كبير يتتوفر على درج سلم يؤدي إلى الغرفة التي كان سي الهاشمي ينتظرا فيها. لاحظت في غرفة المعيشة الصغيرة والمفروشة على الطراز الفرنسي لوحة فوتوغرافية لصورة عبد القادر. وقد حملت هذه الرسمة ملامح شخصية الأمير النشطة بفضل أصابع الرسام ليون روشييه ... جبهته عريضة ومرتفعة وحاجباه أسودان ناعمان ومقوسان جيدا فوق عينيه الزرقاء الكبيرتين الفاتنتين. له أنف دقيق وأقنى شفاه رقيقة مطبقة ولحية سوداء حريرية تكمل شكل وجهه البيضاوي كشخصية تعبيرية.

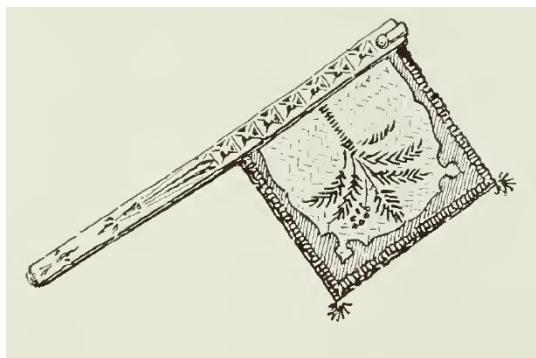
يقع وشم صغير بين الحاجبين يبرز نقاط الجبهة:

تبعد اليد النحيلة والصغيرة بيضاء ناصعة ... لا يتجاوز طوله خمسة أقدام وبضعة إنشات، لكن بنيته العضلية تدل على نشاطه الكبير ... لا يزال يمسك بمسبحة سوداء صغيرة في يده اليمنى ... لو أراد فنان ما أن يرسم لوحة لرهبان من العصور الوسطى فإنه لن يستطيع اختيار نموذج أكثر جمالاً ... من صورة الأمير عبد القادر.

استقبلنا الأمير الهاشمي بكلمة كرم كبيرة. وبينما كنا نتدوّق كوبا من المخاوي الممتاز استطرد بكلمات لا تخلو من الكآبة عن ماضي والده المجيد

فقد حدثنا عن حياة والده في دمشق ودوره هناك عام 1860 خلال مذابح الموارنة¹ في سوريا. حيث يذكر أن الدروز ومعهم العرب والأكراد هجموا على الموارنة وذبحوهم بلا شفقة. واستقبل عبد القادر في 10 يوليو 1860، الآلاف من هؤلاء التعساء وأنقذهم من بطش أعدائهم وأنقذ حياتهم عدة مرات.

كان الهاشمي ضعيف البصر يعيش في عزلة مع ذكرياته ويكرس أوقات فراغه لكتابة تاريخ عبد القادر في مجلدين. شقيقاه هما جنرالان في خدمة السلطان. وأثنان من أبنائه ورثة التقاليد مجندان في خدمة فرنسا: أحدهما ملازم ثان والآخر رقيب من فرقه السبايسية.



¹ مذابح الموارنة في سوريا تشير إلى سلسلة من الهجمات العنيفة التي استهدفت الطائفة المارونية المسيحية في مناطق مختلفة من سوريا خلال فترات متعددة من التاريخ، من أبرزها: مذابح دمشق 1860، مذابح جبل لبنان 1860، للمزيد حول هذا الموضوع ينظر:

Leila Fawaz, **The 1860 Mount Lebanon Civil War and Massacres**, University of California Press, USA, 1994.

Chapitre VI

L'OASIS ET L'OUED BOU-SAÂDA

La ville est complétée par l'oasis qui en est le charme et la parure. L'oasis, qui a une superficie de 140 hectares environ, est complantée de 8 000 palmiers et d'une multitude d'arbres fruitiers. Elle est divisée en un grand nombre de jardins clos de murs et irrigués par des ruisseaux dérivés de l'oued Bou-Saâda. Vue de haut, cette masse de verdure s'éployant en palmes dentelées est assurément imposante; mais je préfère à cette agglomération trop dense le palmier isole qui s'élève près d'une kouba blanche. Lorsqu'il est seul, en son cadre, l'arbre s'érigé et s'infléchit avec toute sa majesté et sa mélancolie.

Bien qu'ils soient abondamment pourvus d'eau. Les palmiers de Bou-Saâda ne produisent que des dattes inférieures.

Tous ces jardins, par leur fraîcheur, forment, avec l'aridité de la dune, un contraste violent. Les cultures y sont très variées: les vignes grimpantes, qui enveloppent les arbres de leurs lianes vigoureuses, ressemblent à de gros serpents: les figuiers, de belle structure, y étalent leurs branches de ton si fin et leurs larges feuilles au milieu des abricotiers et des pêchers: les grenadiers y poussent parmi les orangers et les citronniers. Entre les branches on voit des crânes de béliers ou de taureaux pour écarter le mauvais œil. A côté des arbres fruitiers, la culture maraîchère a une large place dans ces jardins qui produisent toutes sortes de légumes, ainsi que du blé, de l'orge et du maïs.

Sans la rivière. Bou-Saâda n'existerait pas. Sur ses bords les premiers errants se sont désaltérés et ont planté leur- tentes: sur ses rives le Saharien s'est arrêté avec son chameau chargé du baldaquin où la femme se dérobe aux regards. C'est d'elle que les traditions et les légendes sont nées. Au milieu de la tristesse et de l'aridité des solitudes, le nomade épouse, en apercevant ses méandres argentés, recouvre les forces et le courage. C'est elle enfin qui apporte au sol la fertilité, et la vie aux homunes.

La rivière descend des monts des oulad Naïl ; dans son parcours à travers les montagnes, elle passe sur des grès rouges, sur des ardoises violettes dont elle avive les tons. A El-Hamel, elle met, à côté de l'austérité de la zaouïa, la joie de ses rives où poussent des lauriers-rose colorés comme une chair de vierge. In peu plus loin, elle fait tourner un moulin; puis, elle entre à Bou-Saâda, dans le prestige d'un décor incomparable, avec tout le chatoiement des couleurs.



LA RIVIERE DE BOU-SAADA

Ce n'est plus la rivière de France qui chante au milieu des verdures du printemps, et qui pleure parmi les ors de l'automne. Ici, le paysage a quelque chose de sacré et de mélancolique: l'eau coule en nappe si tranquille, qu'elle reflète, comme un miroir, la stature des hommes immobiles, les contours des roches, la forme des arbres, et les teintes du ciel, depuis le rose et l'opale de l'aube jusqu'à la pourpre sanglante des couchers de soleil.

Son lit est bordé de rochers de formes bizarres et de vieux murs tapissés de mousse ou enguirlandés de plantes folles. Elle est dominée par la masse des arbres dont la ligne va se perdant vers la dune.

Au milieu des bouquets de cactus et des figuiers, parmi les arbres fruitiers au coloris automnal, se dressent les palmiers, les uns s'élevant avec fierté vers le ciel, comme des fûts de colonne; les autres inclinés vers la rivière, pour la saluer et lui rendre hommage.

La rivière est, en partie, dérivée et dispersée en de nombreux ruisselets qui se répandent dans les jardins pour arroser les pieds des arbres ou inonder les plants de légumes. Puis, à la sortie de l'oasis, elle reprend librement son cours; et coule sur le sable des dunes jusqu'au chott du Hodna. En été, ce n'est plus qu'un mince filet qui serpente entre les cailloux brûlants de la grève.



ZEGROUP. (Cruche en alfa tressé)

الفصل السادس

الواحة ووادي بوسعدة

لا يكتمل سحر المدينة وزينتها إلا بالواحة التي تبلغ مساحتها حوالي 140 هكتاراً مكسوة بأشجار النخيل وعدد كبير من أشجار الفاكهة. وتنقسم إلى عدد كبير من الحدائق المسورة والمسقية بجداول نابعة من وادي بوسعادة. إذا نظرنا إليها من الأعلى بدت مثل كتلة من المساحات الخضراء المتسلكة من أشجار النخيل المسننة وهي بالتأكيد سر الأخضرار لكنني أفضل ذلك التجمع شديد الكثافة حيث تبرز منه النخلة المعزولة وترتفع بالقرب من القبة البيضاء. فهي في وحدتها وفي محيطها ترتفع وتنحني بكل جلاله وحزن.

على الرغم من أن أشجار النخيل في بوسعادة تسقى بكثرة إلا أنها لا تنتج سوى تموراً رديئة.

تجاور كل هذه الحدائق بحداثتها مع جفاف الكثبان الرملية مشكلة بذلك تبايناً عنيقاً. الزراعات هناك متنوعة للغاية: كالكرום المتسلقة التي تغلف الأشجار في عرائش قوية تبدو وكأنها ثعابين كبيرة، وأشجار التين، ذات البنية الجميلة حيث تنشر أغصانها الرفيعة الرائعة وأوراقها العريضة وسط أشجار المشمش وأشجار الخوخ. تنمو أشجار الرمان هناك بين أشجار البرتقال والليمون. نرى جمام كباش أو ثيران بين الفروع لدرء عين الحسود. إلى جانب أشجار الفاكهة، تحضى البستانة في السوق بمكانة كبيرة، فهذه الحدائق تنتج جميع أنواع الخضار وكذلك القمح والشعير والذرة.

لم يكن لبوسعادة وجود لولا النهر الذي روى عطش المتجولين الأوائل ونصبوا خيامهم بعد ذلك على ضفافه واستراحتوا بجمالهم المحمّلة بالظللة الصحراوية التي تتحجب المرأة عن الأنظار. ومنذ ذلك ولدت التقاليد والأساطير. في قلب الحزن والجفاف والعزلة استلهم البدو نقاط قوتهم وشجاعتهم على مر تنقلاتهم. وهو ما منحهم أخيراً القدرة على جلب الخصوبة للتربة والحياة للناس.

ينحدر النهر من جبال أولاد نائل. ويمر عبر الجبال على الحجر الرملي الأحمر على صفائح بنفسجية تعطي الماء تدرجات في اللون. يلقي النهر بجزء من عطائه للزاوية، وتضفي ضفافه بهجة على نباتات الدفل الملونة بلون العذراء. ثم يتدفق ليس بعيد عن ذلك ليدير طاحونة؛ ثم يدخل بوسعادة، في أبهة لا تصاهي، مع كل الألوان المتلائمة.



لم يعد نهر فرنسا وحده من يغنى وسط خضرة الربيع ويبكي بين ذهبيات الخريف. المنظر الطبيعي هنا يتمتع بشيء من القدسية والحزن: فالماء يتدفق في ملاعة أكثر هدوء، مثل المرأة تعكس وضعية الرجال المتسمرين، وملامح الصخور، وشكل الأشجار وتلوّنات السماء من الوردي الداكن وقت الفجر إلى اللون الأرجواني الدموي وقت الغروب. ينفتح النهر في بحيرة محفوفة بصخور غريبة الشكل وجدران قديمة مغطاة بسجاد من الطحالب أو مزينة بالنباتات البرية. تهيمن على الحواف كتلة الأشجار المصطفة في خط نحو الكثبان الرملية.

ترتفع أشجار النخيل وسط أجمة من الصبار والتين وأشجار الفاكهة الملونة الخريفية، بعضها شامخ إلى السماء بفخر كأنها أعمدة بنيان. وبعضها الآخر تميل نحو النهر كأنها تؤدي له التحية. تم تحويل مسار النهر جزئياً ليتوزع في عدد من المجاري المنتشرة في الحدائق من أجل سقي الأشجار أو النباتات والخضروات. ثم يخرج من الواحة ويستأنف مساره على شكل بحر ويلاشى على الكثبان الرملية في شط الحضنة. يتحول في الصيف إلى ساقية رقيقة تتسرّب بين الحصى المحترقة على الضفاف.



Chapitre VII

CHEZ LES NAÏLJA

La maison

Vingt et un alvéoles s'ouvrant sur une vaste cour rectangulaire, sale et boueuse, close de grands murs, voilà les réduits où ces dames sacrifient à l'amour, simplement, sans apprêts, sans luxe, sans raffinement. L'édifice, placé à proximité de la maison d'école et du commissariat de police, a l'aspect d'un cloître primitif, d'une écurie et d'un caravansérail, c'est le logis où nul ne s'attarde où rapidement on débat les prix, on conclut le marché, et d'où l'on s'éloigne, les sens apaisés. L'homme, nomade dans la vie, nomade dans l'amour, n'emporte même pas en ses yeux la vision fugitive de la femme possédée. La femme, par atavisme, par tradition, par nécessité, ignore l'amour néglige la maie et suppute uniquement ses bénéfices. Elles accumule les piécettes d'argent et les transforme en de belles pièces d'or qu'elle portera suspendues en collier, ou dont elle ceindra son front comme d'un diadème.

Résignée, elle va de ville en ville en suivant sa destinée.

A Bou-Saâda, comme à M'Sila et en d'autres centres, on leur affecte un local spécial qui a presque toujours les mêmes dispositions: de menues chambres s'ouvrant sur une cour intérieure.

L'ameublement de ces chambres est aussi sommaire que possible. Une paillasse ou une natte jetée sur les carreaux, un coffre peint en vert et orné de clous en cuivre dans lequel sont enfermés ces bijoux et les vêtements: en un coin, un petit brasero surmonté d'un trépied en fer sur lequel ronronne, avec des odeurs d'huile rance, une marmite, l'unique ustensile du lieu.

A l'époque de notre arrivée, quatorze réduits sont occupés par ces prêtresses d'âge variable, depuis la vieille au mufle de l'hyène et aux yeux bigles, jusqu'à la jeune fille, à l'enfant à peine nubile.

Le local, augmenté d'une salle de danse et d'un bouge où se débitent des alcools impurs, un café de goût étrange et un thé poivre, appartient, dit-on, à la commune qui, moyennant 500 francs par mois, le loue à une industrie] juif. Celui-ci, à son tour, fixe à 20 francs par mois le loyer de chacune des chambres. Les filles conservent toute leur indépendance, se nourrissent comme elles l'entendent, disposent de leurs recettes, à la condition toutefois de payer leur loyer et de danser devant les consommateurs et les étrangers. Elles sont libres de changer de résidence, quand bon leur semble. Huant au tenancier juif, il arrive à réaliser quelques profits en vendant ses boissons frelatées et en prélevant une part sur les quêtes faites pendant les danses.



BOU-SAÂDA. MAISON DES NAILIA.

Vingt et un alvéole s'ouvrant sur une cour rectangulaire, sale et boueuse, close de grands murs.



Il est aidé dans son commerce par deux serviteurs et un officieux Arabe d'une hideur incomparable. L'un est borgne, avec un anneau passé dans l'oreille gauche : une calotte grecque, un burnous maculé de taches, des chaussettes retombant sur ses talons, une culotte arabe, voilà son accoutrement. Le second est bien le type du souteneur louche avec sa chéchia crasseuse et sa longue blouse. Quant à l'Arabe qui complète le trio, c'est un être repoussant, à la face glabre et au teint bilieux ; il est bancal et marche à la manière d'un monstrueux faucheur ou d'un crapaud de muraille qui aurait la patte cassée. Il jouit de certaines privautés: il partage la couche des femmes inoccupées, se frotte à elles avec des attitudes d'araignée cramponnée à une proie, de goule en rut et de chien battu. D'ailleurs, plein de prévenances et d'attentions, il aide les filles à s'habiller et à se parer. De ses doigts maigres et aranéaux, il drape les longues robes, dispose les plis, met en relief les lourds ornements et les pendants d'oreille, allonge les yeux et avive le regard avec du koheul, met du vermillon sur les lèvres, place une mouche entre les sourcils; puis se retire, prend du champ, admire son œuvre, renifle une dernière fois l'odeur qui s'exhale de la femme et, les yeux mi-clos, murmure en une extase de sadisme inassouvi: "Tu peux aller!"

Les musiciens

En ce milieu, pompeux, placide et gras se prélasser, s'étale le maître de céans, le locataire de la commune. Il se tient à la porte de la salle de danse, pièce longue et étroite, garnie, le long des murs, de doubles banquettes superposées, en terre battue ou en maçonnerie sommaire. Dans le fond, deux musiciens qui, à eux seuls, composent l'orchestre, font déjà rage. L'un souffle dans une longue clarinette, la "kaïta," à large pavillon; il souffle sans trêve ni merci, sans prendre respiration, puisant je ne sais où l'air qui lui est nécessaire ; à la mélodie lente, plaintive, au rythme de marche hiératique succèdent des notes rapides, échevelées, hurlantes, cris de détresse, abois de chienne à la lune. L'autre, sur un tambourin, souligne ces effets de sonorités rauques et de brouhaha infernal. La salle est déjà pleine. Sur la double rangée de banquettes, des Arabes drapés dans leur burnous, se pressent à côté de rouliers et de soldats du bataillon d'Afrique. A la fumée de tabac, aux relents de suint, aux odeurs de corps surchauffés se mêlent des parfums de musc et d'absinthe : symphonie dominée par la note brutale et troublante des sons.

Les couleurs manquaient encore pour compléter cette synthèse de sensations. Les voici :

Les Nailia

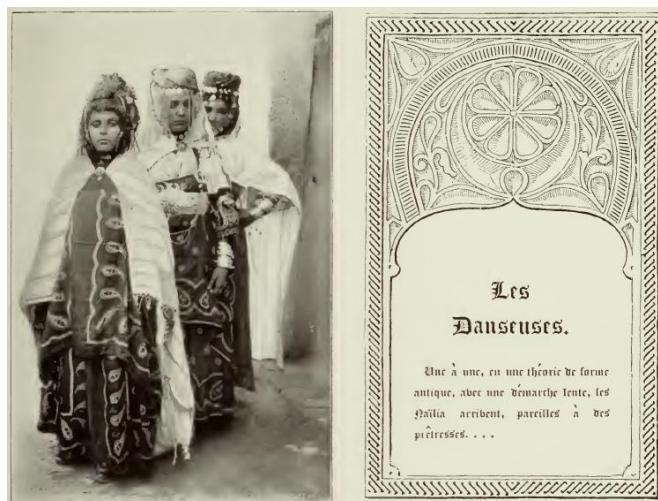
Une à une, en une théorie de forme antique, arrivent les Nailia, pareilles à des prêtresses ou à des gardiennes de temples hindous. Elles entrent, sans provocation dans le regard, sans lascivité dans la démarche ; et, après avoir promené autour d'elles un regard indifférent, elles prennent place, serrées les unes contre les autres, sur une partie de banquette demeurée libre. Elles sont vêtues de tuniques flottantes, rouges ou polychromes, serrées à la taille par un foulard de soie ou par une ceinture de cuir ornée d'un

épais fermoir en argent. Aux chevilles, de larges kholkhall rehaussés de pointes en argent ou de cabochons en corail ; aux poignets, une profusion de bracelets. Un manteau d'étoffe légère retenu sur la tête, et voilant en partie les joues, se drape sur les épaules et retombe droit sur la tunique.

La coiffure surtout a du caractère. Sur leur tête s'élève un diadème de soie lamée d'or. Deux nattes épaisses, relevées en torsades, enveloppent leurs oreilles auxquelles sont appendus d'amples anneaux.

Les danses

Leurs danses sont pleines de charme. En essayant de les décrire, à peine parviendrai-je à en faire comprendre l'austérité presque sacrée ou l'impudicité brutale.



Les Danseuses.

Une à une, en une théâtre de forme antique, avec une démarche lente, les Nââlia accèdent, parallèles à des prêcessés. . . .



Dans les pays civilisés, la danse n'est qu'un prétexte à flirt. En glissant sur le parquet des salons, on se borne à faire sa cour et à dire des banalités. Sur la scène, la danse académique est tributaire de la musique et manque d'imprévu : les jambes seules y remuent tandis que le torse est à peu près immobile et que la face grimace d'un sourire conventionnel.

En Espagne seulement, le corps tout entier, les mains, les bras, le torse et les jambes prennent part à l'action chorégraphique pour mimer la provocation amoureuse, les séductions féminines et les emballements fous ; et encore l'Espagne a-t-elle emprunté aux Arabes plusieurs de ses rythmes et de ses danses.

Mais ce n'est qu'en cette région du sud que les femmes des oulad Naïl vous donneront une sensation nouvelle avec une musique adéquate.

Ces danses, il faut bien le dire, reproduisent presque toujours la même scène : la danseuse arrive d'une marche lente, la face mi-voilée. Elle cède à l'amour qui l'attire, elle ne marche plus, elle glisse ; peu à peu, tandis que la cadence se précipite, son corps souple s'infléchit et se redresse en ondulations. Le charme s'opère, l'amour la possède, et aux vagues frémissements succèdent les mouvements du ventre.

La danse est quelquefois plus pudique : deux femmes vont, viennent en une démarche glissante et légère, scandée par des balancements de bras et des flexions de mains ; puis, continuant à avancer de front, elles unissent leurs mains sur lesquelles elles balancent, en une modulation douce, leur bras demeuré libre.

M'barka

Pensive, sans un mot, presque sans un regard, une fillette de douze ou treize ans était restée. Assise en un coin. Débutante dans la vie de la quêteuse d'amour, elle n'a encore eu ni le temps ni les moyens d'acheter des bracelets, des ceintures, des pendants d'oreille et des foulards de tête. Dans son affaissement et son abandon, elle apparaissait misérable. L'un homme lui frappa sur l'épaule: "Veux-tu danser?" "Oui," répondit-elle, et elle alla se placer à l'extrême de la salle sous le reflet pâle de la lampe fumeuse.

La musique se fit entendre pareille à un halètement rythmé, et elle se mit à danser. Ses pieds glissaient sur le sol en saccades si menues, que les lignes de son corps n'en étaient pas troublées ; ses bras se balançaient avec . Les mouvements d'aile d'oiseau blessé. Elle penchait la tête en une pose pleine d'abandon, et subitement, elle nous donna une sensation d'art par un ensemble harmonieux et parfait. On vit alors qu'elle était belle, d'une beauté pure et calme. Ce fut une révélation subite de la beauté dans l'harmonie, en dépit de la pauvreté du costume et de l'abjection de l'ambiance. La petite robe de laine rouge eut des apparences de pourpre royale, et l'étoffe légère, fixée aux épaules, devint pareille, par ses frémissements animés, à une aérienne draperie tissée avec des ailes de libellules. Ses yeux perdus dans le vague semblaient remplis de mystérieuses visions.

D'où venait donc cette petite M'Barka au profil de princesse? D'un palais, du pays des rêves ? . . . Des montagnes lointaines qui, au soleil couchant, se teignent de sang, d'or et d'opale ?

M'Barka dansait toujours ; puis elle s'arrêta sur une note plaintive, presque douloureuse, cri de spasme, de mort ou d'adieu. Elle retomba dans son immobilité et son indifférence, et le charme disparut.



BOU-SAADA. DANSE D'UNE NAILIA

Peu à peu, tandis que le rythme se précipite, son corps souple s'infléchit et se redresse en ondulations.



BOU-SAADA. Danse de deux sadaouïa.

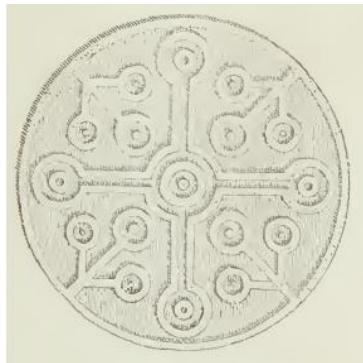
Continuant à avancer de front, elles balancent, en une modulation douce, leur bras demeuré libre. . .



Les Arabes regardaient immobiles sur les banquettes de terre durcie.

Un petit juif, trop civilisé, avec des allures de gandin exotique, tira de sa bourse un billet de banque et une pièce d'or qu'il offrit avec une générosité affectée aux musiciens. Comme nous nous étonnions de cette prodigalité, un habitant nous dit : "Rassurez-vous, c'est un truc pour allumer les étrangers ; on lui rendra le tout, capital et intérêts !!"

Au milieu, des soldats avinés passaient gouailleurs, lançant, entre deux bouffées de tabac, de grasses obscénités. Des charretiers, coiffés d'une toque en peau de loutre, chaussés de bottes jaunes d'où émergeaient de larges culottes en velours, entraient pour faire de faciles conquêtes ; et, d'instant en instant, les filles disparaissaient dans leur antre obscur et revenaient s'asseoir, impassibles.



(الفصل السابع

في حضرة النايلية

تطل على فناء واسع مستطيل إحدى وعشرون حجرة، فناء متسع
وموحل محاط بجدران كبيرة.

ها هي الأوكرار التي تؤوي هؤلاء السيدات بائعات الهوى ببساطة،
لا تحضريرات ولا زينة، ويبدو المبني غير المصقول وكأنه دير قديم. يقع بالقرب
منه منزل المدرسة ومركز الشرطة والإسطبل ومربيط الخيول. إنه المنزل
الذي لا يبقى فيه أحد حيث تناقش الأسعار بسرعة، وتقضى الأمور، وتنصرف
بعد إرضاء الشهوات. إن الرجل البدوي في حياته بدوي في الحب أيضاً لا ينظر
للمرأة على أنها فريسة هاربة. كما أن المرأة تتجاهل ما يسمى الحب ولا تعرف
سوى بالتقاليد والضرورات، حيث تنظر إلى الذكر من جانبه المادي. تعمل المرأة
على جمع العملات الفضفية وتحولها إلى عملات ذهبية أو حلبي جميلة تضعها
كقلادة، أو تشبك بها جميتها مثل الإكليل. لقد تحررت من كل القيود، وتنقل
الآن من مدينة إلى أخرى تتبع مصيرها¹.

في بوسعادة تماماً كما في المسيلة ومراكمز أخرى يتم تخصيص غرفة
خاصة لها دائماً نفس التصميم: حجرة صغيرة تفتح على فناء داخلي. يتم تأثيث
هذه الغرف الأساسية قدر الإمكان أي سجاد أو حصيرة على البلاط وصناديق
مطلي باللون الأخضر ومزين بمسامير نحاسية مقلولة مخصص للمجوهرات

¹ لقد كانت نظرة المؤلف تجاه المرأة البدوية سلبية إلى حد بعيد، إذ يتم تصويرها كشخص يركز
على الجوانب المادية فقط، دون الاهتمام بالعواطف أو العلاقات العاطفية المرتبطة بالزواج
أساساً، فالمرأة في نظره تبدو ككائن مستقل يسعى لتحقيق مكاسب مادية من خلال جمع العملات
الفضفية وتحويلها إلى ذهب أو حلبي تزين بها نفسها.

والملابس. في أحد الزوايا، تتأرجح مجمرة صغيرة على ثلاثة قوائم حديدية وبها زيت قديم. وهي الوعاء الوحيد في المكان. في الفترة التي كنا هناك، كانت تشغله تلك الحجرات الأربع عشر مجموعة من الأخوات بمختلف الأعمار، من المرأة العجوز ذات الكمامنة المرقطة والعيون الواسعة إلى الفتاة الصغيرة وصولاً إلى الصبايا بسن الزواج.

يتوفر المبنى على قاعة رقص وكوة تقدم منها الكحوليات المختلطة والقهوة ذات المذاق الغريب والشاي الحار. يقال إن المبنى تابع للبلدية التي تؤجره لمهدوي مقابل 500 فرنك شهرياً. ويحدد هذا الأخير بدورة مبلغ 20 فرنكاً شهرياً كإيجار لكل غرفة. تتمتع الفتيات باستقلاليتهن، ويتناولن الطعام الذي يرينه مناسباً لهن، ويتصرفن في أجرهن بشرط دفع الإيجار والرقص أمام الزبائن والغرباء. ولهن الحرية في تغيير محل الإقامة وقتما يردن. أما المستأجر اليهودي فإنه يحقق بعض الأرباح من بيع مشروباته المخلوطة ويأخذ حصة مما يتم جمعه من الأموال خلال الحفلات الراقصة.





**بِإِكْلِيلِهَا الْحَرِيرِيِّ الْمُرْصَعِ بِالْذَّهَبِ وَثُوْبِهَا الْمَشْدُودِ إِلَى تَفَاصِيلِ جَسْدِهَا
وَحِزَامِهَا الْفَضِّيِّ تَبَدُّو خَيْرَةٍ وَكَأْنَهَا حَارِسَةٌ مَعْبُدٌ هَنْدُوسِيٌّ**

يقوم على مساعدته في التجارة خادمان ومدنی عربی لا يضاهيه أحد في بشاعته. أحد الخادمين أعور يضع خاتماً في أذنه اليسرى وقلنسوة يونانية عليه برنوس ملطف بالبقع وجوارب مرخية على كعبيه وتبيان عربي، تلك هي ملابسه. والثاني يمثل القواد المريب بشاشيته القدرة وبلوزته الطويلة. أما العربي الذي يكمل الثلاثي فهو شخص ذو وجه حليق وبشرة صفراء. إنه مترنج يشبه العاصد الحزين في مشيته أو الضفدع المكسور على الحائط. يتمتع بامتيازات معينة: فهو يشارك النساء العاطلات في الفراش، ويمكنه ملامستهن وحتى ضمهن مثل العنكبوت التي تتشبث بفريستها، فهو غول في حرارته وكلب منبوز. علاوة على ذلك، فهو محل اعتبار واهتمام، يساعد الفتيات على ارتداء ملابسهن ووضع الزينة. بأصابعه الرفيعة والعنكبوتية، يلف الفساتين الطويلة ويرتب الطيات، ويبرز الزخارف الثقيلة والأقراط المتدرية، ويكلل العيون فيضيء مظهر الفتاة، ويضع الزنجفر على الشفاه، ويرسم شامة بين الحاجبين؛ ثم ينصرف لعمله في الحقل، وهو معجب بعمله فيتشتم للمرة الأخيرة عطر الفتاة قبل أن يغادر. تتغمف عيونها نصف المغلقة في نشوة السادية غير الراضية بكلماتها "يمكنك أن تذهب!".

في هذه البيئة الفخمة والهادئة والمملئه، يستلقي سيد المنزل، مستأجر البلدية. يقف عند باب قاعة الرقص، وهي صالة طويلة وضيقه، تصطف على طول جدرانها مقاعد مزدوجة مكدسة. تكون أرضيتها مطروقة أو ممهدة بحجارة خشنة. يتربع في الخلفية موسقييان يشكلان جوقة لوحدهما. ينفع أحدهما في قصبة طويلة "الغاية" بفوهتها العريضة؛ ينفع الموسقي بلا هواة أو رحمة ودون أن يأخذ نفساً، لا أدرى من أين يأتي بالهواء؛ تتبع الترنيمة البطيئة الحزينة إيقاع المشية الشعائرية لكنها تخضع لنغمات سريعة شعاء تحمل عويلاً وصرخات استغاثة ونباح كلاب على ضوء القمر. أما الآخر، فيضرب على الدف وعلى الإيقاع الصوتي يحدث صوتاً أجش وصخباً جهنميَا. امتلأت الغرفة تماماً. اكتظ الأعراب ببرانيسهم على طول المقاعد المزدوجة، متجمعين بجوار سواق وجنود من الكتبة الأفريقية. امتنج دخان التبغ وعفن الشحوم وروائح العرق برائحة المسك والأفستانين: عزفت سيمفونية تغلب عليها النغمات الوحشية والأصوات المزعجة.

لا نزال ننتظر تلك الألوان الزاهية لإكمال هذا التناسق الرومنسي.

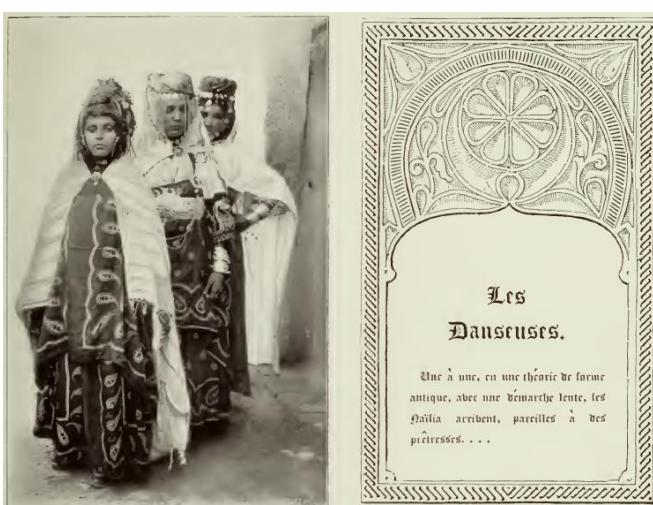
النايليات

ها هي قد أقبلت، واحدة تتلو الأخرى بخطوات حثيثة ومشية عتيقة وصلت النايليات وكأنهن راهبات أو خادمات المعابد الهندوسية. يدخلن دون نظرات استفزازية ولا مخادعة في المظهر؛ وبعد أن ألقين نظرة حولهن، أخذن أماكنهم دون مبالاة وقد تجمعن مقابل بعضهن البعض. ثم عمدن إلى جزء من المبعد الذي ظل فارغاً يرتدين سترات مسربلة حمراء أو متعددة الألوان، مشدودة عند الخصر بوشاح حريري أو حزام جلدي مزين بقفل فضي

سميك. عند الكاحلين، خلخال كبير مزين بأطراف فضية أو أحجار مرجانية؛ على الرسغين ظفيرة من الأساور. يضعن عباءة من القماش الخفيف على الرأس. بحيث تحجب الوجنتين جزئياً وعلى الكتفين وتنسدل مباشرة على السترة. لتصفيقة الشعر طابع خاص. على رؤوسهن ترتفع أكاليل من الحرير المرصع بالذهب. تظهر من الأكاليل صفيتان كثيفتان ملفوفتان وتتدلى من الأذان حلقات كبيرة.

الرقصات

رقصاتهن ساحرة. إنني أحاول وصفهن ولن أتمكن من فهم أسرارهن المقدسة ولا منيع جرأتهن الوحشية.



الراقصات

واحدة تلو الأخرى بخطوات حثيثة ومشية عتيقة وصلت النايليات وكأنهن راهبات



1

55

إن الرقص في البلدان المتحضرة ليس سوى مدعاه للمغازلة.
وذلك من خلال الانزلاق على أرضية الصالونات ويكتفي الشخص بالغازلة
وقول التفاهات، يعتمد الرقص الأكاديمي في المسرح على الموسيقى ويتجنب
كل ما هو غير متوقع. فتتحرك الأرجل هناك فقط بينما يبقى الجزء ثابتا
بلا حراك تقرباً وعلى الوجه ابتسامة تقليدية.

في إسبانيا فقط يشتغل الجسم كله واليدان والذراعان والجزع
والساقان في تأدية الرقصات لإثارة الاستفزاز العاطفي والإغراءات الأنوثية
والعواطف المجنونة حتى إن إسبانيا استعانت الكثير من إيقاعاتها ورقصاتها
من العرب.

¹ الصورة صفحة من نوطة موسيقية تحمل عنوان "Danses des Naïla" ، وتحتوي على تدوينات موسيقية ورسمة لشخص يعزف على آلة موسيقية، الموسيقى مقسمة إلى أقسام تحمل تسميات "Animé" ، "Très vif" ، "Rapide" ، "Tranquille" ، والتي من المحتمل أنها تشير إلى تيمبوفهات أو أنماط مختلفة للمقطوعات الراقصة.

لكن في هذه المنطقة من الجنوب فقط تنفرد نساء أولاد نايل بالتفاعل مع الموسيقى المناسبة. الأحرى أن يقال إن هذه الرقصات تتكرر بنفس المشهد دائمًا. حيث تصل الراقصة بوتيرة بطيئة، ووجهها نصف مغطى، ثم تستسلم لتأثير الحب الذي يجذبها وتفقد قدرتها على المشي ثم تنزلق شيئاً فشيئاً. ومع تسارع الإيقاع ينحني جسمها المرن ويستقيم في تموجات، فيبدأ مفعول السحر ويمتلكها الحب، تهتز بسلامة تبعها حركات البطن. تكون الرقصة في بعض الأحيان أكثر تواضعاً فتجيء امرأتان وتذهبان في مشية زلقة وخفيفة تخللهما تأرجحات للذراعين وثني لليدين؛ ثم تستمران في التقدم جنباً إلى جنب حتى تتحد أيديهن في اتزان وتناسق معدل ولطيف، تظل أذرعهن طليقة.

مباركة

جلست في إحدى الزوايا فتاة صغيرة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، متأملة بصمت ولم تلقي نظرة حتى. كأنها حديثة في حياة تبحث عن الحب، لم يكن لديها الوقت بعد أو القدرة لشراء الأساور والأحزمة وقلادات الأذن وأوشحة الرأس. بدت بائسة ومنهارة بسبب الوحدة. ربت على كتفها رجل وسألها "أتريدin الرقص؟" فأجبت "نعم"، ثم ذهبت لتقف في نهاية الغرفة تحت ضوء القنديل الباهت. أخذت الموسيقى إيقاعاً نائحاً، وبدأت الفتاة بالرقص. انزلقت قدماها على الأرض بهزات خفيفة لم تتأثر لها مناطق جسدها، تمايلت ذراعها كأنها جناحاً طائر مصاب. ثنت الفتاة رأسها غير مبالية بالحضور، وفجأة تملكتها إحساس بالفن نتيجة للتناغم والتكامل. ثم اكتشفنا كم كانت جميلة، جمال نقي وهادئ. لقد تفاجأنا لجمالها حقاً، وعلى الرغم من وضاعة الزي ودناءة الهندام، كان الثوب الصوفي الأحمر الصغير ملكياً باللون الأرجواني بالإضافة إلى الأشياء الخفيفة المثبتة على الكتفين جعلت منها شخصية هادئة، بفضل حركاتها المفعمة بالحياة وتحول القماش إلى نسيج من أجنة العيسوب. بدت عيونها التائمة وكأنها تروي لنا رؤى غامضة.

فمن أين أتت مباركة الصغيرة هذه والمتصورة كأميرة؟ أمن قصر
أم من أرض الأحلام؟... أم من الجبال البعيدة التي تشوّهها الشمس في غروبها
بالدم والذهب والألوان الداكنة؟ كانت مباركة لا تزال ترقص، ثم توقفت
عند نبرة حزينة تنم عن الألم لها صرخة تشنج كأنها تودع في احتضار. ارتمت
عايدة إلى جمودها ولا مبالاتها واختفى سحرها فجأة.





مباركة

كانت مباركة لا تزال ترقص، ثم توافت عند نبرة حزينة تنم عن الألم لها
صرخة تشنج كأنها تودع في احتضار

1

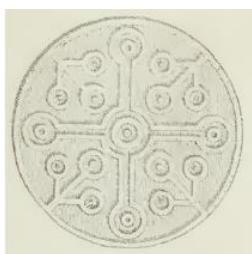


2

¹ الفتاة الصغيرة مباركة تبدو متأملة وبائسة في البداية كما وصفها المؤلف، ولكنها تحول إلى حالة من التعبير الفني أثناء الرقص، مما يعكس جمالها الداخلي وتناقضه مع حالتها النفسية الظاهرة. كما أن التجمع الكبير للحضور حول الفتاة والموسيقيين يشير إلى أن مثل هذه الأحداث هي جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية،

² الصورة هي لفتاة التي ذكرها المؤلف واسمها مباركة، تبدو الفتاة صغيرة في السن وترتدي ملابس تقليدية. مزينة بنقوش وزخارف مصنوعة من قماش فاخر.

كان العرب على مقاعد الأرض الصلبة يراقبون بلا حراك. نهض يهودي صغير تبدو عليه علامات التحضر وكأنه من الأعيان، أخرج من محفظته ورقة مالية وقدمها بسخاء للموسيقيين. أذهلنا هذا المشهد لكن أحد السكان قال لنا: "لا تقلقا، إنها خدعة لإثارة الأجانب؛ سمعوا عنه كل شيء عن رأس المال والفائدة¹!". أما في الوسط فقد كان الجنود السكارى يمرّون بوقاحة وينفثون دخان التبغ والكلمات البذيئة². دخل السوقون وعلّمهم قبعبات من جلد مدبوغ وينتعلون جزمات صفراء تبدو منها سراويلهم الوريرة، يلقون نظرة خاطفة. ومن لحظة إلى أخرى، تختفي الفتيايات إلى مخابئهن المظلمة ويعدن للجلوس لأن شيئاً لم يكن.



¹ هذا يعني أن اليهود هم من كانوا قائمين على هذا النوع من الاحتفالات، ويجنون من خلالها أرباحاً كبيرة.

² ينعكس هنا استياء شارل دي غالاد من سلوك الجنود، التعبير عن "الوقاحة" و"الكلمات البذيئة" يهدف إلى إظهار مدى تدني أخلاقهم في تلك اللحظة، مما يساهم في خلق صورة أحدية الجانب تُظهرهم كمجموعة غير مرغوب فيها.

Chapitre VIII

EL-HAMEL

Les confréries religieuses

Avant de raconter notre excursion à la zaouïa d'El-Hamel, il paraît utile de donner au lecteur quelques renseignements sur les confréries musulmanes et les zaouïas. J'ai consulté avec fruit deux ouvrages, intéressants, luxueusement édités par notre sympathique ami Adolphe Jourdan, à Alger: "religieuses,"* par Octave Depont et Xavier Coppolani, grand in-quarto avec illustrations; "Marabouts et Khouan," étude sur l'Islam en Algérie, par Louis Rinn. Je renvoie le lecteur à ces deux ouvrages bien documentés que l'on ne saurait trop consulter pour connaître l'état d'âme du peuple qui vit parallèlement à nous et (pie nous ignorons trop.

Ce qui suit n'est qu'un exposé succinct que je ferai aussi clair que possible.

Mohammed, le prophète, avant de mourir, avait légué la garde du "Livre Sacré," du Coran, aux grands khalifes, héritiers de son prestige et de sa mission. Ils avaient le devoir d'enseigner et de propager la parole sainte, de commenter la loi coranique, de grouper et d'édifier les fidèles à la fois par l'exemple et l'enseignement. Ils demeurèrent peu de temps fidèles à leur mission et à leur sacerdoce.

Bientôt, ambitieux et avides de domination, abusant de leur influence pour accroître leurs biens temporels et étendre leur autorité, ils négligèrent les fonctions religieuses et sacerdotales dont ils avaient été investis et confieront à des subalternes lettres, à des "eulama," le soin de faire des prosélytes, d'expliquer et d'appliquer la loi coranique.

Ces collaborateurs en sous-ordre montrèrent, comme toujours, au début, une science réelle et un zèle désintéressé!

Cependant à leur tour, ces pasteurs d'âmes, ces maîtres des esprits, ne tardèrent pas à acquérir un prestige redoutable, et les qualités qu'ils possédaient s'altérèrent à mesure que leur influence grandissait. Ils devinrent jaloux de leur autorité, tyranniques dans leurs prétentions et âpres au gain. Riches et superbes, ils s'éloignaient de plus en plus des pauvres, des misérables, de la foule qui prie et qui souffre.

Cependant la foi demeurait ardente et vivace en ce peuple qui se rallia vite autour de ceux qui, dans l'ombre et la solitude, se préparaient à leur rôle de prédicants choisis par Dieu.

Les fokra entrèrent en scène. Par la pauvreté (en arabe "el fokr"), par le renoncement aux biens de ce monde, par la prière et la contemplation, ils prétendaient se rapprocher de Dieu. Propagateurs de doctrines nées dans l'Inde et adaptées à l'Islamisme, ils faisaient des prosélytes.

Au fakir, qui existe encore dans les Indes, succéda en pays musulman le " soufi," qui, également, prêcha la pauvreté, le mépris des richesses et le des intérêssements. Le mot " soufi " vient-il du mot arabe "souf" laine et signifie-t-il "porteur de laine et pauvre," ou est-il dérivé du grec " sophos " (sage et pur) ? C'est ce que j'ignore. Je me bornerai à donner une idée de leurs théories religieuses. C'est une sorte de mysticisme simpliste, d'une compréhension facile et qui, de prime saut, devait séduire leurs adeptes.

L'initiation au soufisme se faisait par " l'ouerd "; c'est la lueur divine qui pénètre dans l'âme du fidèle, la déterge de ses impuretés, et lui permet d'entrevoir les sphères célestes, le monde invisible.

C'est par la pauvreté qu'il est permis de s'élever peu à peu, ainsi que le marque Abou Hafs : " Sachez que les voies qui conduisent à Dieu sont plus nombreuses que les étoiles du firmament, mais "la plus sûre de ces voies est celle de la pauvreté." Dégagé des liens terrestres, affranchi de la basse cupidité, l'homme est prêt pour la prière qui l'élèvera vers Dieu ; car tout émane de Dieu pour rentrer en lui. Dieu est l'Unité d'où irradiient toutes les forces, tout ce qui vit, tout ce qui existe. Donc s'absorber en Dieu, par la prière, c'est aboutir à la sagesse suprême, au bonheur parfait. On comprend l'importance de la prière, du " dikr " dans le soufisme.

" Ô croyants, prononcez le nom de Dieu le plus souvent possible et célébrez-le, le matin et le soir. "O fils d'Adam, quand tu proclames mon nom, tu me loues; quand tu ne le prononces pas, tu es impie " à mon égard. . ." Voilà la prescription à laquelle le soufi doit se soumettre.

Il y a toute une série de litanies, depuis la prière du néophyte jusqu'au "dikr" du passionné, du mystique, qui, dans son appel extatique, oublie le monde extérieur, sa personnalité et son nom, pour aboutir à la " tarika." La " tarika " est la voie qui conduit directement à Dieu.

C'est alors seulement que Dieu choisit ses " ouali," ses fidèles et leur transmet la "baraka," une portion de la flamme divine, de l'étincelle sacrée.

Et les ouali, les élus de Dieu, les détenteurs de la vérité, les porteurs de la " baraka," les semeurs de la bonne parole, virent surgir autour d'eux les khouan ou frères, pareils à des moissons drues et fortes.

Les soufis avaient à leur tête des hommes qui devaient leur autorité et leur prestige à leur savoir et à leur vertu : c'étaient le chérif, le cheikh ou le marabout. Autour de ces chioukh, se formèrent, sur toute l'étendue du pays de l'Islam, aussi bien dans le Dar el Islam que dans le Dar el Harb (le pays des infidèles), des confréries et des zaouïas qui différaient entre elles, sinon par le fond, du moins par la forme de la doctrine et les habitudes du pays.

C'est en vain que les eulama s'interposèrent et combattirent le soufisme, qui se propageait avec rapidité. La " Fetoua," la déclaration d'interdit, en dépit de son caractère sacré, n'eut aucun effet.

En Algérie, les eulama, cadi ou imran, ne sont plus que des fonctionnaires d'ordre religieux ou judiciaire qui relèvent du gouvernement et n'ont, en dehors de leurs attributions délimitées, aucune action politique.

Mais les confréries et les zaouïas existent toujours et quelques-unes d'entre elles ont été, à des époques troublées, des centres d'agitation, des foyers de fanatisme et d'opposition qui ont ému l'autorité française.

Leur organisation, leur revenus, leur influence

A côté du cheikh est placé le khalifa, son lieutenant et son coadjuteur. Il est aidé, en outre, dans sa mission, par un mokaddem, homme actif et d'esprit alerte. Le mokaddem est chargé de, transmettre aux khouan les instructions du cheikh par l'intermédiaire des " rokkab " ou chaouch. Et, enfin, le personnel enseignant est placé sous la direction du cheikh ou marabout, du possesseur. De la " baraka." De loin, de l'ouest et de l'est, du Maghreb et de la Tunisie arrivent les élevés, attirés par la science et la notoriété du maître.

Sur tout le territoire algérien, on compte 23 confréries qui ont de nombreuses ramifications, 355 zaouïas, 22 chioukh ou marabout, 1955 mokaddim, 849 chaouchs, et d'après les statistiques les plus récentes, 168,974 khouan.

Les revenus des zaouïas proviennent presque uniquement de la charité des fidèles. "" croyants ! faites "l'aumône de vos biens les plus précieux, des fruits que nous avons fait sortir de la terre." . . . (Coran. chap. ix.) Mais ce qui contribua le plus à développer la prospérité de la zaouïa, ce fut le " hobous," donation d'usufruit faite à perpétuité au profit des pauvres ou de fondations religieuses. En 1830, à l'époque de la conquête, le domaine du hobous consistant en biens meubles et immeubles pouvait être évalué à plus de 9 millions. Il est vrai que les biens hobous furent, en grande partie, réunis au domaine.

Les autres sources de revenu sont la " sadaka," prélèvement fait par le khouan sur le produit d'une vente ou sur ses économies en numéraire ; la "ziara," offrande volontaire du visiteur ; les payements effectués par les néophytes qui reçoivent un diplôme ; et enfin les contributions en nature appelées "touïza" ou corvées de labour. L'ensemble de ces différents revenus représente approximativement, pour toutes les zaouïas, une somme de 7,500,000 francs, la moitié du rendement des impôts arabes qui, en [895, s'élèverent à 16,187,092 francs.

La Zaouïa

L'oukil a la gestion et l'administration des biens de. C'est le gardien du tombeau du la zaouïa. Marabout. Comme son influence est grande et son action efficace, il peut hériter de la "baraka."

D'après MM. Depont et Coppolani, le mot zaouïa. Pris au sens propre, signifie angle, coin et, par extension, cellule d'un reclus, monastère, hospice. C'est le lieu où les tolba enseignent, où l'on récite le "dikr," où sont soignés les malades, où, à certaines époques de l'année, on distribue aux pauvres du couscouss et du blé.

Les Rahmanïa

La zaouïa d'El-Hamel est assurément une des plus importantes de l'Algérie. Elle se rattache à la confrérie des Rahmanïa dont ses adeptes sont très nombreux et dont l'histoire nous est le plus connue, d'après le commandant Rinn. Le fondateur de l'ordre fut Mahmed ben Abd-er-Rahma'n bou Kobriñ qui avait délégué dans l'est son khalifa Si Mostfa que remplaça plus tard Si Mohammed ben Azzouz, originaire d'El-Bordj dans Us Ziban.

A la prise de Biskra, en 1843, Si Mohammed ben Azzouz abandonna El-Bordj et se retira à Nefta, en Tunisie, où il fonda une zaouïa; mais, avant son départ de l'Algérie, il avait laissé cinq grands mokaddim. Héritiers de son autorité. De là six groupes importants se rattachant tous à la confrérie des Rahmanïa, dont la morale et les doctrines découlent îles "Présents dominicaux".

"Agis toujours avec désintéressement. . . . Ne cherche pas à être vu des hommes, "cache-toi d'eux et ne soit vu que de Dieu. . . . Que tes actes ne soient inspirés ni par la "crainte des châtiments ni par l'ambition d'obtenir des récompenses. . . . Détache-toi des biens " de ce monde : n'en prends que ce qu'il faut pour couvrir ta nudité, abriter ton corps et apaiser " ta faim. . . . Ne rends pas le mal qu'on te fait. . . Il faut se remettre entièrement " entre les mains de Dieu et le louer. . . . Pense à la mort, cette pensée est la base du " renoncement. . . ."

Il suffit de citer ces extraits des ouvrages de Si Mahmed ben Abd-er-Rahman bou Kobri'n, pour avoir une idée de l'élévation de la morale des Rahmanïa.

Le "dikr" particulier de cette confrérie, en faveur encore à la zaouïa d'El-Hamel, consiste: **1-** à répéter le plus souvent que l'on peut "durant les instants de la nuit et les moments du jour" depuis l'aéeur du vendredi jusqu'à l'aéeur du jeudi, c'est-à-dire pendant six jours : "Il n'y a pas d'autre divinité qu'Allah." . . .

2- A répéter 80 fois au moins, de l'aéeur du jeudi à l'aéeur du vendredi, étant en état de pureté légale, la prière Chadoulite qui se dit ainsi : "mon Dieu, répandez vos grâces sur notre Seigneur Mohammed, sur sa famille et sur ses compagnons, et sur lui le salut!"

Il est aisé de s'affilier à cette congrégation, dont on rencontre des mokaddim sur presque tous les points de l'Algérie situés à l'est du méridien d'Alger.

L'affiliation se fait sous deux formes solennelles: "el Ahd" et "el Talkin."

Le cheikh place la paume de sa main droite sur celle du "mourid" (néophyte) en lui tenant le pouce et prononce les paroles suivantes que répète le mourid :

"J'implore le secours de Dieu.

"Je demande pardon à Dieu et à son apôtre.

"Ô mon Dieu, pardonne-nous ce qui est écoulé, et rends-nous facile ce qui nous reste de vie.

Puis le Cheikh seul récite ces passages du Coran :

"Ô vous qui croyez, revenez à Dieu avec un repentir sincère, et Dieu vous pardonnera vos " mauvaises actions "... et les surates relatives au serment, à la foi en Dieu, à la vérité et à la vertu, et termine par cette oraison :

"O mon Dieu, éclairez le mourid! Gardez-le! Acceptez ses œuvres! Ouvrez-lui la porte de tout " bien comme vous l'avez ouverte à vos prophètes et à vos saints !"

La seconde initiation "talkin" consiste en des prières que le mourid écoute les yeux fermés, après avoir répété trois fois: " Je t'écoute ! " Si le khouan est un taleb désireux de s'instruire, le cheikh lui révèle les sept noms secrets de Dieu : Allah, l'unité ; Houa, celui qui est ; Hack, la vérité ; Hai, le vivant ; Kaïoum, l'éternel ; Alem, le savant ; Kahar, le dompteur.

L'ordre des Rahmania comprend un grand nombre de femmes appelées " khouatat," soeurs qui ont des " mokaddem " (supérieures) partout où elles ont pu constituer un groupe important.

Cette constitution économique et religieuse, ces rites, ces règles appliquées à la vie commune, cette hiérarchie qui va du cheikh à l'oukil en passant par le khalifa et le mokaddem, sont en vigueur dans la zaouïa d'El-Hamel, un des centres les plus importants des Rahmania.

La zaouïa d'El-Hamel. Histoire et influence du Marabout Mohammed Ben Belkacem

El-Hamel est en effet comme le tronc d'où s'épandent, en frondaisons assez touffues, les khouan de Cheurfat-el-Hamel (350 adeptes), de Djebel oum Saad (300), à l'est; des oulad Ahmed (350), des oulad Mahmed-el-Embarek (140), des oulad Amara (30), au sud ; des oulad Ali ben Mahmed (200), des oulad Khaled (450), des oulad Sidi Zian (280), à l'ouest; des oulad R'rib (60), des oulad Ameur Guebala (70), de Bou-Saâda (500), de Roumana (100), au nord ; pour ne citer que les groupes directement reliés à notre zaouïa.

Le cheikh El Moktar ben Khalifa, un des cinq Mokaddim de Si Mohammed ben Azzouz, était parvenu à créer une zaouïa très prospère chez les oulad Djellal du cercle de Biskra.

Il avait pour mokaddem Mohammed ben Belkacem, homme remarquable par son intelligence, l'étendue de son savoir, ses vertus, et sa constance dans l'effort. Celui-ci, après avoir reçu les premiers éléments de la science coranique chez le cheikh Bou Daoud, savant fameux du cercle d'Akbou, était allé compléter ses études auprès de Si Moktar, chez les oulad Djellal, où il ne tarda pas à avoir toute la confiance et l'estime de son maître.

Si Moktar mourut au mois d'octobre 1862, en laissant six enfants en bas âge. Avant sa mort, il avait légué son héritage spirituel à son fidèle mokaddem qui ne tarda pas à donner à la congrégation une grande prospérité.

Mais Mohammed ben Belkacem, désireux d'ouvrir à son infatigable activité et à son esprit d'initiative un champ plus vaste, s'éloigna des oulad Djellal et revint dans son village, fondé, dit la légende, par un de ses ancêtres Sidi Abd-er-Rahman ben Aïoub.

Voici l'histoire de cette fondation telle qu'elle me fut contée par le neveu lui-même du vénéré marabout, par Si Mohammed ben Hadj M'hamed Belkacem, le cheikh actuel d'El-Hamel.

Si Abd-er-Rahman ben Aioub, à la tête d'une troupe de " Hameli " (errants) Maghrébins, s'arrêta au VIII siècle de l'hégire, sur les bords d'un oued où tous les conviait à la halte et au repos, la fraîcheur du lieu, la limpidité des sources, l'ombre des arbres et le calme de la nature.

Le chef planta dans le sol une branche de mûrier qu'il tenait à la main, fit ses ablutions et adressa ses prières à Dieu. Puis, au moment où il se disposait à donner à ses compagnons de route le signal du départ, il s'aperçut que des feuilles naissantes couvrait son bâton. La volonté divine se manifestait d'une façon trop évidente pour hésiter: les Hameli se fixèrent enfin et fondèrent un village auquel ils donnèrent leur nom " El-Hamel."

Mohammed ben Belkacem, le descendant du fondateur de cette localité déjà sanctifiée par un premier miracle, ne pouvait mieux choisir pour créer une zaouïa.

C'était vraiment le lieu du recueillement et de la prière. Vers la zaouïa édifiée sur la colline, dans une atmosphère de pieté, accoururent les élèves et les tolba. La réputation de Mohammed ben Belkacem allait grandissant. Ses vertus, sa bienfaisance étaient proclamées parmi les fidèles; et on vantait à l'envi sa science transmise aux adeptes, son appui donne aux faibles, ses aumônes prodiguées aux pauvres. Dans sa zaouïa se pressaient 400 néophytes auxquels des tolba enseignaient le Coran, la grammaire, l'astronomie, l'arithmétique et la théologie. Au dehors, des mokaddim zélés répandaient ses doctrines, faisaient des prosélytes, fondaient des zaouïas, si bien (pie, quelque temps avant sa mort, ses collaborateurs, au nombre de 164, étaient parvenus à créer 29 zaouïa où 168 tolba instruisaient 2.091 élèves, et enfin à rallier 43,000 khouan.

On peut dire que ce grand marabout avait le génie de l'organisation. Son esprit, jamais lassé, passait des plus liantes spéculations à tous les détails des travaux matériels. Désireux de mettre à profit la fertilité- des rives de l'oued et l'abondance de ses eaux, il fit construire des canaux d'irrigation, cultiver et fumer les terres riveraines. C'est ainsi qu'il créa de beaux jardins, planta des palmiers et, dans cette nature aride, sur ce sol ingrat, donna aux habitants de la retraite sacrée de l'ombre et de la fraîcheur.

Puis, le 2 juin 1897, il s'endormit dans la paix du Seigneur, laissant après lui Si Mohammed ben Hadj M'hamed, son neveu et son successeur spirituel, et une fille, Lella Zineb, qui semble avoir hérité de toutes ses vertus.

Le 16 juillet 1897, une cérémonie religieuse eut lieu dans la mosquée des Mouamin à Bou-Saâda, pour honorer la mémoire du marabout d'El-Hamel. Au milieu des officiers et des tolba, M. le chef de bataillon Crochard, commandant supérieur du cercle militaire de Bou-Saâda, fit l'éloge du défunt :

" Sidi Mohammed ben Belkacem s'était rallié franchement, loyalement, sans arrière-pensée, à la cause "française, détruisant par sa lumineuse logique les projets de ceux qui nous étaient hostiles, nous "aidant de toutes les forces de sa volonté dans une oeuvre de civilisation que son intelligence avait "comprise, luttant même pour la faire triompher, au risque de se compromettre dans l'esprit de " beaucoup de gens, et de porter atteinte à son prestige. . . ."

Apres le commandant, le neveu du cheikh et Ibrahim Rahmani Mohammed ben Ahmed ben Salah, cadi de Bou-Saâda, prirent la parole pour honorer la mémoire du mort et rappeler l'oeuvre accomplie chez les oulad Djellal et à la zaouïa d'El-Hamel.

De BOU-SAÂDA à EL HAMEL

C'est vers cette zaouïa célèbre, située à 15 kilomètres au sud-ouest de Bou-Saâda, que se dirigea notre petite caravane le mercredi 29 décembre 1897.

Le fils de Mokrani

Le pays que nous traversons, en suivant des sentiers à peine indiqués, est relativement aride. Le sol s'élève en gibbosités successives pour s'infléchir en pentes douces jusqu'au pied du massif montagneux où s'élève la zaouïa. Nous suivions une route presque parallèle aux sinuosités de l'oued. Après une heure et demie de marche, on aperçut les premiers contreforts des monts tachetés de bouquets de thuya, ouatés de vapeurs, d'où s'élevaient lentement des panaches de fumée bleuâtre, indices de quelques habitations éparses.

Autour de nous caracolaient sur leurs chevaux quelques cavaliers du bureau arabe, et un jeune indigène de fin profil et d'aristocratique allure. C'était le fils de Mokrani dont la superbe audace et la mort héroïque excusèrent, dans une certaine limite, la révolte et l'oubli de ses devoirs.

Je considérais ce cavalier en lequel semble revivre le père dont le portrait fut si bien tracé par Hugues Le Roux, dans le "Maître de l'heure": "D'une taille moyenne, Mokrani paraissait grand, "étant svelte et d'une maigreur persistante de cavalier. Les chevauchées au soleil n'avaient que " légèrement doré sa carnation de Berbère blond. Ses mains longues et fines, des mains de Targui " attiraient les regards. ... Il y avait en lui la suprême distinction de la race jointe à une beauté "virile. ..." Et je songeais, non sans quelque tristesse, au sombre drame de 1871. Mokrani, sans doute fut la victime et le jouet de ses rêves ambitieux; il céda à l'orgueil et au désir d'assouvir ses rancunes; mais il fut l'ennemi chevaleresque, et offrit bravement son front aux balles de nos soldats.

Sa haine pour ses cousins les Abdesselam, auxquels le gouvernement français avait donné son appui, le prestige sans cesse grandissant du chef de khouan le cheikh El Haddad qui lui portait ombrage, la diminution de son autorité, sa fortune entamée, la présence d'un gouverneur civil, furent autant de causes ou de prétextes qui le déterminèrent à lever l'étandard de la révolte et à déclarer la guerre à la France.

Le 9 mars 1871, il écrivit au général Lallemand : "Puisque la France a maintenant retrouvé la " paix, moi je reprends ma liberté. Le gouvernement continuant à rester aux mains des civils, je vous " renouvelle, pour la troisième fois, ma démission de bach-agha. ... Je vous avais dit que jamais "je ne combattrais la France étant à son service. Je tiens parole."

Le 16 mars, il renouvela sa déclaration dans une lettre adressée au général Augeraud : " Si j'ai " continué à servir la France, c'est parce qu'elle était en lutte avec la Prusse et que je n'ai pas voulu " augmenter les difficultés de la guerre . . . Mais aujourd'hui la paix est faite et je reprends ma "liberté. . . Je ne serai jamais l'agent du gouvernement civil qui m'accuse, et déjà désigne mon " successeur. Ces gens-là affirment que je suis insurge. Je n'échangerai donc avec eux que des coups " de fusil. Tenez-vous sur vos gardes, car je m'apprête à combattre ! . . . Adieu !

Il fit comme il l'avait dit. Il donna le signal de la révolte, et autour de lui, vinrent se ranger et les cavaliers des goums et les khouan d'El Haddad, khouan et djouad séparés par la rivalité, réunis ensuite dans un même sentiment de haine contre l'ennemi.

Ils combattirent, mais en vain. Que pouvaient-ils contre les forces combinées des généraux Saussier et Céres ? Le bach-agha Mokrani fut tue le 5 mai 1871. Au combat de l'oued Soufflât. Tandis que, du haut du mamelon d'El-Mesdour, il observait les mouvements de nos troupes, il tomba frappé d'une balle en plein front. Quelques serviteurs fidèles transportèrent son corps jusqu'à la Kalâa des bénî Abbas, véritable nid d'aigle qui s'érite superbe en face des cimes empanachées de brumes du Babor et du Bou Endas. J'ai gravi les pentes abruptes des bénî Abbas, j'ai pénétré dans la Kalâa et me suis arrêté devant l'humble sépulture de Mokrani. Une pierre tumulaire sans inscription, un arbre au feuillage grêle, des ossements, un peu de poussière, c'est tout ce qui reste de cette vaste ambition.

En voyant le descendant du héros éphémère se lancer devant nous, droit sur la selle de tilali rehausse d'or, dans une apothéose la lumière, je me rappelais les brillantes fantasias données par son père dans la plaine de la Medjana.

Je lui parlai de Mokrani, de la Kalâa des bénî Abbas; et de ses lèvres tombèrent ces mots: "Je regrette ce qu'a fait mon père !

Le fils du noble seigneur fut élevé par le cheikh Mohammed ben Belkacem, dans la zaouïa vers laquelle nous nous dirigions. Un groupe de cavaliers, qui déjà avaient mis pied à terre, nous attendait sur le bord du chemin. C'était le marabout qui se rendait au-devant de ses hôtes. Si Mohammed ben Hadj M'hamed, le nouveau cheikh, a le front haut, le nez proéminent les yeux clairs et doux et l'abord cordial.

En vue de la Zaouïa. La réception. Le tombeau du Marabout

Ses compagnons et lui se joignirent à nous et notre petite troupe arriva sur le territoire de la zaouïa. Un chemin bien établi, un pont en solide maçonnerie, construit sur un oued, des canaux d'irrigation, des jardins verdoyants, travaux exécutés par le grand cheikh, témoignent déjà d'une activité et d'une industrie rares en pays arabe. L'une descente rapide dans un ravin, une ascension suivant une pente raide, et nous voici en vue de la zaouïa telle que la représente notre dessin.

Sur le monticule qui domine un cimetière la zaouïa s'élève: forteresse ou cloître. Entre l'édifice et le village qui s'incline mis l'oued, sur une longue terrasse, se tenaient de nombreux Arabes, élèves, mourid et khouan. Fantômes dans leurs blancs burnous. Sans un cri, sans un mouvement, ils attendaient. Sous une lumière calme, en un coloris où s'harmonisaient les tons jaunes du sol, les nuances crises des murailles, le bleu très pale du ciel et les apparences de blancheur des burnous, on eût dit que la vie était suspendue. Pourquoi vint-on troubler ce grand silence par deux ou trois coups de fusil et les sons criards d'une clarinette enrhumée ?



EL HAMEL.

Sur le monticule qui domine un cimetière la zaouïa s'élève.
Forteresse ou cloître.

Le marabout, ses frères qui sont tolba, les professeurs et les élevés de la zaouïa nous reçurent et nous offrirent une généreuse hospitalité en une salle entièrement couverte et tendue de tapis à longue laine. Ce fut encore la série des plats qui composent la diffa, sans oublier la " kefta," mélange de farine d'amidon, de miel, de sucre et d'amandes pilées.

Apres un arrêt dans la bibliothèque, où le savant marabout nous montra ses plus beaux manuscrits, des exemplaires du Coran, nous fûmes conduits devant le tombeau du cheikh Mohammed ben Belkacem, dont la physionomie est encore présente à l'esprit de tous ses fidèles.

J'évoque l'image de cet homme tel qu'il était de son vivant: assis sur un siège bas, enveloppé de ses amples vêtements, soutenant légèrement sa tête de la main gauche, égrenant son chapelet de la main droite, le front puissant, les sourcils épais coupés par deux lignes profondes et courtes, indices de sa persévérence, l'œil scrutateur, le nez fort mais de lignes très pures, un visage imposant encadré par une barbe de neige, les mains un peu molles mais fines ; bref, un ensemble de noblesse, de dignité et de fermeté qui imposait à la foule.

Devant cette sépulture nous nous découvrîmes émus par l'évocation de cette belle figure et le souvenir d'une existence bien remplie.

En sortant du lieu saint, nous nous trouvâmes sur une petite place, au pied de murs élevés en face d'un portail. Derrière non-; se pressait la foule îles fidèles et des khouan, toujours immobiles et silencieux.

Lella ZINEB

Soudain cette porte s'ouvrit à deux battants, et, sur le seuil, une blanche apparition s'offrit à nos regards. Nous eûmes, en même temps, la perception faible et rapide d'une rumeur, d'un frémissement venant de la foule amassée : puis ce fut un silence absolu. C'était la fille du cheikh défunt, Lella Zineb, qui nous faisait le rare et insigne honneur de se présenter devant nous et de nous recevoir.

Dans ses vêtements flottants, d'une éclatante blancbeur, la marabouta se montra à nous. Au pied de ces murs de monastère, dans le recueillement de la nature, au milieu de son peuple, elle tenait à la fois de la reine, de la religieuse, de la sainte mystique, de l'abbesse du moyen âge. Je m'approchai d'elle et lui baisai la main.

"Soyez les bienvenus, nous dit-elle, dans la paix du Seigneur!"

Et on se sentait vraiment dans une atmosphère d'apaisement. Le silence est à Dieu et le bruit aux hommes.

Elle nous fit signe de la main et nous précéda dans ses appartements où une collation avait été préparée. Je lui dis alors que le meilleur moyen de reconnaître cet accueil et de lui marquer notre gratitude, c'était de conserver en notre esprit et en notre cœur la mémoire des vertus de son père.

En parlant, je pus à loisir examiner l'expression de sa physionomie et les traits de son visage; les yeux sont particulièrement beaux. Ce sont les yeux presque extatiques de l'être abîmé dans une idée unique, absorbé dans une rêverie sans fin . . . quelquefois un éclair, une interrogation muette . . . puis rien.

Ce regard si impressionnant se voilà de larmes lorsque je rappelai le souvenir du cheikh mort sept mois auparavant, et je surpris la manifestation d'une vive sensibilité refoulée dans l'être intime.

Lorsque nous redescendîmes sur la petite place, toujours précédés par Lella Zineb, un remous se fit dans la foule qui attendait, et les fidèles vinrent baisser, en s'inclinant, le bas des vêtements de la marabouta.

Je sentis alors que l'âme du cheikh revivait en elle, que le prestige du père était passé à la fille et que la blanche apparition, baignée de lumière, devenait de plus en plus le symbole d'une foi qui s'avive dans la solitude, qui s'épure dans le recueillement et le silence.

Après un arrêt dans la salle des prières et devant la large dalle, où Mohammed ben Belkacem avait l'habitude de s'asseoir pour donner ses audiences, nous prîmes congé de Lella Zineb et du Marabout.

La petite caravane s'engagea sur le chemin de Bou-Saâda, le long de l'oued bordé de lauriers-roses. Au détour du sentier, je jetai un dernier coup d'oeil sur El-Hamel dont les lignes s'estompaient sous les brumes du soir. Sur nos têtes, quelques étoiles piquaient déjà de diamants la voûte du ciel.

لِلَّهَ الْمُبْرَكُ بِنْ مُحَمَّدٍ زَيْنَ الدِّينِ

**EL-HAMEL—Autographe de Lella Zineb. Fille du cheikh
Mohammed ben Belkacem.**

الفصل الثامن

الهامل^١

^١ يطلق مصطلح الهامل في العامية الجزائرية بمعنى الضال، الذي ظل الطريق في سيره أو الذي يبحث على من يرشده في دينه، وقد يكون المعنى الثاني الأقرب للصواب، ذلك أن أول مسجد أسس بها هو مسجد التوتة في القرن السادس الهجري وقد جعل هذا المسجد لهداية الناس بالوعظ والإرشاد، ينظر: دبوز (محمد علي): *نهضة الجائز الحديثة وثورتها المباركة*، المطبعة التعاونية، دمشق، 1965، ج 1، ص 63.

كما قد يكون أصل التسمية يتعلق بالطبيعة التضاريسية لمنطقة كونها تقع في منطقة بعيدة مخفية ومهملة بين الجبال، إلا أن "ابن بكار" في كتابه "مجموع الحسب والنسب" ذكر أن أصل التسمية يرجع إلى الشيخ "محمد بن أبي القاسم" مؤسس الزاوية، وأن تسمية الهامل كانت للزاوية قبل البلدة وذلك في قوله: "أسس الغوث الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم تلك الزاوية وسمىها زاوية الهامل قبل تسمية تلك البلد بالهامل". ينظر: بن بكار (الهاشمي): *مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب*، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961، ص 157.

الطرق الدينية

قبل أن أسرد رحلتنا إلى زاوية الهمامل، يبدو لي أنه من المفيد منع القارئ بعض المعلومات عن الطرق الإسلامية والزوايا. اطلعت بشراءة على مؤلفين هامين أبدع في تحريرهما صديقنا الطيب أدولف جورдан وذلك في الجزائر العاصمة وهما "الطرق الدينية" لـ أوكتاف ديبووكزافي كوبولاني¹ حيث ألحقت به صفحات رباعية ورسومات توضيحية والمؤلف الثاني هو "المرابطون والإخوان" الذي يدرس الإسلام في الجزائر من تأليف لويس رين². أود أن أنبه القارئ إلى هذين الكتابين المؤثرين جيداً لأن قراءتهما ستنفعني المرء عن غيرهما لأجل فهم جيد لذهنية الأشخاص الذين يعيشون معنا وكذا الأشخاص الذين لا نعلمهم على حد سواء. ما يلي هو عبارة موجزة فقط

¹ يعتبر مؤلفي الضابطين الفرنسيين "ديبون" و"كوبولاني" Depont et Coppolani " حول الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر من أشهر الأبحاث الميدانية لما دونته "المكاتب العربية Bureaux arabes" بالجزائر وحصلة لمجهودات تجاوزت العشرين عاماً من مراقبة أدوار الزوايا ومتابعة أعمالها ومواقف مرديها، نشر هذا التقرير ابتداءً في المجلة الإفريقية خلال سنة 1877م، وظهر كاملاً في مجلد ضخم سنة 1897م، وتميز هذا التقرير المعرفي بالعمق في الطرح وتضمن جداول إحصائية للطرق الصوفية والزوايا وإنشارها في مختلف ربوع التراب الجزائري.

للمزيد حول هذه الدراسة راجع:

DEPONT et COPPOLANNI : *Les Confréries religieuses musulmanes*,
Alger, A. Jourdan. 1897

² قام لويس رين بتحليل دور المرابطين والطرق الصوفية في المجتمع الجزائري، كما سلط الضوء على تأثيرهم في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، إضافة إلى تاريخ وتطور هذه الحركات الصوفية، وعلاقتها بالسلطات الاستعمارية الفرنسية، وكيف أثرت على الإسلام في الجزائر من فإن هذا الكتاب يعتبر مرجعاً أساسياً لفهم دور التصوف في الجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسي. للمزيد حول هذه الدراسة راجع:

RINN Louis: *Marabouts et khouan étude sur l'islam en Algérie*, Adolphe jourdan librairie- éditeur, Alger, 1884.

سأوضحها قدر الإمكان: قبل وفاته، أوكل النبي محمد حماية "الكتاب المقدس" وهو القرآن للخلفاء الكبار، ورثته في الهيبة والمهمة. فكان واجباً عليهم تعليم الكلام المقدس ونشره، ودراسة الشريعة القرآنية، وتوحيد المؤمنين وتقويمهم عن طريق القدوة والتعليم. لقد ظلوا لوقت قصير مخلصين لرسالتهم وربانيتهم ولكن سرعان ما غلب عليهم الطمع والجشع من أجل الميمنة واستغلال النفوذ لزيادة المكاسب وبسط السلطة، فأهملوا بذلك الوظائف الدينية الربانية التي أوكلناها إليهم وعهدوا بها إلى كتاب مرؤوسين وعلماء فتحوا المجال للمرتدية لأن يفسروا الشريعة ويطبقوها.¹

وكما هو الحال دائمًا أظهر هؤلاء الوكلاء في البداية تدبراً حقيقياً وحماسة مطلقة! ومع ذلك، لم يتردد حراس النفوس هؤلاء وأسياد الأرواح في الصعود لمكانة مرموقة فاختفت محاسنهم القديمة، وتشبثوا بسلطتهم مستبددين في مطامحهم وجشعين لتحقيق مكاسب مالية وحيوية. لقد دفعهم الثراء والرقي إلى الابتعاد بأنفسهم أكثر فأكثر عن الفقراء والبائسين وال العامة التي تهجد وتتألم. دور الوعاظ المختارين من قبل الله.

¹ لقد بالغ المؤلف كثيراً في إصداره لهذا الحكم بعيد عن تخصصه ومجاله، ومن خلال حكمه هذا نستنتج نظرته السطحية، ففهم التاريخ الإسلامي بشكل عميق يتطلب دراسة شاملة لمصادر متعددة والتفرق بين الحالات الفردية والتوجهات العامة، فالخلفاء الراشدون كانوا ملتزمين بشكل كبير بحفظ ونشر القرآن الكريم وتعاليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فعملوا على جمع القرآن في مصحف واحد لضمان حفظه من الضياع أو التحرير، كما أن تعميم ما حصل خلال فترة الخلافة الأموية أو العباسية وتجاهل الأدوار الكبيرة التي قام بها العديد منهم في نشر العلوم والدين يعتبر حكماً خطيراً انزلق فيه المؤلف لدرجة أن وصفهم بأوصاف خطيرة كالطبع والجشع وهذا النقد قد يكون مبرراً في بعض الحالات، لكنه ليس عاماً على كل الخلفاء.

ومع ذلك، ظلت الشعوب مؤمنة متحمسة وحيوية وسرعان ما احتشدت حول أولئك الذين ينشطون في الظل والعزلة، لقد كان هؤلاء يستعدون لدورهم كدعاة اختيارهم الله. اقتحم الفقراء المشهد بفقرهم وترفعهم عن متع الدنيا ولجأوا للصلوة والتأمل وزعموا أنهم يتقربون من الله. نشأ دعاة هذه العقيدة في الهند وطبقت في الإسلام حيث اختاروا حياة التدين.

لا يزال ما يسمى الفقير موجودا في الهند وانتقلت الفكرة إلى البلدان الإسلامية حيث تحولت التسمية إلى "الصوفي" الذي يرغب أيضا في الفقر وازدراء الثروة وعدم المبالاة. هل كلمة "صوفي" مشتقة من كلمة صوف العربية التي تشير إلى "الفقير الذي يلبس الصوف" أم أنها مشتقة من الكلمة اليونانية "سوفوس" sophos وتعني (حكيم ونقي)؟ هذا ما لا أعرفه ولكن سأكتفي بإعطاء فكرة عن نظرياتهم الدينية. التصوف نوع من الزهد التبسيطي سهل الفهم والذي جذب في البداية الكثير من الأتباع.

تنطلق الصوفية من "الورد" إنه النور الإلهي الذي يتغلغل في نفوس المؤمنين، ويظهرها من الدنس ويطلعلها بسرعة على الأجرام السماوية والعالم الخفي. يمكنهم الفقر من التنامي شيئاً فشيئاً، كما يشير أبو حفص: "أعلم أن الطرق التي تقرب إلى الله أكثر عدداً من نجوم السماء، وأضمنها طريق الفقر". تحرر الإنسان من الروابط الدنيوية من الجحش يجعله مستعداً للصلوة التي ترفعه إلى الله، لأن كل شيء من الله وإليه. إن الله هو الكيان الذي ينير كل القوى، لذا فإن الاستسلام لله من خلال الصلاة يمنح الحكمة الفائقة والسعادة الكاملة وتلك هي أهمية الصلاة و"الذكر" عند الصوفية.

"يا أئمّا الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً"

"يا ابن آدم، عندما تنادي باسمي، تحمدني؛ عندما لا تنطقها، فأنت غير مقدس "تجاهي..." هذه هي الوصفة التي يجب على الصوفي الخضوع لها. هناك مجموعة كاملة من الابهالات بدأ من صلاة المبتدئ إلى "ذكر" الصوفي الخاشع الذي له جاذبية وهو في نشوته، فينسى العالم الخارجي ونفسه واسمه لينتهي به الأمر في رحاب "الطريقة" وهي الطريق الذي يقود مباشرة إلى الله.

عندما فقط يختار الله "أولياءه" المؤمنين وينحهم "البركة"، وهي جزء من النور الإلهي وله شرارة مقدسة. وـ"الولية" أو "الأولياء" يختارهم الله لأنهم أصحاب الحق وحاملو "البركة" يزرعون الكلمة الطيبة ويلتف حولهم الإخوان لأنهم حصاد كثيف وقوى.

كان على رأس الصوفيين رجال يستمدون سلطتهم ومكانتهم من معرفتهم وفضيلتهم. يسعى زعييمهم الشريف أو الشیخ أو المرابط. تشكلت حول هؤلاء الشیوخ الطرق والزوايا في جميع أنحاء بلاد المسلمين. وكما كانت في دار الإسلام كانت كذلك في دار الحرب (أو ما يعني بلاد الكفار). إن لم تختلف الزوايا والطرق فيما بينها في الجوهر فهي تختلف في شكل العقيدة وعادات البلاد. لقد حاول العلماء عبثا التدخل لمحاربة الصوفية التي كانت تنتشر بسرعة. حتى إن "الفتوى" رغم طابعها المقدس لم تمنع في منع الصوفية. لم يعد العالم أو القاضي أو الإمام في الجزائر سوى موظفين في القطاع الديني أو القانوني يقدمون تقاريرهم إلى الحكومة ولا يمارسون أي عمل سياسي خارج صلاحياتهم المحددة.

لكن الطرق والزوايا لا تزال موجودة وكان بعضها في الأوقات العصيبة مراكز تحريض وبؤر تعصب ومعارضة أثارت السلطة الفرنسية.

تنظيمات، عائدات، وتأثير

نجد بجانب الشيخ الخليفة والملازم والمساعد. ويساعده كذلك في مهمته المقدم، وهو رجل نشط وفطن. المقدم هو المسؤول عن نقل تعليمات الشيخ إلى الإخوان من خلال "الركاب" أو الشاوش. وأخيراً، يتم تنظيم هيئة التدريس تحت إشراف الشيخ أو المرابط صاحب "البركة". للشيخ المعلم علم ووجاهة تستقطب عدة تلاميذ من الشرق إلى الغرب من المغرب وتونس. تم إحصاء 23 طريقة عبر التراب الجزائري، لها العديد من الفروع وهناك 355 زاوية و22 شيخاً أو مرابطاً و1955 مقدماً و894 شاوشاً. وصل عدد الإخوان حسب الإحصاء الأخير إلى 186974 فرداً. يتمثل معظم دخل الزاوية في صدقات المؤمنين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبِيعَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ...".¹ ولكن أكثر ما ساهم في تنمية ازدهار الزاوية هو تبرعات "الحبوس" أو الوقف وهو حق الانتفاع الدائم لصالح الفقراء أو المؤسسات الدينية. عند الغزو الفرنسي سنة 1830، بلغت قيمة الحبوس المؤلف من عقارات ومنقولات أكثر من 9 ملايين بالرغم من القسم الكبير الذي يعود إلى أملاك الدولة.

¹ سورة البقرة، الآية 267

ومن مصادر الدخل الأخرى "الصدقة" التي يفرضها الإخوان على عائدات البيع أو على المدخرات النقدية وكذلك "الزيارة" حيث يتبع الزائر بالمال عن طوعية والمستحقات التي يدفعها التلاميذ المتحصلين على الشهادة حديثاً وأخيراً المساهمات العينية وتسمى "توبزة" وهي أعمال روتينية. يصل مجموع هذه الإيرادات المختلفة إلى 7500000 فرنك تقريراً بالنسبة لجميع الزوايا. حيث مثلت العائدات العربية نصف العائدات الإجمالية سنة 1895 والتي 16.187.092 فرنكًا.

الزاوية

"الوكيل" مكلف بتسهيل وإدارة ممتلكات الزاوية. هو حارس ضريح المرابط. تأثيره الكبير وفاعلية عمله يخوله ورث "البركة". يقول دييون وكوبولاني أن كلمة الزاوية تعني لغويًا الركن وبالتالي واصطلاحاً الحجرة المنعزلة أو الدير. إنه المكان الذي يقدم فيه "الطلوبة" الدرس، حيث يتلى "الذكر" ويعتنى بالمرضى، وفي أوقات معينة من العام، يوزع الكسكس والقمح على الفقراء.

الرحمانية

إن زاوية الهمام بالتأكيد واحدة من أهم المعالم في الجزائر. وهي مرتبطة بالطريقة الرحمانية التي يتعدد أتباعها كثيراً وتاريخهم معروف. حسب القائد رين فإن مؤسس الطريقة محمد بن عبد الرحمن بو قبرين الذي كان قد أوكل القيادة في الشرق في الزيبان لخلفته سي مصطفى وحل محله فيما بعد سي محمد بن عزوز المنحدر من البرج.

بعد احتلال بسكرة عام 1843، ترك سي محمد بن عزوز البرج واستقر بنفطة في تونس حيث أسس الزاوية. لكنه قبل مغادرته الجزائر، كان قد ترك وراءه خمسة مقدمين كبار ورثوا عنه سلطنته. ومن هناك انبثقت ست مجموعات مهمة ترتبط بالطريقة الرحمانية، تبع أخلاقياتها ومذاهيمها من "العقيدة السائدة". "تصرف دائمًا بتكران الذات... لا تسع إلى لفت انتباه الناس، توار عنهم ولا يرك إلا الله... لا تخضع أفعالك للخوف من العقاب ولا للطمع في المكافآت... ابتعد بنفسك عن متع الدنيا ولا تأخذ إلا ما هو ضروري لستر جسدك وإشباع جوعك... لا تقابل الأذى بالأذى... وأسلم أمرك بين يدي الله واحمد...".

فكري الموت فذلك هو أساس "الزهد":

ويكفي قراءة هذه المقتطفات من تأليف سي محمد بن عبد الرحمن بوبرين لتكون لك فكرة عن السمو الأخلاقي للرحمانية.

يتتألف "الذكر" الخاص بهذه الطريقة المنتهجة إلى اليوم في زاوية الهمامل من:

أولاً تكرار "لا إله إلا الله" قدر الإمكان خلال الليل والنهار من عصر الجمعة إلى عصر الخميس، أي مدة ستة أيام.

ثانياً تكرار الدعاء الشادلي 80 مرة على الأقل حيث يقال: اللهم أتم نعمك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عليه!" وذلك من عصر الخميس إلى عصر الجمعة على أن يكون في حالة طهارة شرعية.

من السهل الانضمام إلى هذه الطريقة حيث يتكلف بها المقدم في جميع أنحاء الجزائر وشرق الجزائر العاصمة بالتحديد.

يتم الانخراط بصورةتين مقدستين: "العهد" و"التلقين". يضع الشيخ كف يده اليمنى على راحة المريد (الתלמיד الجديد) ممسكاً بإبهامه وينطق بالكلمات التالية التي يكررها المريد: "أتضرع إلى الله". أستغفر الله رسوله.

"اللهم اغفر لنا ما مضى، وسهل لنا ما تبقى من حياتنا.

ثم يقرأ الشيخ وحده هذه الآيات من القرآن: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سبئاتكم¹..." وبعض السور المتعلقة بالقسم والإيمان بالله والحق والفضيلة ويختتم بهذا الدعاء:

"يا إلهي أنر هذا المريد واحفظه وتقبل أعماله وافتح له الأبواب
كما فتحت لأنبيائك وأوليائك"

والصورة الثانية "التلقين" يتكون من أدعية يستمع إليها المريد وعيناه مغمضتان. بعد ذلك يكرر ذلك مرات: "إنني أستمع إليك". إذا كان الأخ طالباً حريصاً على التعلم، فإن الشيخ يسمعه أسماء الله السبعة الخفية: هو الله الحق الحي القيوم العليم القهار.

يضم نظام الرحمانية عدداً كبيراً من النساء اللواتي يطلقن عليهن "خوات" أو الأخوات وتشرف عليهن "مقدمات" حيثما كثر عددهن.

¹ سورة التحرير، الآية 08.

يشكل هذا الكيان الاقتصادي والديني وهذه الطقوس والقواعد المطبقة على الحياة المشتركة والتسلسل الهرمي الذي يمتد من الشيخ إلى الوكلاء مروراً بال الخليفة والمقدم عالمة من علامات النشاط في زاوية الهامل التي تعتبر أحد أهم مراكز الرحمانية.

زاوية الهامل، تاريخ وتأثير مرابط الهامل محمد بن بلقاسم

تعتبر الهامل جذعاً تتفرع منه أوراق الشجر الكثيفة، فقد بلغ عدد الإخوان بشرفة الهامل 350 تلميذاً و300 من جبل امساعد شرقاً. وجنوباً من أولاد أحمد 350، أولاد محمد المبارك 140، ولاد عمارة 30. وغرباً من أولاد علي بن محمد 200، ولاد خالد 450، ولاد سيدى زيان 280. وشمالاًً أولاد غريب 60، أولاد عامر لقبالة 70، بوسعادة 500، والرمانة 100 وهي تسميات للمناطق المرتبطة بزاوיתنا.

نجح الشيخ المختار بن خليفة، أحد المقدمين الخمسة لسي محمد بن عزوز، في إنشاء زاوية مزدهرة للغاية في أولاد جلال بدائرة بسكرة.

كان خليفته المقدم محمد بن بلقاسم، وهو رجل تميز بذكائه ومعرفته الواسعة وفضائله وثباته في العمل. فبعد حفظه المبادئ الأولى من علوم القرآن على يد الشيخ بو داود العالم المشهور من دائرة أقبو، سافر لاستكمال دراسته مع سي مختار في أولاد جلال حيث لم يمض وقت طويل حتى بلغ مراده وهو نيل ثقة واحترام سيده.

توفي سي مختار في أكتوبر 1862، وترك ستة أطفال صغار. قبل وفاته، كان قد ورث تراثه الروحي لمقدمه التقي الذي سرعان ما غير حياة المتعبدين إلى الأحسن.

لكن محمد بن بلقاسم كان حريصاً على فتح مجال أوسع لنشاطه الدؤوب وروح المبادرة. فقد ابتعد عن أولاد جلال وعاد إلى قريته التي أسسها أحد أجداده سيدى عبد الرحمن بن أيوب كما تقول الأسطورة. إليكم قصة هذه المؤسسة كما يرويها لي ابن شقيق المرابط المجل، سي محمد بن الحاج محمد بلقاسم، شيخ الهمامل الحالي.

فلقد نزل عبد الرحمن بن أيوب على رأس كتبة من "الهماملين" (المتجولين) المغاربة في القرن الثامن للهجرة، على ضفاف أحد الأودية حيث اضطروا للتوقف والاستراحة. كان المكان يتمتع بالنضاراة وصفاء اليابس وظلال الأشجار وهدوء الطبيعة. غرز القائد عصاه التي كانت بيده في الأرض، ثم توضأ وتوجه إلى القبلة وصلى. وبينما كان يستعد ورفاقه للمغادرة، لاحظ أن أوراقاً جديدة قد كَسَت عصاه. كانت الإرادة الإلهية تتجلى بوضوح لا يدع مجالاً للشك. استقر الهماملون هناك أخيراً وأسسوا قرية أطلقوا عليها اسم "الهمامل".

لم يكن محمد بن بلقاسم، سليل مؤسس هذه البلدة بمعجزة، القدرة على اختيار مكان الزاوية بشكل أو بأخر. إنما كان مكاناً حقيقياً للتأمل والصلوة والتقوى. فجاء الطلاب والطلبة هرباً من نحو الزاوية المبنية على التل. أخذت شهرة محمد بن بلقاسم في الإزدياد. وذاع صيته بين المؤمنين بفضائله وإحسانه وأخذ الناس يمدحونه بما سمعوا عن أتباعه من نصرة الضعفاء والتصدق على الفقراء. اكتظت زاويته بـ 400 متعلم يتدرسون على يد طلبة القرآن

والقواعد وعلم الفلك والحساب واللاهوت¹. نشر المقدمون المتحمّسون عقائده خارج الزاوية، ومارسوا التدين، وأسسوا زوايا لدرجة أنه قبل وفاته بوقت تمكن معاونوه وعددهم 164، من إنشاء 29 زاوية تتوفّر على 168 من الطلبة الذين يشرفون على 2.091 تلميذاً. وأخيراً تمكن من جمع 43000 من الإخوان. يمكننا القول أن هذا المرابط العظيم كان له عبقرية في التنظيم بفضل عقله الذي يعمل باستمرار. لقد انتقل من العبادات المفروضة إلى كل تفاصيل العمل الدنيوي. أراد الاستفادة من خصوبة ضفاف الوادي ووفرة مياهه فشق قنوات الري، وزرع أراضي النهر حتى تحولت إلى حدائق جميلة، وغرس أشجار النخيل. لقد تمكن من توفير ظروف الخلوة المقدسة من الظل والبرودة في تلك الطبيعة بعد أن كانت أرضاً قاحلة.

وافته المنية في 2 يونيو 1897، تاركاً وراءه سي محمد بن حاج محمد، ابن أخيه وخليفة الروحي، إلى جانب ابنته لالة زينب ويبدو أنها ورثت عنه كل الفضائل.

في 16 يوليو 1897، أقيمت مراسيم دينية في مسجد الموماين في بوسعداء تخليداً لذكرى مرابط الهمام. تكلم قائد الكتيبة كروشوار، القائد الأعلى للدائرة العسكرية لبوسعادة وسط الضباط والطلبة مشيداً بالزعيم الراحل: "إن سيدى محمد بن بلقاسم قد خدم بصراحة وإخلاص وبدون دوافع خفية لصالح القضية الفرنسية ضارباً بعلمه المنير صميم أولئك الذين كانوا يعادوننا، وساعدنا بكل قوة وإرادة في أعمالنا الحضارية بذكائه الفذ، حتى إنه قاتل من أجل النصر مخاطراً بذلك بنفسه ضد الكثيرين من أرادوا النيل من هيبته...".

¹ المقصود به علم العقيدة.

بعد ذلك أحال الكلمة لابن شقيق الشيخ إبراهيم رحماني محمد بن أحمد بن صلاح، قاضي بوسعدة إحياء ذكرى الفقيد واستحضار أعماله المنجزة في أولاد جلال وزاوية الهامل.

أولاد المقراني

كانت قافلتنا الصغيرة متوجهة نحو هذه الزاوية الشهيرة، الواقعة على بعد 15 كيلومتراً جنوب غرب بوسعدة يوم الأربعاء 29 ديسمبر 1897. أثناء عبورنا هذا البلد كنا نتبع المسارات القاحلة نسبياً... كانت طريقنا تمتد في ارتفاعات متتالية ثم تنحني في منحدرات خفيفة إلى سفح سلسلة الجبال حيث تسمى الزاوية. سلكنا طريقاً موازياً تقريباً للترعجات الوادي.

بعد ساعة ونصف من المشي، رأينا التلال الأولى للجبال تكسوها كتل زرقاء من خشب الأرض وتبعد منها أبخرة تصاعد ببطء وأعمدة أعمدة من الدخان المزرق كعلامة على القليل من المساكن المتناثرة. كان يصلو من حولنا بضعة فرسان من المكتب العربي على خيولهم، وشاب من الأهالي يتمتع بشخصية رفيعة وهيئة أرستقراطية. إنه ابن المقراني الشجاع والذي كانت وفاته بطولة مؤسفة، فهو لحد ما قد تنصل من واجباته وقد تمرداً.

لقد فكرت ملياً في هذا الفارس الذي توجي ملامحه بالأب وكأنه يعيش فيه مرة أخرى حيث ارتسمت فيه صورته بشكل واضح رسماً هوغو لرو في لوحته "مول الساعة" في صورة متوسطة الارتفاع، بدا المقراني طويلاً القامة، نحيف نحافة الفارس. تحول بشرة الفرسان تحت أشعة الشمس الذهبية إلى اللون الأشقر البري. يداه الطويلتان والنحيفتان مثل أيدي الطوارق تثير الاهتمام... ما كان يميز أنه سامي العرق بفضل جماله الرجولي... لقد تخيلت بألم مجريات الدراما المظلمة لعام 1871. حيث كان المقراني، بلا شك، ضحية لأحلامه الطموحة الخطرة، إذ إنه استسلم للكبراء والرغبة في شفاء غليله؛ لكنه كان عدواً شهماً، تصدى بشجاعة لرصاصات جنودنا.

كره المقراني أبناء عمومته بني عبد السلام، الذين دعمتهم الحكومة الفرنسية ووُجِد في زعيم الخوان الشیخ الحداد الہیبة المتزايدة تهدیداً للسلطنة وثروته، بالإضافة إلى وصول حاکم مدنی کلها كانت أسباباً أو ذرائع دفعته إلى تنظیم الثورة وإعلان الحرب على فرنسا.

في 9 آذار (مارس) 1871، كتب إلى الجنرال للاماند: "بما أن فرنسا استعادت السلام الآن، فأنا أريد حريتي. وما دامت الحكومة في أيدي المدنيين فأنا أقولها للمرة الثالثة أستقيل من منصب باشا غالا..."

قلت لكم إنني لن أحارب فرنسا أبداً ما دمت في خدمتها، وأنا على عهدي" في 16 مارس، جدد إعلانه في رسالة وجهها إلى الجنرال أوجيراود: "إذا واصلت خدمة فرنسا، فذلك لأنها كانت في صراع مع بروسيا ولم أرغب في زيادة متاعب الحرب... ولكن اليوم قد حل السلام وسأستعيد حريتي... لن أكون أبداً وكيلًا للحكومة المدنية التي تهمي، وقد عينت بالفعل خليفة لي، هؤلاء الناس يدعون أنني متمرد لذلك أنا على أهبة الاستعداد لأبادلهم طلقات البنادق!... مع السلامة!"

وفعل كما كان يقول. أعطى المقراني إشارة اندلاع الثورة، واصطف حوله فرسان الغومي واخوان الحداد واخوان الججاد بعد أن كانت بينهم خصومة توحدوا أخيرا تحت شعورهم بكراهية العدو.

بدؤوا بالقتال، ولكن عبثا يحاولون. ما حيلهم أمام القوات المشتركة للجنرالات سوسير وسيريس؟ لقد قُتل البشاغا المقراني في 5 مايو 1871 في معركة وادي صفيلات برصاصه في جيشه عندما كان يراقب تحركات قواتنا من أعلى تل المسدور. قام بعض أتباعه المخلصين بنقل جثته إلى قلعة عباس المبارك، وهو عرش نسر حقيقي يرتفع بشكل رائع أمام القمم الضبابية لجبال بابور وبوعنداس. لقد تسلقت منحدرات عباس المبارك الشديدة ودخلت القلعة وتوقفت أمام قبر المقراني المتواضع. ليس هناك نقوش على الشاهد، تنموا عليه شجرة ذات أوراق نحيل، وعظام والقليل من الغبار هذا كل ما تبقى من طموحة الواسع.

عندما رأيت سليل البطل المنذر ينطلق أمامنا، مباشرة على السرج الصوفي المرصع بالذهب في أبهة وعظمة، تذكرت الاستعراضات الرائعة التي قدمها والده في سهل مجانية. تحدثت معه عن المقراني في قلعة عباس المبارك. فنطقت شفتيه بهذه الكلمات: "أسفت على ما فعل أبي!"

نشأ ابن المقراني لدى الشيخ محمد بن بلقاسم في الزاوية التي كنا متوجهين إليها. كانت هناك مجموعة من الفرسان قد توقفوا لانتظارنا على جانب الطريق. يتقدمهم المرابط الذي استعد للقاء ضيوفه وهو سي محمد بن الحاج محمد الشيخ الجديد بجيشه عالية وأنفه البارز وعيناه الصافيتان والناعمتان وفرسه الودودة.

مشهد الزاوية، الاستقبال، ضريح المرابط

انضم إلينا رفاقه ووصلت قافلتنا الصغيرة إلى منطقة الزاوية.

كانت الطريق مهيئة والجسر مبنيا على الوادي وقنوات الري والحدائق الخضراء والأعمال التي قام بها الشيخ الهمامي دليلا على نشاط وانجازاته السباقية في البلدان العربية. واجهنا انحدارا سريعا إلى الواد ثم صعدنا منحدرا شديدا، وها نحن على مرأى من الزاوية تماما كما تشير الخريطة. ترتفع الزاوية على التل الذي يشرف على مقبرة على شكل قلعة أو دير. بين المبنى والقرية المنحدرة نحو الوادي، وقف كثير من الأعراب والتلاميذ والمربيين والإخوان على شرفة طويلة. كأنهم أشباح ببرانيسهم البيضاء. كانوا ينتظرون بلا صياح ولا حركة يقفون تحت الضوء الهادئ حيث ينسجم لونهم مع تدرجات اللون الأصفر للأرض والظلالة الخفيفة على الجدران وللون السماء الباهت يتباين مع بياض البرانيس.



كأنهم أرواح معلقة. وفجأة خرق هذا الصمت العظيم طلقتان أو ثلاث طلقات نارية وأصوات صاخبة لمزار حاد الصوت؟ استقبلنا المرابط وإخوانه طلبة ومعلمون وتلاميذ الزاوية وأكرمونا بالضيافة في غرفة مفروشة بالكامل بسجاد طويل من الصوف. ومرة أخرى كانت سلسلة الأطباق التي تتكون منها الضياف، دون أن ننسى "الكتفة" وهي خليط من الدقيق والنشا والعسل والسكر واللوز المطحون. بعد ذلك زرنا المكتبة حيث أرانا المرابط التلميذ أرقى مخطوطاته من المصاحف، ثم اصطحبنا إلى ضريح الشيخ محمد بن بلقاسم الذي لا تزال ذكراه حاضرة في أذهان أتباعه جميعاً. نظرت إلى صورته كما لو أنه ما زال حياً؛ جالساً على مقعد صغير، يلتحف ملابسه الفضفاضة ويستند برأسه برفق على يده اليسرى، ومسبحة بيده اليمنى، وجهته قوية وحاجبه كثيفان بينهما أخدودان عميقان وقصيران، إنها علامات مثابرته. عينه محدقة وأنفه قوي ودقيق للغاية، له وجه مهيب تزييه لحياة ناصعة البياض ويداه ناعمتان بعض الشيء لكنها لطيفة. باختصار لقد اشتمل على صفات النبل والكرامة والحرز التي أثارت إعجاب الجمهور. وجدنا أنفسنا أمام هذا المرقد متأثرين باستحضار هذا الشكل الجميل وذكرى وجود مليء بالحيوية. بعد مغادرة المكان المقدس خرجنا إلى ساحة صغيرة عند أساس أسوار عالية مقابل البوابة. احتشدت خلفنا حشود من المؤمنين والإخوان صامتين بلا حراك كالعادة.

فجأة فتحت البوابة المزدوجة ولاح لنا على العتبة شبح أبيض. كنا في نفس الوقت قد سمعنا ضوضاء سريعة خافتة مرتجفة قادمة من الحشود المتجمعة. ثم ساد صمت رهيب. إنها ابنة الشیخة الراحل لالة زینب¹، هي التي شرفتنا بظهورها أمامنا واستقبلنا. قدمت المرابطة نفسها لدينا بملابسها الموجة البيضاء المذهلة. ظهرت وسط شعيرها المنتشر على سفح أسوار الزاوية والمتأمل فيها مثل ملكة أو راهبة أو صوفية مقدسة في دير العصور الوسطى². أقتربت منها وقبلت يدها. قالت لنا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وشعرنا حًقا بجو من الاسترضاء. الصمت لله والضجيج للبشر. لوحـت لنا وقادـتنا إلى شقـتها حيث تم إعداد وجـة خـفيفـة. ثم أخـبرـتها أنـ أـفـضل طـرـيـقة لـرد جـمـيل هـذـا التـرحـيـب ولـالـتـعبـير عنـ اـمـتنـانـنا لـهـا هيـ استـذـكارـ فـضـائـلـ وـالـدـهـاـ فيـ أـذـهـانـنـا وـقـلـوبـنـاـ.

¹ ولدت "لالة زینب" في قرية الہامل عام (1287هـ / 1872م) حفظت القرآن ودرست العلوم الدينية على يد والدها، وتعتبر الابنة الوحيدة للشيخ "محمد بن أبي القاسم" وخليفته بعد وفاته على مشيخة الزاوية، دامت فترة توليمها شؤون الزاوية قرابة السبعة سنوات، توفيت في (09 نوفمبر 1905م). ينظر: الطريقة الرحمانية وزاويتها القاسمية في سطور: أعمال ملتقى التربية الروحية في الطريقة الرحمانية بزاوية الہامل القاسمية، المقام أيام 17-16 شوال 1427هـ / 08-09 نوفمبر 2006م)، ص 31.

² كانت لالة زینب تحظى بتقدير واحترام كبيرين في أوساط الزاوية.

وأنا أكلمها، كان لي واسع الوقت لأتفحص تعابير وجهها وملامحه؛
لعيونها جمال خاص. إنها عيون تائهة منغمسة في فكرة واحدة لا يمكن فهم
في خيالها اللامتناهي... وميض ثم صمت... ثم لا شيء.

اغرورقت تلك العيون الرائعة بالدموع لذكرى الشيخ المتوفى قبل سبعة
أشهر، وفجرت أحاسيسها الحية المكبوتة في كيانها الحميم. نزلنا مرة أخرى
إلى الساحة الصغيرة ولالة زينب أمامنا دائماً، سمعنا هممات وهمسات وسط
الحشد المنتظر، ثم أقبل المؤمنون بالتقبيل والانحناء عند أقدام المرابطة.

شعرت أنها لا تزال تنبع بروح الشيخ وأن هيبة الأب قد انتقلت
إلى الابنة وأن الحلة البيضاء التي يغمرها النور تشبع بالإيمان أكثر فأكثر
والذي أصبح رمزاً يتجدد في العزلة والتأمل والصمت. توقفنا في قاعة الصلاة
أمام البلاطة الكبيرة حيث كان يجلس محمد بن بلقاسم يقف خطيباً، ثم قدمنا
عيارات التوديع للالة زينب وللمرابط. سارت القافلة الصغيرة على الطريق
المؤدية إلى بوسعادة على طول الوادي المحفوف بنباتات الدفل. توقفت عند
المنعطف وألقيت نظرةأخيرة على الهامل الذي كانت آفاقه تتلاشى تحت ضباب
المساء. كانت بعض النجوم تنتشر في قبة السماء البلورية فوق رؤوسنا.

توقيع لالة زينب

زینب بنت الشیخ سیوطی و محمد زینب لاسم بذاعبة الهامل

EL-HAMEL—Autographe de Lella Zineb, fille du cheikh
Mohammed ben Belkacem.

Chapitre IX

LE HODNA

Le Hodna. La Flore. Le Chott. Les Cultures

Il faut dire adieu à Bou-Saâda, pour faire la traversée du Hodna et aboutir à M'Sila. On nous a représenté cette partie de notre excursion sous des couleurs assez tristes : 70 kilomètres à franchir à travers une plaine desséchée, sans un arbre, sans un accident de terrain, sans rien pour récréer la vue! • • • Au départ, du sable dans lequel enfonceront vos carrioles et d'où ne pourront vous tirer "vos méchantes rosses . . . au milieu du Hodna, vous serez pris dans des terres argileuses détrempées "par la pluie. . . . Ce ne sera qu'ennui, énervement, lassitude."

Ces fâcheux pronostics ne se réalisèrent point; et, en dépit de la longueur du trajet, chacun se félicita d'avoir vu un des plus beaux et des plus rares spectacles qui soient au monde, le mirage dans toute sa splendeur; indépendamment de l'intérêt géographique qui, pour les spécialistes, s'attache à cette région.

Pour donner satisfaction aux géographes, quelques renseignements sommaires sur le Hodna: C'est le nom que l'on donne à une vaste plaine, qui est comprise, dans le département de Constantine, entre les dernières pentes des montagnes des oulad Naïl et du Zab au sud et le massif du Hodna et du Rira au nord.

Le fond de ce bassin, à 400 mètres d'altitude, est occupé par une cuvette centrale, longue et étroite, qui s'étend dans la direction de l'ouest à l'est, sur une longueur de 70 kilomètres, sur une largeur de 25 kilomètres.

La flore des dunes qui entourent la sebkhat du Hodna. Sans être très variée, comprend cependant, un certain nombre d'espèces, dont voici les noms arabes et scientifiques:

Guettaf Atriplex halimus. Hadd (que mandent les chameaux) Cornulaca monochanta.

Chih Artemisia herba alba. Tarfa Tamarix articulata.

Alfa Stipa tenacissima. Mekerba (valérian. Scabiosa camelorum.

Drinn Aristida pungens. Diss Ampelodesmos tenax.

Senrah (variété de jonc) Lygeum spartum. Retem Rétama retem.

Belbal (salsolei Anabasis articulata Neçi Aristida plumosa.

Dans ce chott dénommé " chott El-Hodna" viennent se déverser un assez grand nombre de rivières parmi lesquelles l'oued Chellal, l'oued Beuïda, l'oued Ksob qui traverse M'Sila.

La plaine du Hodna, que l'on a appelé la Mitidja du sud, est inculte, sauf dans la région de M'Sila où 6,000 hectares de terrain irrigué produisent des céréales et des légumes. Il serait même aisé de livrer encore à la culture 10,000 hectares de bonnes terres en établissant un barrage à 15 kilomètres en aval, au point dit du "Hammam." Dans les environs immédiats de M'Sila, 60 hectares sont couverts de beaux jardins où l'on cultive des arbres fruitiers.

Mais ce n'est qu'un point sur les bords de cette plaine d'où l'industrie humaine est absente, et qui apparaît comme un désert sans fin. C'est dans cette solitude que nous allions nous engager.

Le temps était fait à souhait pour favoriser ce voyage ; le ciel pur, l'atmosphère limpide. Les contreforts des oulad Naïl, d'une coloration d'améthyste pâle, se dessinaient avec des contours très nets et des ombres veloutées.

Triste attelage

Les voyageurs s'installèrent dans deux breaks incommodes, traînés par des rosses invraisemblables. Notre attelage, composé d'éléments disparates, était particulièrement lamentable : un mulet, un cheval étique, et une rossinante si vieille, si maigre, qu'elle n'offrait à l'œil attristé qu'un mélange d'os en saillie et de côtes meurtries. Ce pauvre corps, parsemé de poils rares et floconneux, était supporté par quatre pattes si longues que la bête paraissait être toute en jambes. Ces animaux ont une endurance telle, qu'ils marchaient, qu'ils tiraient, qu'ils trottaient même, en dépit du sable, de l'argile mouillée et des obstacles.

Mais que de coups de fouet, d'invocations à la Madone, de malédictions et de jurons ! Chaque coup de lanière faisait voler les poils blancs de l'infortunée rossinante et mettait à vif des plaies à peine cicatrisées.

Une intervention énergique, dégénérant presque en pugilat, fut nécessaire pour rappeler à la raison le Maltais alcoolique qui nous servait de cocher. Et pourtant les bêtes donnaient du collier à travers les sables mouvants et le long des dunes hautes qui couvrent un espace de 10 à 12 kilomètres, à partir de Bou-Saâda.

Après la région des sables, ce fut l'argile, heureusement desséchée par une belle journée de soleil. En ces pays du sud, le soleil, qui règne en souverain, a vite bu l'humidité, pompé les vapeurs, volatilisé les brumes et dissipé les nuages. Les voitures roulaient sur un terrain relativement sec, à travers des touffes de plantes plus abondantes en bois dur qu'en feuillage nourrissant. Ce sont des lieux de pâturage pour les bestiaux et surtout pour les chameaux dont nous aperçûmes de grands troupeaux, échelonnés par files et surveillés par deux ou trois gardiens seulement.

On eût dit que ces animaux avaient pris un ordre de bataille et que, dans la plaine infinie, ils avaient été disposés en tirailleurs. Les derniers de la ligne, dans la direction de l'est, n'apparaissaient plus que pareils à des points noirs, jalonnement vivant de la solitude sans bornes. Les plus rapprochés dressaient lentement la tête vers nous et nous regardaient de leurs yeux doux et étonnés.

BANIOU

Au loin, coupant la monotonie de la plaine, se dresse une butte, couleur d'ocre, qui, de loin, a les apparences d'une forteresse élevée. C'est la colline de Baniou sur laquelle un bordj a été construit. Au pied se trouvent les écuries du relais. Une source assez abondante suffit aux bêtes, aux hommes, et au kaouadji qui vend aux passants une mixture noire. Avant d'arriver à Baniou, ou contourne des salines dont les efflorescences blanches brillent sous le soleil.

Les salines les plus importantes sont situées à l'est du bassin, à Tobna. Elles étaient déjà connues des Romains, sous le nom de " Salins Tubonenses".

A Baniou, installés sur les dunes de sable fauve, nous fîmes honneur à nos provisions ; après un arrêt d'une heure, avec des chevaux plus frais et plus robustes, on se remit en route. Je dis un dernier adieu à la rossinante efflanquée que l'on avait abandonnée près du bordj . . . Sans harnais, nue, elle m'apparut plus lamentable encore, avec son long corps maigre juché sur des jambes démesurées. C'était un squelette debout qui semblait accroître la tristesse de ce lieu.

Devant nous, les contreforts des montagnes se noyaient dans des brumes légères ; bien que l'on avançât assez vite, l'horizon semblait toujours reculer. Ah ! Les beaux espaces pour les brillantes chevauchées et les charges de cavalerie ! A l'époque de la conquête, et plus tard, en 1871, la plaine du Hodna fut souvent traversée par les goums des révoltes ou de nos partisans, qui descendaient des Bibans du Rira, de Sidi-Aïssa et du pays des oulad Nail, ouragans qui passaient avec un bruit de tonnerre, pour s'éloigner et se perdre dans le lointain.

Le Mirage

Le soleil était haut dans le ciel : tout, dans la nature, semblait s'être endormi en une sorte d'assoupissement. Tout à coup, l'un de nous s'écria en étendant le bras : " Voyez donc le beau lac ! En effet, dans un paysage de rêve où l'irréel se confondait à la réalité, avec le calme et la douceur de teintes d'une aquarelle légèrement vieillie, nous aperçûmes un lac bleu, bordé de quais et d'arbres, apparence de lagune sur laquelle de silencieux bateaux dormaient, d'où émergeaient des poutres noircie-, comme à Venise. Insensiblement, des vapeurs flottèrent sur le mirage, les contours s'estompèrent et se rétrécirent : puis les couleurs, fondues en la gamme monochromatique du gris au rose, disparurent à nos yeux. Ce n'était que le premier acte de la fantasmagorie.

A notre droite, le mirage se renouvela avec un coloris plus intense et des formes plus étranges. Aquarelle de quelque peintre japonais : c'était toujours un lac vu à travers les trépidations d'une atmosphère chauffée par le soleil, un lac dont les eaux semblaient animées d'ondulations courtes. C'était une illusion de vie. La nappe d'une bleue pale s'étendait frémissante jusqu'à la base de montagnes d'un bleu de saphir, l'eau à peu, tout s'effaça et la montagne seule, pendant quelques secondes, sembla suspendue dans l'espace.

Devant nous, dans la direction de M'Sila, surgit, d'une lagune nacrée, l'apparence d'un Lido où se voyaient, de distance en distance, de vagues demeures, tac lies blanches sur des fonds roses ; tandis que, derrière nous, les rayons du soleil éclairaient, de scintillements, des pièces d'eau mobiles et changeantes de couleur et d'aspect.

Par tons dégradés, tout se noya dans les grisailles, le réel reprit son dessin et son coloris; et un apaisement se fit dans la nature et dans les cœurs, avec le regret de l'illusion disparue, du rêve envolé.

Un brusque arrêt de la voiture me rejeta dans la réalité banale. Nous étions devant la halte de Chelel où, d'un puits artésien foré à 100 mètres de profondeur, sort une eau abondante qui a 21 degrés de chaleur. Des forages habilement faits sur d'autres points du Hodna ont donné les mêmes résultats satisfaisants. Quand on songe aux richesses que l'on pourrait tirer de vastes exploitations agricoles entreprises sur des terres vierges et bien irriguées, on en arrive à regretter que ces expériences ne soient pas continuées. Bien plus, quelques-uns de ces puits sont dans un état complet d'abandon. Nous en avons vu un dont l'orifice est à moitié comble par les pierres que des malveillants ou des ignorants ont jetées en passant.



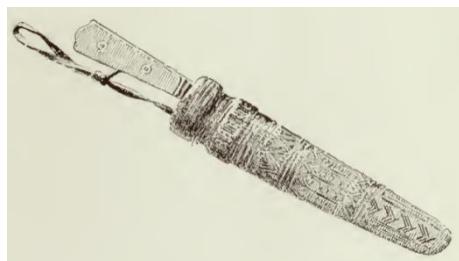
DANS LE HODNA.

On avait l'illusion d'une lagune qui semblait s'étendre jusqu'à la base d'une montagne d'un bleu de saphir.

J'ai pu constater moi-même que dans la Crau, moins fertile que notre Mitidja du sud, les plantations et les cultures avaient réussi au-delà de toutes les espérances, et que des sociétés se constituaient pour fertiliser d'autres parties de cette vaste plaine, qui fut si longtemps le désert de la Provence.

A Chelel, le gardien des ponts et chaussées a déjà fait, sur une petite superficie, des tentatives de culture et de plantation qui ont répondu à son attente. C'est d'un bon augure.

Cette journée se termina dans le calme et la majesté d'un beau coucher de soleil. Nous vîmes enfin les dômes ovoïdes qui couronnent les koubas de M'Sila. A droite et à gauche de la route large et carrossable qui donne accès dans la ville, on devinait, dans la pénombre, des jardins bien cultivés et la masse feuillue des arbres fruitiers ; et, sur une place, au milieu de grouillements de burnous et de portefaix empressés, nos voitures s'arrêtèrent.



COUTEAU DE BOU-SAADA.

(الفصل التاسع

الحضنة

الحضنة، الغطاء النباتي، الشط، المزروعات

وجب علينا توديع بوسعادة لنتجه نحو الحضنة والمسيلة. يتمثل هذا الجزء من رحلتنا بألوان حزينة بعض الشيء: 70 كيلومتراً من الطريق عبر سهل جاف على أرض جراء غير مستوية ليس لها معالم ولا مناظر!

"في البداية، غرفت عربتنا بالرماد ولن ولم نعد قادرين على التملّك في أعصابنا الشريرة... تتميز الحضنة بتربة طينية مبللة تعلق فيها العربات خاصة بعد هطول المطر... ولن تشعر هناك إلا بالملل والعصبية والإرهاق". لم تجر الأمور كما كنت أتخيل؛ وعلى الرغم من طول الرحلة، فقد أشغلنَا بمشاهدة أحد أجمل المناظر وأندرها في للعالم وهو السراب بروعيته؛ لقد صرف أنظارنا فعلاً عن جغرافية هذه المنطقة وما يقول عنها المتخصصون.

هناك بعض المعلومات الموجزة عن الحضنة ما من شأنه إرضاء الجغرافيين. يطلق اسم الحضنة على سهل شاسع يشمل قسماً من قسنطينة وجبال أولاد نايل القريبة محصور بين الزاب وجبال الحضنة في الجنوب وبين الريغة في الشمال.

يتوسط هذا السهل والذي يبلغ ارتفاعه 400 متر فوق مستوى سطح البحر حوض مركزي طويل وضيق يمتد من الغرب إلى الشرق بطول 70 كيلومتراً وعرض 25 كيلومتراً.

تتوفر الكثبان الرملية المحيطة بسبخات الحضنة على نباتات غير متنوعة، فهي تشمل عدداً معيناً من الأنواع منها هنا ماله أسماء عربية وعلمية:

الاسم العلمي	الاسم العربي
<i>Atriplex halimus</i>	القطاف
<i>Artemisia herba alba</i>	الشيح
<i>Stipa tenacissima</i>	الحلفاء
<i>Aristida pungens</i>	الدرين
<i>Lygeum spartum</i>	الصمارة
<i>Anabasis articulata</i>	البلبال (الروثا)
<i>Cornulaca monochanta</i>	الحد (تأكله الإبل)
<i>Tamarix articulata</i>	الطرفة
<i>Scabiosa camelorum</i>	المكريبة (النادرین المخزني)
<i>Ampelodesmos tenax</i>	الديس
<i>Rétama retem</i>	الرتم
<i>Aristida plumosa</i>	النسى

تصب في هذا الشط المسمى "شط الحضنة" عدة أنهار من بينها وادي الشلال، ووادي البيضا ووادي القصوب الذي يعبر المسيلة. يطلق على سهل الحضنة اسم متيبة الجنوب وهو غير مزروع باستثناء منطقة المسيلة حيث تنتج 6000 هكتار من الأراضي المسقية الحبوب والخضروات. سيكون من السهل توفير حتى 10000 هكتار أخرى من الأراضي الصالحة للزراعة وذلك من خلال إنشاء سد على بعد 15 كيلومتراً من المصب،

عند النقطة المسماة "الحمام". 60 هكتاراً مغطاة بالحدائق الجميلة على مقربة من المسيلة توفر المكان المناسب لزرع أشجار الفاكهة. لكنها مجرد نقطة على أطراف هذا السهل تفتقر إلى الصناعة البشرية فتبعد وكأنها صحراء لا نهاية لها. إننا على وشك الدخول إلى تلك العزلة.

كان الطقس مثالياً لاستئناف هذه الرحلة؛ السماء نقية، والجو صاف. لاحت لنا مرتفعتات أولاد نايل باللون الأرجواني الشاحب والظلال المحمليه مخططة بوضوح.

العربة التعيسة

جلس المسافرون في عربتين مصننيتين تجرها حيوانات سيئة تشكل فريقا تعيساً: بغل، وحصان هزيل، وحصان قروسطي عجوز ونحيف جداً لدرجة أنه لم يكن يرى له سوى رؤوس من العظام البارزة والأضلاع المكدومة. كان هذا الجسم الفقير مليء بشعر رقيق متناشر ينتصب على أربعة قوائم طويلة تشكل في مجملها جسم هذا الوحش. تتمتع هذه الحيوانات بقدرة على التحمل لدرجة أنها كانت تسير وتسحب، بل وتهرب على الرغم من الرمال والطين الرطب والعقبات. عدة ضربات من السوط يصاحبها وابل من الشتائم والوعيد كانت كفيلة بتحريكها. غير أن كل تمريرة من السوط جعلت الشعر الأبيض للخيول يتطاير ويكشف عن جروح غير ملتئمة.

كان علينا التصرف بقوة وكأننا في قتال، بات ضروريًا استخدام العقل المالي السكيك لأنه يخلصنا دوماً. لكن الحيوانات أبدت قوتها على الخوض عبر الرمال المتحركة وعلى طول الكثبان العالية التي تغطي مساحة من 10 إلى 12 كيلومترًا بدءًا من بوسعادة. بعد منطقة الرمال دخلنا منطقة الطين، وحسن الحظ جفت في ذلك اليوم المشمس الجميل.

تعمل الشمس السائدة في هذه البلدان الجنوبية على امتصاص الرطوبة بسرعة وضخ الأبخرة وتبخير الضباب وتبييد السحب. سارت عرباتنا على أرض جافة نسبيًا. كانت الطريق محفوفة بمجموعات من النباتات المتوافرة المميزة بأحشائها الصلبة بدل الأوراق المغذية. هذه هي مراعي الماشية وخاصة الجمال التي رأينا منها قطعاناً كبيرة متربعة في صفوف ليس عليها رقيب سوى اثنين أو ثلاثة من الرعاة.

بدا وكأن هذه الحيوانات أخذت أمراً بالمعركة وأنها قد اصطفت في السهل اللامتناهي كأنها فوج من الرماة. تظهر الجمال الأخيرة في الصف المتوجه شرقاً وكأنها نقاط سوداء، محافظة على وحدتها اللامحدودة. ترفع الإبل القريبة رؤوسها نحونا ببطء وتتنظر إلينا بأعينها اللطيفة والمذهلة.

بانيو

من بعيد، تخلل رتابة السهل تلة بارزة بلون داكن، تبدو من بعيد وكأنها قلعة شاهقة. إنه تل بانيو الذي أقيم على قمته برج. توجد أسفله مستودعات متتابعة. تكفي لإيواء الحيوانات والرجال والقهوجية الذين يبيعون خليطاً أسود للمارة. قبل وصولنا إلى بانيو، اجتازنا الملاحمات التي تتألق أزهارها البيضاء في الشمس.

تقع أهم الملاحمات في شرق الحوض في توبنة. وهي معروفة منذ القدم لدى الرومان تحت اسم Salins Tubonenses. استرخنا في بانيو على الكثبان الرملية السمراء لمدة ساعة تفقدنا فيها المؤن واستبدلنا حيواناتنا بخيول أكثر نقاء وقوه ثم استأنفنا رحلتنا. تركت ذلك الحصان العجوز الهزيل قرب البرج... بدا خيفاً عارياً وقد أحزنني منظره بجسمه الطويل النحيف الجاثم على ساقيه الصخمتين. لقد كان أشبه بهيكل عظمي قائم ويدو أنه يزيد هذا المكان حزناً. اختفت أمامنا سفوح الجبال في ضباب خفيف. على الرغم من أننا كنا نتقدم بسرعة كبيرة، إلا أن الأفق بدا وكأنه يتراجع دائماً. آه! إنها مساحات جميلة لركوب الخيل ومصاولة الفرسان! في وقت الغزو وفي السنوات المعاشرة حتى سنة 1871، كان سهل الحضنة غالباً ممراً للغوميين من الثوار وجندونا على حد سواء، القادمين من بيان الريقة وسيدي عيسى وبلاط أولاد نايل، مثل أعاشير مررت بصوت الرعد واختفت في الآفاق البعيدة.

السراب

كانت الشمس في كبد السماء وبدا أن كل شيء يغط في نوم عميق. فجأة، صاح أحدنا وهو يمد ذراعه "انظروا إلى البحيرة الجميلة!" في الواقع لم يكن سوى مشهد أحلام حيث اندمج الخيال مع الواقع في هدوء حيث ارتسنت لوحة مائية قديمة. أبصرنا بحيرة زرقاء، مرصوفة بالأشجار، وبحيرة أخرى تطفو عليها قوارب صامتة ولاحت منها أشعة سوداء ذكرتنا بمدينة البندقية. طفت أبخرة هادئة على السراب. تلاشت الخطوط وتقلصت ثم انصرفت الألوان في صفحة رمادية تحولت إلى وردية واختفت عن أنظارنا فجأة، لم يكن هذا المشهد سوى الحلقة الأولى من قصة خيالية.

بدا عن يميننا نوع جديد من السراب بلون أكثر كثافة وأشكال أكثر غرابة. لوحة مائية يابانية تصور بحيرة تهتز فوقها طبقات الغلاف الجوي فتسخنها الشمس، وبحيرة بدت مياها مفعمة بالحيوية بتمولجات قصيرة. إنه وهم الحياة. امتد بساط أزرق باهت كالمائدة نحو سفح الجبال الزرقاء الياقوتية، وتلاشى كل شيء تدريجياً ليظهر الجبل وحيداً البعض ثوانٍ كأنه معلق في الفضاء.

يرتفع من أمامنا باتجاه مسلة بحيرة لؤلؤية تأخذ شكل المسبح تتناثر من ورائه مساكن واهية هنا وهناك، بيضاء منصهرة على خلفيات وردية. كانت الشمس من خلفنا ترسل أشعتها ولها وميض يجعل كل أجزاء الماء تتحرك وتغير من لونها ومكانتها.

غرق المشهد كله في اللون الرمادي بنغمات متعددة، واستأنفت الطبيعة تظهر تصاميمها وتلويناتها وكأنها تسترضي القلوب. ولكن مع الأسف تلاشى الوهم وانتهى الحلم. توقفت العربية فجأة لأفيف على الواقع التافه. كنا أمام محطة الشلال المتألفة من بئر ارتوازي محفور على عمق 300 قدم تتدفق منه مياه وفيرة درجة حرارتها 21 درجة. وقد نجحت عمليات الحفر المنجزة في نقاط أخرى من الحضنة. فعندما يفكر المرء في الثراء من الأنشطة الزراعية الواسعة على الأراضي العذراء المروية جيداً ومن المؤسف عدم استمرار هذه التجارب. علاوة على ذلك، فإن بعض هذه الآبار مهجورة بالكامل. رأينا إحدى الآبار نصفه مغمور بالحجارة التي ألقاها أشخاص جاهلون أو مفسدون.

إنه وهم الحياة. امتد بساط أزرق باهت كالمائدة نحو سفح الجبال
الزرقاء الياقوتية



يمكن القول إن هذا المكان يشبه سهل كراو بفرنسا فهو أقل خصوبة من متيبة الجنوب. لقد فاق نجاح المزارع والمحاصيل كل التوقعات، تم إنشاء الشركات لتخصيب أجزاء أخرى من هذا السهل الشاسع، والذي كان لفترة طويلة صحراء مدينة الشلال، قام حرس الجسور والطرق بمحاولات للزراعة والغرس فحققوا توقعاتهم على مساحة صغيرة، إنه بالفعل فأل خير. انتهى هذا اليوم بهدوء وسكينة بغروب جميل. لقد رأينا أخيراً القباب البيضاوية التي تميز قبب المسيلة. على يمين وشمال الطريق الواسع الذي يتيح الوصول إلى المدينة. يمكن للمرء أن يشاهد في الظلام حدائق مزروعة وكثلاً مورقة من أشجار الفاكهة؛ وفي وسط الساحة سرب من أصحاب البرانيس والحملانيين المتحمسين، توقفت عرباتنا.

Chapitre x

M'SILA

Histoire de M'Sila

Avant de conduire le lecteur à travers M'Sila, je raconterai brièvement les origines de cette vieille cité. Quelques documents inédits, recueillis par M. Pellut et communiqués par M. Bruguière-Roure, m'ont aidé à reconstituer cette histoire.

D'après la légende, le grand chef d'une confrérie religieuse, Sidi ben Hilloul, partit, au VII^e siècle, du Maghreb avec une caravane, et, inspiré par Dieu, décida qu'il bâtitrait une mosquée à l'endroit où ses chameaux s'arrêtéraient. Les animaux tirent halte sur les rives de l'oued Ksob, où fut édifié le premier sanctuaire de M'Sila, à 4 kilomètres des ruines de la ville berbère de Zabi (Bechilga), détruite par les Vandales et reconstruite sous le nom de Justiniana en 539.

Presque en même temps que Sidi ben Hilloul, un autre chef, du nom de Tellis, s'installa, avec sa famille et quelques fidèles partisans, sur la rive gauche de l'oued Ksob. Aux maisons qu'il avait bâties pour lui et les siens d'autres constructions s'ajoutèrent. La petite ville commençait à prendre une assez grande extension, lorsqu'elle fut détruite par les Kharedjites. Elle ne se releva de ses ruines qu'en 927. A cette époque arriva le fatimite Aboul Kacem Ismaïl ben Obeïd. Celui-ci, sur l'emplacement même de Kherbat-Tellis, traça avec sa lance l'enceinte de la cité future qui fut construite sous la direction de Si Ali ben Hamdoum el Djodhâmi. Appelée d'abord Mohammedia, elle prit plus tard le nom de M'Sila. Dû à sa situation sur un cours d'eau (M'Sila vient, en effet, du radical " sil " qui signifie couler). Ali ben Hamdoum el Andalouzi en fut le premier gouverneur.

Poste stratégique important, centre commercial admirablement placé entre le Tell et les régions du sud, M'Sila ne tarda pas à prospérer.

Malheureusement ce territoire fut encore désolé en 1050 et la ville presque détruite.

Elle ne reprit de la vie et de l'animation qu'au XII^e siècle, après l'arrivée d'un saint homme, Si Mohammed ben Abdallah el Megherbi, originaire de Fez, surnommé Bou Djemlin, l'homme aux deux chameaux, ainsi nommé parce qu'il avait fait quarante fois le pèlerinage à la Mecque avec ses deux bêtes, sans que celles-ci eussent vieilli. Bou Djemlin fonda une zaouïa célèbre, et, après sa mort, on construisit sur son tombeau une mosquée qui est encore en grande vénération dans le pays. Bou Djemlin, qui faisait des miracles, avait pour concurrent un envieux, un marabout, Mohammedou-Ali. Celui-ci, furieux de voir que son influence diminuait et que les gens du Hodna allaient tous vers la zaouïa de son rival, usa de son pouvoir surnaturel et détourna le cours du Bou-Sellam qui autrefois, dit la légende, fertilisait toute la plaine du Hodna.

Un autre marabout de la région fut Sidi Hamla qui, lui aussi, commandait aux éléments et devint le fondateur de la fraction des oulad Sidi Hamla.

Les descendants de Bou Djemlin furent la souche de la fraction des Djaafra. Mais de 1318 à 1346, et de 1394 jusqu'en 1510, il y eut toute une série de révoltes contre la dynastie Hafsite de Tunis dont un des membres, souverain de Bougie, étendait son autorité jusqu'à M'Sila.

En 1510, les Turcs s'emparèrent de Bougie et mirent une garnison à M'Sila. Ces soldats s'unirent à des femmes du pays. Aujourd'hui encore, les habitants de trois quartiers de la ville prétendent être les descendants directs de ces Turcs qui s'étaient constitué à M'Sila un véritable apanage avec des prérogatives spéciales.

Au début de l'année 1229 de l'hégire (janvier 1824), les gens de Bou-Saâda s'étant révoltés, deux corps de troupes partirent simultanément pour réprimer la sédition, l'un de Constantine sous le commandement de Mohammed Naâman-bey, l'autre d'Alger sous les ordres du bach-agha Omar. Les troupes turques, repoussées par les rebelles, durent se réfugier à M'Sila. Omar en profita pour mettre à exécution un projet longuement mûri dans son esprit : depuis longtemps, il voulait se débarrasser de Naâman, pour mettre à sa place, comme bey de Constantine, son favori Tchakeur. Il tenait sa victime que les soldats, fatigués par de longues étapes et découragés par la défaite, étaient incapables de défendre. Le lieu était propice, l'occasion favorable : une nuit, deux serviteurs étranglèrent le malheureux bey, auquel succéda Tchakeur. Le corps de Naâman fut inhumé à l'entrée de la mosquée de Bou-Djemlin, et deux rangées de briques marquent actuellement, sans une seule épitaphe, la sépulture de celui qui fut un personnage important.

Depuis longtemps, le cof des Mokrani prétendait étendre sa suzeraineté jusqu'à M'Sila, et les beys de Constantine durent, à plusieurs reprises, repousser les attaques des oulad Mokrane. A la suite du combat de Merdja Zerga, à l'ouest de Sétif (29 juillet 1840), El Hadj Mostefa, beau-frère d'Abd-el-Kader, s'était réfugié à M'Sila où il ne resta qu'un an, jusqu' en 1841, époque à laquelle le général Négrier vint camper sur ce point. En 1845, le général Bedeau, qui commandait la division de Constantine, rétablit l'autorité des Mokrani à M'Sila ; et, dans le courant du mois d'août de l'année suivante, le colonel Eynard, chargé d'organiser l'administration de toute cette région, confia le khalifat du Hodna à Si Ahmed ben Mohammed El Mokrani. En 1848 arriva le colonel Canrobert ; en 1849, le colonel Carbuccia réprima la rébellion de quelques tribus, et le pays fut à peu près pacifié. Mais le Hodna fut encore éprouvé, en 1867, par la famine et le typhus, en 1871 par l'insurrection.

M'Sila pendant l'insurrection de 1871

M'Sila joua un rôle important, du 3 juillet au 24 octobre 1871, pendant l'insurrection. Après le combat de l'oued Bou-Assakeur, qui eut lieu le 15 juin, Saïd ben Bou Daoud, caïd du Hodna et oncle du bach-agha Mokrani, s'était retiré à M'Sila avec les femmes des oulad Mokrane. De ce point stratégique important, en dépit de son indolence naturelle, il organisa la résistance et poussa les tribus à la révolte. Maître de M'Sila, il tenta d'occuper Sidi-Aïssa et Bou-Saâda, pour agir librement dans toute la partie occidentale du Hodna et s'opposer aux marches offensives du côté de l'est. Son plan témoignait d'une certaine habileté ; mais il fut vite déjoué et réduit à néant par les opérations de nos chefs militaires et la promptitude qu'ils mirent dans l'action.

C'est en vain qu'il assiégea Bou-Saâda et qu'il chercha à détacher de la France les oulad Naïl ; il ne parvint à entraîner qu'une fraction des oulad Ameur. Le 3 juillet, à Roumana, à 10 kilomètres de Bou-Saâda, il enleva 2000 moutons aux Haouamed. Le capitaine de Beaumont, qui fit une sortie subite avec le goum de Si Zakri ben Boudiaf et un peloton de spahis, lui reprit tout ce bétail sur les bords du chott.

Après cet échec, le chef insurgé attaqua de nouveau Sidi-Aïssa, dont il tenta de s'emparer avec l'aide du caïd Ali ben Tounsi des oulad Ali ben Daoud. Repoussé, le 7 juillet, par le colonel Trumelet, qui était parti d'Aumale : avec ses troupes, il marcha de nouveau sur Bou-Saâda avec le concours, cette fois, des oulad Medja. Du 19 au 21, à la tête de 1500 hommes, il fit plusieurs démonstrations hostiles sous les murs de la ville ; et, le 23, il se décida à lancer 3,000 cavaliers dans l'oasis. Embusqués derrière les murs, les oulad Naïl et les hommes, commandés par le lieutenant Menetret et le caïd Sakri ben Boudiaf, les reçurent avec un feu bien nourri et habilement dirigé. À la première décharge, ils mirent 50 hommes hors de combat. Jugeant la partie trop

inégale, l'ennemi se replia en désordre. De son côté, le général Céres, à la tête d'un corps composé de 1200 hommes d'infanterie, de goums et de 4 pièces d'artillerie, partit d'Aumale le 4 août, pour se rendre maître définitivement de Sidi-Aïssa et aider au ravitaillement de Bou-Saâda. Par une vigoureuse et brillante attaque, le colonel Méric, le commandant Carrit et le capitaine Abd-el-Kader, placés sous les ordres du général, refoulèrent El Hadj ben Bouzid, frère de Saïd Boudaoud, et les Mokrani qui occupaient les villages d'Oum-el-Louza et de Kef-el-Ougab avec 2500 fantassins du Ksenna et 300 cavaliers des Eiachem et du Hodna. La route de Sidi-Aïssa jusqu'aux oulad Naïl une fois déblayée, le colonel Trumelet put ravitailler Bou-Saâda, avec 1200 chameaux et 500 mulets chargés de vivres et de munitions, non sans avoir engagé un combat sérieux dans le djebel Soltat près d'Aïn-Kerman.

Le général Céres poursuivit sa marche sur M'Sila où, de nouveau, Saïd ben Boudaoud s'était retranché avec les contingents. Mais le caïd, en présence de la défection des M'Sili, abandonna la ville; le général entra à M'Sila le 10 août, et le 14 repartit pour Aumale, où il arriva le 20.

Le 24, Boumezrag, Saïd ben Boudaoud et les autres Mokrane, profitant du départ de nos troupes, axaient de nouveau pénètre dans M'Sila, d'où il leur devint aisément d'envahir le Hodna et de commettre des actes de brigandage. Ils prirent et incendièrent le bordj de Megra, pillèrent et rançonnèrent toutes les tribus soupçonnées de fidélité à l'égard de la France. Le général Saussier, parti de Setif avec sa colonne, pénétra le 10 octobre dans M'Sila, où il fut rejoint, le 29, par le général Lacroix. Ce fut la fin de l'insurrection dans cette zone. Réduit à l'impuissance, Saïd ben Boudaoud se réfugia avec siens dans le djebel Maadid. (Pour de plus amples renseignements, nous renvoyons le lecteur à l'histoire de l'insurrection, par Louis Rinn. Ad. Jourdan, éditeur. 1871.)

Les M'Sili furent frappés du séquestration collectif et payèrent une contribution de 47,000 francs. Le quartier El-Kouch, où s'étaient groupés nos adversaires les plus acharnés, fut rasé. Dans la suite, les habitants furent autorisés à racheter leurs terres. Une partie de la ville, située sur la rive droite de l'oued Ksob et destinée à la création d'un centre de colonisation, demeura la propriété de l'Etat.

La commune mixte

Le territoire de M'Sila, qui dépendait, depuis le 13 novembre 1874, de la commune indigène de Bordj-bou-Arreridj, fut érigé en commune mixte par arrêté du Gouverneur général en date du 29 septembre 1884. En vertu d'un nouvel arrêté du 22 mai 1890, la superficie de ce territoire fut accrue par l'annexion de trois autres tribus.

Telle qu'elle est constituée actuellement, la commune mixte de M'Sila est située, dans le Hodna occidental, entre $2^{\circ} 40'$ et $i^{\circ} 33' 30''$ de longitude est, et entre $34^{\circ} 58' 30''$ et $35^{\circ} 58'$ de latitude nord. Elle est limitée au nord par les communes mixtes des Bibans et des Maadid ; à l'est, par l'annexe de Barika ; au sud, par les oulad Derradji Chéraga et par le cercle militaire de Bou-Saâda ; à l'ouest, par l'annexe de Sidi-Aïssa et la commune mixte d'Aumale.

La superficie de la commune est de 383,963 hectares, 85 ares, 81 centiares. Sa population s'élève à 30,000 habitants environ, tous indigènes répartis en tribus ou douars.

Les habitants nomads et sédentaires

Les tribus peuvent être classées en deux groupes distincts: les nomades et les sédentaires. Les nomades, comme les oulad Derradji, par exemple, réunis en " nezlat " (groupes de quatre à huit tentes), font, en automne, des labours et des semaines sur les terres qui leur sont attribuées et, qu'ils confient, ces travaux achevés, à des Khammes. Puis, au début de la période hivernale, ils partent avec leurs chevaux, leurs chameaux et leurs moutons sur les bords de la sebkhat du Hodna, où leurs troupeaux trouvent des pâturages suffisants. Ils reviennent au printemps pour vendre leur orge, leur blé et la laine de leurs moutons ; enfin, pendant la saison d'été, nouvelle émigration dans le Tell, entre Saint Arnaud, Sétif, Constantine et M'Sila, où bêtes et gens se répandent en quête de verdure, d'eau et d'ombre.

En général, ces nomades sont illettrés et n'ont que de rares tolba. Le chef de famille dispose sur ses enfants d'une grande autorité. Les filles n'héritent pas des terres, qui sont soumises au régime " arch "; elles ne peuvent prétendre, à la mort du père, qu'à une faible partie des biens meubles.

Les oulad Derradji sont, en particulier, très fanatiques et ont une grande vénération pour leurs marabouts thaumaturges, sur les restes desquels ils édifient des koubas. Ils suivent, dans leurs pratiques religieuses, le rite malékite. Les anciens Africains de la Numidie et de la Gétulie paraissent avoir contribué à la formation de ces tribus qui, avant leur fusion avec l'élément arabe envahisseur, au V^e et au XI^e siècle, adoraient le soleil, le feu et les astres.

Les sédentaires, comme à Bou-Saâda et à M'Sila, habitent des demeures construites rarement en pierres, le plus souvent en pisé ou en boue argileuse desséchée. Leurs matériaux de construction sont simples et élémentaires : ils pétrissent de la terre dans laquelle ils incorporent de la paille hachée, et mettent dans des moules en bois le mélange qu'ils font sécher au soleil. Les bois pour les supports, les plafonds, les encadrements leur sont fournis par les palmiers, les thuyas ou les genévrier.

Ils n'ont ni moutons ni chameaux, mais des chèvres, des bœufs, des mulets, des juments et des bourriquots pour la reproduction.

Ils se livrent presque uniquement à des travaux horticoles. Pour l'aménagement des eaux et les irrigations de leurs jardins plantés de figuiers, d'abricotiers, de pêchers, ils établissent des barrages élevés avec des fascines comprimées sous des amas de pierres et de terre battue. Si une crue subite enlève ces obstacles relativement fragiles, ils se remettent avec patience à la besogne pour réparer le mal.

Leurs terres " melk " sont transmissibles et les filles ont droit à un huitième de la succession. A M'Sila, il y a plusieurs industries dont quelques-unes révèlent un certain sens artistique: ils fabriquent des socs de charrue en bois et des ustensiles de ménage " gueçaa," plats; " metsred," plats à pied ; " stal," bol ; " mgharef," cuiller) ; dans l'industrie céramique, des " tadjin," plats en terre ; des " bermat" marmites; des " keskass," plats convexes et troués pour la cuisson du couscouss ; des "fenadjel" ou tasses ; dans l'industrie textile, des burnous, des haiks, des tapis tissés par les femmes ; quelquefois même, on rencontre des armuriers et des orfèvres habiles. Mais les artisans les plus remarquables sont les brodeurs sur filali.



Les transactions se font trois fois par semaine, le dimanche, le mercredi et le jeudi, sur trois marchés où sont mis en vente des moutons, des céréales et des dattes. C'est pour les usuriers l'occasion de fructueuses opérations.

Le centre lui-même de la commune de M'Sila est, par la situation, le coloris, le pittoresque et l'étendue du panorama, une délicieuse oasis qui peut rivaliser avec Bou-Saâda.

La ville s'étend sur les deux rives de l'oued Ksob. Dans la partie Est, sur la rive droite, a été construit le quartier européen qui est situé entre deux agglomérations de maisons arabes, El-Kouch et El-Argoub. A l'ouest, sur la rive gauche, c'est uniquement la cité arabe divisée en quatre fractions distinctes, Chettaoua, Ras-el-Hara, Djafra, Kherbat-Tellis, suivant les mosquées, les marabouts ou les origines. Toutes ces demeures indigènes ont été bâties, comme je l'ai dit, avec des briques en terre grise. On compte, dans la ville même, 4222 indigènes, 120 Européens et 95 israélites.

Quartier Europeen et ville arabe, le charlatan, les artisans, la petite princesse et la fille de fellah

Le quartier européen, qui a une assez longue étendue, comprend la maison et les bureaux de l'administrateur, l'habitation du docteur, trois hôtels, s'il vous plaît, où les chambres furent confortables et les mets choisis et abondants, une école et le moulin hydraulique de M. Fournier, un colon doublé d'un industriel actif et intelligent. Ces demeures sont égayées par des jardins, parmi lesquels celui de l'administrateur mérite une mention spéciale, à cause de son étendue, de la variété des essences, de la beauté des fruits et de la splendeur de la floraison.

M^{me} et M. Bruguier nous reçurent avec amérité et nous permirent de visiter ce jardin dont la végétation fait un contraste avec la sévérité de la nature et la banalité des constructions. Nous pûmes admirer à loisir des mandariniers et des citronniers chargés de fruits, des rosiers presque arborescents et déjà couverts de fleurs, des pépinières bien entretenues, des allées de palmiers, et surtout deux abricotiers gigantesques, sous lesquels il serait aisé d'abriter vingt convives ; en des enclos, tout un petit peuple de gallinacés vivant en bonne intelligence avec une gazelle.

Devant la maison et le jardin s'étend la place sur laquelle une fontaine donne une eau abondante. Au milieu, un boucher arabe débitait tranquillement un gros quartier de viande. Parmi les groupes d'Arabes circulait, en gesticulant, un individu d'étranges allures : sa face rasée et brutale de cabotin ou de forban, un chapeau haut de forme trop cirée, une longue redingote trop luisante et dissimulant mal l'absence de chemise, un faux col de blancheur douteuse, un pantalon élimé, des souliers éculés, toute une hideuse défroque venant du bric-à-brac, tout, dans le personnage, révélait des origines louche, un passé sinistre.

C'était un charlatan qui s'offrait à la crédulité de naïfs clients comme médecin, dentiste, oculiste, rebouteur, faiseur de miracles et guérisseur de tous les maux; avec une superbe assurance ou un effroyable toupet, il n'hésitait pas à vendre ses drogues, ses panacées universelles et, chose plus grave en un pays où les ophthalmies sont si fréquentes, à toucher de ses doigts sales des yeux malades, et à curer l'intérieur des paupières avec la pointe d'un canif. Il est vrai qu'il était muni d'un diplôme de pédicure.



M'SILA

Kouba dans le cimetière arabe.



M'SILA.

Sur un monticule se dresse la cité qui semble s'être assoupie dans un silence de nécropole.

En bordure sur la place, une rangée d'échoppes où des indigènes fabriquent des objets en cuir relevé de broderies d'or, d'argent et de soie polychrome. Ces brodeurs sur "filali" (cuir rouge et souple de belle qualité) ont une réputation qui s'étend dans toute la région. Sur les "djebira" (sacoches), les carnets, les chaussures arabes, les pantoufles, les bottes, les brides, les selles, ils dessinent, en fines arabesques d'or ou de soie, les ornements les plus capricieux ; rosaces, dentelures, caractères arabes tout sert de motifs de décoration.

Accroupis-en de bas et étroits réduits, ils manient l'aiguille avec une surprenante agilité. Ils ne reçoivent que par une seule ouverture, par la porte, une lumière oblique qui s'accroche, en étincelles, sur les fils d'or et éclaire de reflets ivoirins les doigts amaigris, les visages émaciés et osseux d'artisans, dont toute l'existence s'écoule dans la pénombre de leur cellule.

A côté d'eux, des bouchers, des épiciers et des cafés indigènes, toujours installés et disposés de la même façon : quelques nattes sur le sol, des bancs le long des murs ; au fond, dans une demi-obscurité, le minuscule foyer sur lequel se prépare, dans des cafetières à long manche, un moka peu recommandable. Une lampe à pétrole suspendue au plafond et des chromolithographies donnent à ces salles l'aspect d'un cabaret de banlieue.

D'habitude, ces cafés sont à proximité de la maison des filles arabes.

A M'Sila, ces femmes nous parurent plus misérables qu'ailleurs. Le dénûment et la tristesse de l'une d'elles excita notre commisération. Dans sa chambre nue, pas même un peu de feu; sur les carreaux humides et gras, une simple natte. Une petite collecte rendit un peu de joie à ses yeux attristés.

Non loin, sur la même place, un orfèvre qui n'a pour ustensiles qu'un foyer primitif, un marteau, un burin et une lime, convertit sous nos yeux un lingot d'argent en cuillers à sel et en bracelets à forme de serpents annelés.

Les quartiers de la rive gauche

De là, nous passâmes sur le pont qui relie les deux parties de la ville. Ce pont, j'ai le regret de le dire, est beau, il est trop beau même et gâte nos sensations par sa structure et son modernisme. Il barre de sa masse brutale un délicieux paysage.

Les scènes de la rue

Je ne sais rien de plus séduisant que la rivière, les jardins, le quartier arabe, vu de la rive droite.

C'est l'hiver, mais un hiver très doux avec des colorations spéciales. Dans les vergers, clos de murs, les arbres ont des tons gris, roux jaunes et dorés, d'une exquise harmonie, d'un coloris de vieille tapisserie.

Au-dessus de cette frondaison, les palmiers se balancent majestueux, disséminés, isolés ou par bouquets de trois ou quatre arbres. Plus beaux qu'en masse compacte, ils profilent leurs verts panaches entre les cônes des chapelles funéraires.

Dans le bas du val, l'oued Ksob développe mollement sa courbe, et, suivant l'heure de la journée, se teinte de nuances invraisemblables ; c'est de l'améthyste liquéfiée ou de l'or en fusion.

La cité, sur laquelle le temps semble avoir mis sa patine et ses grisailles, domine cet ensemble. De loin, on la croirait assoupie dans un silence de nécropole. C'est bien le ton qui convient à l'ambiance et à la synthèse des choses.

Les rues v sont étroites et sales. Comme à Bou-Saâda, les maisons ont, sur les ruelles, des saillies de grossiers moucharabis, de petites lucarnes d'où l'on voit, sans être vu, l'étranger qui passe. Souvent un escalier extérieur donne accès dans le logis ouvert à tous les vents. Sur les terrasses, les chiens bondissent avec des jappements furieux, le museau grimaçant et les dents découvertes en un rictus. Dans tout le pays arabe, on retrouve ces animaux qui tiennent autant du chacal que du chien et qui sont facilement reconnaissables à leur museau pointu, à leurs oreilles droites, à leur poil jaune, à leur queue en touffe.



M'SILA

Plus beaux qu'en masse compacte, les palmiers profilent leurs
verts panaches entre les cônes des chapelles funéraires.



M'SILA

Un escalier extérieur donne accès dans le logis ouvert à tous les
vents.

L'aménagement intérieur de ces maisons ne varie pas.

Dans les rues, les fillettes et les petits garçons se pressaient autour de nous. Dans le nombre, nous remarquâmes des types charmants. Les petites filles ont presque toutes sur le visage un tatouage spécial : une croix sur chaque joue, une ligne courte sur le front ; et sur le menton, deux petites croix superposées et soulignées d'un trait bref.

Deux d'entre elles attirèrent surtout notre attention par la beauté de leurs yeux, la finesse de leurs attaches, la grâce et la souplesse de leur démarche. La première, appartenant à une famille aisée, sans doute, avait les allures et le costume d'une petite princesse byzantine : elle était vêtue d'une sorte de péplum de soie brochée très ancienne de couleur vert passé. D'un foulard noir et or s'échappait sa chevelure presque blonde en laquelle le henné avait mis des reflets roux. Elle avait aux oreilles des anneaux évasés. Des chaînettes et de fins bracelets en vieil argent complétaient sa parure.

Elle était debout sur un tertre dans un rayon de soleil. A côté d'elle, un mouton blond, dans la toison duquel elle promenait ses doigts délicats. Elle nous regardait fixement. Nous lui offrîmes, une pièce de monnaie. Dans ses yeux verts et changeants passa une flamme de colère et de mépris. La pièce refusée fut donnée à sa sœur. . . . Notre petite princesse alors, très pâle, cracha sur l'enfant qui avait accepté une aumône.

La seconde fillette, Fatimah, fille de fellah, n'avait qu'un vêtement en coutil, reprisé et maculé. Ses bras nus étaient dépourvus de bijoux et les mèches folles de ses cheveux sortaient d'un pauvre chiffon. Mais sa grâce, ses yeux noirs et veloutés, son profil pur, l'harmonie de ce petit corps dont on devinait les lignes sous le vêtement, tout cet ensemble était si charmant, que notre admiration fut également partagée entre la petite princesse et la fille de fellah.

Les trois mosquées: Bou Djemlin, Si Omar Ben Abid

Apres les scènes de la rue, nous allâmes visiter les trois principales mosquées ; d'abord la plus célèbre, la mosquée de Bou Djemlin. On pénètre dans une sorte de patio compris entre deux rangées, de lourds arceaux. Seule la porte qui clôt le sanctuaire, où est enseveli le marabout "aux deux chameaux," à quelque caractère. Elle est composée de petits losanges rouges, noirs et jaunes, et, encadrée de vieilles faïences ainsi qu'une fenêtre voisine.

KHERBAT-TELLIS; LA PLAINE DE M SILA

Près de cette porte, à une hauteur de 1 m. 50, émergent du mur deux poutrelles horizontales auxquelles ont été fixés deux anneaux en fer, séparés par la distance qu'embrasseraient deux longs bras étendus. L'oukil, interrogé par nous, nous expliqua que les femmes stériles, qui parviennent à saisir simultanément les deux anneaux, sont exaucées et deviennent mères ! . . . Or, comme des bras de chimpanzé ont seuls une extension suffisante pour couvrir cette distance, j'incline à penser que le saint marabout a voulu se moquer des femmes et que, seuls, les maris, en pareille occurrence, sont en état de leur donner satisfaction.

La zaouïa de Bou Djemlin existe toujours, mais elle est bien déchue de son ancienne prospérité.



M'SILA.

MOSQUÉE DE BOU DJEMLIN.

La mosquée apparaît grandiose dans sa simplicité et son archaïsme



M'Sila.

Intérieur d'une
Koubba.

Les Koubbas demeurent, à travers
les âges dans l'immensité de la plaine
silencieuse, comme les témoignages
de la vénération des idoles pour
leurs marabouts.

La mosquée apparaît grandiose dans sa simplicité et son archaïsme. Le plafond, composé de poutres transversales en genévrier et en thuya, est soutenu par des colonnes aux chapiteaux effrités par les ans. Ce premier sanctuaire de la cité naissante est bien un lieu de prière.

La mosquée de Si Omar ben Abid fut détruite, en 1885, par un tremblement de terre. Elle a été remplacée par une vilaine construction moderne, sans style, à l'aide d'une subvention allouée par le gouvernement. Dans la cour de cette mosquée on remarque des colonnes en pierre dont le chapiteau est constitué par deux rondins parallèles qui rappellent les supports en bois des constructions primitives.

La mosquée de Kherbat-Tellis, également détruite en 1885, a été réédifiée en 1897. Bon Tellis (l'homme au sac) n'est pas le seul à être vénéré en cet oratoire. Un vieil Arabe nous apprit, en effet, qu'un autre marabout, Si Amar bon Djemaa, y est aussi l'objet d'un certain culte. Ce qui fut pour me surprendre ; car Sidi bou Djemaa, originaire de la montagne des Nara, vécut et mourut à Tlemcen où tous les musulmans ont conservé son souvenir. D'abord berger, il entendit la voix de Dieu, devint son ouali et s'absorba dans l'extase, dans l'"âcheuk." Il s'était installé sur une pierre à la porte d'El-Guechout ; et là, sans jamais bouger, pareil à un fakir de l'Inde, il vécut des aumônes et de la libéralité des passants.

La mosquée de Kherbat-Tellis, à défaut d'autres avantages, a un minaret dans lequel on ne peut se hisser qu'en rampant, mais d'où l'on a une vue admirable. Ce sont d'abord les monts voisins découpés en molles ondulations violettes avec des taches de lumière et d'ombre; la plaine de M'Sila parsemée de dômes ovoïdes, s'élevant sur des cubes ; et toutes ces koubas demeurent, à travers les âges, comme les témoignages de la vénération des fidèles pour leurs marabouts. S'il m'est permis d'exprimer un voeu, je souhaiterais que le gouvernement veillât à l'entretien de ces vieux monuments et de tous ces vestiges si intéressants.

De l'autre côté s'étend, en teintes graduées jusqu'aux brumes légères de l'horizon, le Hodna qui s'estompe déjà dans les tons opalins d'un coucher de soleil.



(الفصل العاشر

مسيرة

قبل أن آخذ القارئ في جولة في المسيلة، سأستبين بإيجاز أصول هذه المدينة القديمة. لقد استندت إلى بعض الوثائق غير المنشورة، التي جمعها السيد بيلوت ونقلها السيد بروغوييه رور لإعادة كتابة هذه القصة. تقول الأسطورة إن الزعيم الأكبر لطريقة دينية وهو سيدي بن حلول قد غادر المغرب العربي في القرن السابع في قافلة وقرر بإلهام من الله أن يبني مسجداً في المكان الذي ستتوقف فيه جماله. توقفت الحيوانات على ضفاف وادي القصب، حيث تم بناء أول مبنى في المسيلة على بعد 4 كيلومترات من أنقاض مدينة الزاب البربرية (بشيلاقة) والتي دمرها الوندال وأعيد بناؤها تحت اسم جستنيانا عام 539. في الوقت نفسه الذي استقر فيه سيدي بن هيلول، حل زعيم آخر، يُدعى التليس مع عائلته وعدد قليل من أتباعه المخلصين على الضفة اليسرى لوادي القصب. وأضيفت إلى المنازل التي شيدها لنفسه ولأسرته منشآت أخرى. كانت البلدة الصغيرة قد تمتد إلى حد كبير بعدما دمرها الخارجيون. لم تقم من أنقاضها إلا عام 927. في ذلك الوقت، وصل الفاطمي أبو القاسم إسماعيل بن عبيد. هذا الأخير، في نفس موقع خربة تبليس، قام برسم الحدود بجانب سور المدينة المستقبلية التي تم بناؤها تحت إشراف سي علي بن حمدون الجذامي. سميت في البداية المحمدية، ثم أخذت اسم المسيلة لأنها مطلة على النهر (المسيلة مشتقة في الواقع من "السيل" وهو الماء المتدفق). وكان علي بن حمدون الأندلسي أول حاكم لها.

كانت المسيلة مركزاً استراتيجياً مهماً ونقطة تجارية مثيرة للإعجاب تربط بين التل والمناطق الجنوبية لذلك لم تتأخر في الازدهار. لسوء حظها، ظلت هذه المنطقة مقفرة منذ عام 1050 ودمرت تقرباً. لم تسترد الحياة ولم تنتعش إلا في القرن الثالث عشر، وذلك بعد وصول رجل دين هو سي محمد بن عبد الله المغربي، من مواليد فاس والملقب بـ بو جملين، أي الرجل صاحب الجملين. سمي هكذا لأنه حج إلى مكة أربعين مرة مع جمليه دون أن يصيغ لها الكبير. أسس بو جملين زاويته الشهيرة، وبعد وفاته شيد مسجد على قبره الذي لا يزال يحتل مكانة كبيرة في البلاد.

بو جملين، الذي صنع المعجزات كان له منافس حسود وهو المرابط محمد اوعلي. كان هذا الشخص متساء من تضاؤل نفوذه خصوصا وأن أهالي الحضنة كانوا جمیعاً يتوجهون نحو زاوية منافسه. استخدم قوته الخارقة وحول مسار وادي بوسالم الذي كان سابقاً يخصب سهل الحضنة كله... كما تقول الأسطورة.

هناك مرابط آخر في المنطقة هو سيدى حملة الذي كان يقود بعض العناصر وأصبح مؤسس قسمة أولاد سيدى حملة. ينحدر نسل بو جملين من الجعافرة. نشبت سلسلة كاملة من الثورات ضد الخلافة الحفصية في تونس من سنة 1318 إلى 1346 ومن سنة 1394 حتى 1510، ومنها وسع أحد أعضاء مملكة بجاية سلطته إلى المسيلة.

في عام 1510 استولى الأتراك على بجاية وحصنوا المسيلة. تزوج هؤلاء الجنود مع النساء المحليات. وحتى اليوم، يدعى سكان ثلث مناطق في المدينة أنهم منحدرون مباشرةً من هؤلاء الأتراك الذين تكونوا في المسيلة وتمتعوا بامتيازات خاصة.

في بداية عام 1229 هجرية (كانون الثاني/ يناير 1824)، ثار أهل بوسعدة، تحرك فيلقان في وقت واحد لقمع الثورة الأولى من قسنطينة بقيادة محمد نعمان باي، والآخر من الجزر العاشرة بأمر من باشاغا عمر. اضطرت القوات التركية التي صدتها المتمردون إلى الاحتماء في المسيلة. انتهز عمر الفرصة لتنفيذ خطة طويلة المدى، فقد أراد التخلص من نعمان باي قسنطينة، لينصب مكانه صاحبه المفضل تشاكار.

احتجز ضحيته التي لم يتمكن الجنود من الدفاع عنها بعد أن أنهكthem المعركة الطويلة ونالت منهم الهزيمة. ولما حان الزمان والمكان المناسبين، انقض خادمان ذات ليلة على الباي البائس خنقًا ليخلفه فيما بعد تشاكار. دفن جثمان نعمان عند مدخل مسجد بوجملين، وهناك صfan من الـاجر يشيران حالياً إلى مكان دفن الرجل صاحب الشخصية المهمة وليس على قبره كلمة رثاء واحدة. ادعى أتباع المقراني لفترة طويلة امتداد سلطتهم إلى المسيلة، وكان على بايات قسنطينة في عدة مناسبات التصدي لهجمات أولاد مقران. بعد معركة المرجة الزرقة غربي سطيف في 29 يوليو 1840، كان الحاج مصطفى، صهر عبد القادر، قد لجأ إلى المسيلة وبقي هناك لمدة عام واحد فقط

حتى مجيء الجنرال نيفري¹ عام 1841 وعسكرته هناك. في عام 1845، أرسى الجنرال بيدو قائد قسمة قسنطينية سلطة أولاد المقراني في المسيلة. وخلال شهر أوت من العام التالي سلم العقيد إينارد المسؤول عن تنظيم إدارة هذه المنطقة بأكملها خلافة الحضنة لسي أحمد بن محمد المقراني. في عام 1848 وصل العقيد كانروبيرت². وفي عام 1849، قمع العقيد كاربوتشيا³ تمرد بعض القبائل وكانت البلاد هادئة نوعاً ما. لكن الحضنة عانت مرة أخرى ظروف المجاعة والحمى النمشية سنة 1867. وانتهى بها المطاف إلى ثورة 1871.

¹ نيفري: هو فرنسوا مارسي كاسمير نيفري أحد جنرالات فرنسا، ولد في (27 أبريل 1788م) بمانس، دخل الجيش الفرنسي متطوعاً عام (1806م)، قاد أول حملة على قسنطينية عام (1837م) وأول محاولة لاحتلال المسيلة عام (1841م)، توفي في (24 جوان 1848م). ينظر:

D'HAUTERIVE (Borel) et REVEREND (Vte Albert): *Annuaire de la noblesse de la France*, Vol 56^{ème}, 58 anné , Bureau de la publication et chez hovoré champion, Paris, 1900, P 227.

² العقيد فرانسوا سرتين كانروبير (François Certain Canrobert) كان ضابطاً بارزاً في الجيش الفرنسي خلال القرن التاسع عشر، تولى قيادة العديد من الحملات العسكرية في منطقة الحضنة.

³ العقيد جان-لوك كاربوتشيا كان ضابطاً بارزاً في الجيش الفرنسي ولد في كورسيكا عام 1808 وتوفي في 17 يوليو 1854 خلال حرب القرم، قاد الفيلق الأجنبي الفرنسي الثاني وكان له دور كبير في العمليات العسكرية في منطقة الحضنة.

المسيلة خلال ثورة 1871 م

لعبت المسيلة دوراً مهماً خلال الانتفاضة في الفترة الممتدة من 3 جويلية إلى 24 أكتوبر 1871. بعد معركة وادي بوعساكر التي وقعت في جوان، انسحب سعيد بن بوداود¹ قائد الحضنة وعم الباشاغا المقراني نحو المسيلة مع نساء أولاد مقران لأن المسيلة منطقة استراتيجية. وعلى الرغم من نعومة يديه، قام بتنظيم المقاومة وحث القبائل على التمرد. جعل من نفسه سيدا على المسيلة، فحاول احتلال سidi عيسى وبوسعدة لتسهيل التحكم بحرية في جميع أنحاء الجزء الغربي من الحضنة والتصدي للحملات الهجومية على الجانب الشرقي. أظهرت خطته مهارة معينة؛ ولكن سرعان ما أحبط وأحمدت تحركاته أمام اجتياح قادتنا العسكريين الذين أبدوا سرعة ومهارة في التنفيذ.

حاول بلا جدوى محاصرة بوسعدة وسعى لفصل أولاد نايل عن فرنسا. فقد تمكّن من تدريب بعض الأفراد من أولاد عامر. في 3 جويلية بالرمانة التي تبعد 10 كيلومترات عن بوسعدة، استولى على 2000 رأس من الأغنام من الحوامد. لكن النقيب دي بومون، الذي قام بعملية استطلاعية مفاجئة مع غoom سـي صخري بن بوضياف² وفصـيلة من السـبايسـية،

¹ السعيد بن بوداود: من أبناء عمومة محمد المقراني، شارك بن بوداود قبل ثورة (1871م) في مقاومة أولاد سيدى الشيخ عام (1864م) بالجنوب الوهراني، عيـنه المقراني قائدا على إقليم الحضنة لمواجهة تقدم الجيش الفرنسي نحو منطقة المسيلة ومعاقبة عملاء فرنسا و منهم الصخري بن بوضياف، تمكـن بوداود رفقة بومرزاق من استرجاع المسيلة من قوات الجنـزال سـيرـيز في (24 أوت 1871م). عن مراحل استرجاع المسيلة ومساهمة بن بوداود في مقاومة 1871 يـنظر:

RINN (Louis): *Histoire de l'insurrection de 1871*, Op.cit, p 551-563.

² بن بوضياف: ينتهي الصخري بن بوضياف إلى عائلة بن بوضياف الـريـاحـينـ، امتدت عائلة بن بوضياف بين بـسـكـرةـ وبـسـعـادـةـ وـالـمـسـيـلـةـ، أـعـلـنـ بـنـيـ بـوـضـيـافـ وـلـاءـهـ لـلـفـرـنـسـيـينـ حـيـثـ اـتـصـلـ أـحـدـ

أوقفه عند ضفاف الشط واستعاد كل الماشية. بعد هذا الفشل، هاجم زعيم المتمردين سيدى عيسى مرة أخرى وحاول الاستيلاء عليها بمساعدة القائد علي بن تونسي من أولاد علي بن داود. وفي 7 جويلية، انسحب بقواته إلى بوسعادة بمساعدة أولاد ماجة هذه المرة بعد أن اصطدم بجيش العقيد ترومليت القادم من صور الغزلان. من التاسع عشر إلى الحادي والعشرين من الشهر أطلق عدة هجمات على أسوار المدينة ومعه 1500 رجل. وفي الثالث والعشرين من الشهر، قرر إرسال 3000 من سلاح الخيالة إلى الواحة. كان في انتظاره أولاد نائل ورجال بقيادة الملائم الأول ميناترت والقائد صخري بن بوضياف في كمين نصبه له خلف الجدران وأمطروهم بنيران كثيفة ومنظمة. أسفرت الطلقات الأولى عن شل 50 رجلاً مما جعل العدو يدرك تفاوت الموازين ويقع في حالة من الفوضى. انطلق من جهة أخرى، اللواء سيريس على رأس فيلق من 1200 من المشاة والغوميين و4 قطع مدفعية من صور الغزلان في 4 أوت، وذلك بهدف السيطرة المائية على سيدى عيسى وتقديم الإمدادات لمنطقة بوسعادة. أقدم كل من العقيد ميريك والقائد كارييت والنقيب عبد القادر على شن هجوم عنيف ورائع، وبأمر من القائد تمكنا من طرد الحاج بن بوزيد، شقيق سعيد بوداود، والمقراني الذين احتلوا قرى الملوزة وكاف العقاب مع 2500 من مشاة أكسانة و300 من الخيالة من الهاشم والحضرنة. تم تطهير الطريق من سيدى عيسى إلى أولاد نايل دفعة واحدة، وتمكن العقيد ترومليت من إمداد مدينة بوسعادة بـ 1200 جملًا و500 بغالاً محملين بالطعام والذخيرة دون أن ننسى مشاركته في معارك شرسّة في جبل سلطان بالقرب من عين خرمان.

أعيان عائلة بن بوضياف وهو "احمد بن بوضياف" بالمارشال "بيجو" سنة (1845) وعرض عليه خدمات جيشه، انضم الصخري بن بوضياف إلى الجيش الفرنسي سنة (1871م)، أين كف بمراقبة تحركات بومرزاق، ينظر:

RINN (Louis): *Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie*, Op.cit, P 28.

وأصل الجنرال سيراس سيره نحو المسيلة حيث، تحصن سعيد بن بوداود مرة أخرى مع المجندين. لكن القايد، في ظل الانشقاقات هجر المسيلة؛ ودخل إليها الجنرال سيراس في 10 أكتوبر، وفي اليوم الرابع عشر غادر إلى صور الغزلان ووصل إليها في 20 من الشهر.

في اليوم الرابع والعشرين، اقتحم بومزارق وسعيد بن بوداود والمقرانيون الآخرون مدينة المسيلة مستغلين رحيل قواتنا، مما سهل عليهم غزو الحضنة وتنفيذ عمليات السطوة. فاستولوا على برج مغرة وأضرموا فيه النار، ونهبوا كل القبائل المشتبه في ولائهم لفرنسا. انطلق الجنرال سوسييه من سطيف مع طابوره العسكري ودخل المسيلة في 10 أكتوبر، حيث انضم إليه في 29 أكتوبر الجنرال لاكرروا. كانت هذه نهاية الانتفاضة في المنطقة. لجأ سعيد بن بوداود مع أسرته إلى جبل العاضيد بعد أن خارت قواه. لمزيد من المعلومات نحيل القارئ إلى "تاريخ الانتفاضة"، بقلم لويس دين، أد. جورдан، طبعة، 1871).

أجبر المسيليون على دفع اشتراك قدره 47 ألف فرنك كضريبة جماعية. تم تدمير حي الكوش وألقي القبض على أشرس أعداءنا بالمكان. بعد ذلك، سمح للسكان باسترداد أراضيهم. وظل جزء من المدينة الواقع على الضفة اليمنى لوادي القصب والمخصص لإنشاء مركز استعماري ملگاً للدولة.

أعلن أن منطقة المسيلة مدينة مختلطة بعدما كانت تابعة منذ 13 نوفمبر 1974 لبلدية برج بوعريريج وذلك بأمر من الحاكم العام بتاريخ 29 سبتمبر 1884. وفي 2 ماي 1890، تم توسيع مساحة هذه الأرض بضم ثلات قبائل أخرى.

تقع بلدة المسيلة المختلطة غرب الحضنة بين خط طول $2^{\circ}40'0$ و $1^{\circ}33'.30'$ شرقاً، وبين دائري عرض $34^{\circ}58'30'$ و $35^{\circ}58'$ شمالاً. يحدها من الشمال البلديات المختلطة البيبان والمعاضيد؛ ومن الشرق ملحقة بريكة؛ ومن الجنوب أولاد دراج الشرقاية والدائرة العسكرية لبوسعادة، ومن الغرب ملحقة سيدي عيسى وبلدية صور الغزلان المختلطة. تبلغ مساحتها 383963 هكتاراً و85 آراً و81 سنتياراً. ويبلغ عدد سكانها حوالي 30000 نسمة، جميعهم من السكان الأصليين مقسمون إلى قبائل أو دواوير.

حياة البداوة والاستقرار

ويمكن تصنيف هذه القبائل إلى مجموعتين متمايزتين: البدو والمقيمون. البدو مثل أولاد دراج، الذين تجمعوا في "نزلات" (مجموعات من أربعة إلى ثمانية خيام)، يحرثون في الخريف، ويزرعون الأرض المعهودة لهم على أن يقوم عليها الخناس. في فصل الشتاء يغادرون مع خيولهم وجمالهم وأغنامهم إلى أطراف سبخات الحضنة لتوفير المراعي الكافية لقطعاهم. يعودون في الربيع ليبيعوا شعيرهم وقمحهم وصوف أغنامهم. وأخيراً، يهاجرون مرة أخرى خلال فصل الصيف إلى التل المحصور بين سانت ارنولد العلمة حالياً وسطيف وقسنتينيـة والمسيلة، هناك تنتشر الحيوانات والناس بحثاً عن المساحات الخضراء والمياه والظل.

بشكل عام، هؤلاء الرحل أميون ولديهم عدد قليل من الطلبة. لرب الأسرة سلطة كبيرة على أبنائه. حيث لا ترث البنت الأرض التي تخضع لنظام "العرش" لكن يمكنها المطالبة عند وفاة الأب بجزء صغير فقط من الممتلكات المنقوله.

إن أولاد دراج، على وجه الخصوص، متعصبون للغاية ولديهم تجحيل كبير لمرابطهم الذين يثبتون المعجزة، فيبنيون القبة على مراقدhem. ويتبعون مذهب المالكية في ممارساتهم الدينية. يبدو أن الأفارقة القدماء في نوميديا وقىتوانيا قد ساهموا في تكوين هذه القبائل التي كانت تعبد الشمس والنار والنجوم قبل اندماجها مع الجنس العربي الغازي ما بين القرنين الخامس والحادي عشر.

يعيش السكان المستقرن، كما في بوسعدة والمسيلة، في مساكن نادراً ما تكون مبنية من الحجر، وغالباً ما تكون مبنية من اللبنات أو الطين المجفف. مواد بنائهم بسيطة وأولية. يعجنون الأرض المبلولة التي يضيفون لها القش المفروم ويضعون الخليط في قوالب خشبية ثم يجفونها في الشمس. يتم جلب خشب الدعامات والسقوف والإطارات من أشجار النخيل أو الطواية أو العرعار.

ليس لديهم غنم ولا إبل، بل يربون الماعز والبقر والبغال والأفراس والحمير. يمارسون بشكل حصري أعمال البستنة. وذلك من أجل تسخير المياه وري حدائقهم من أشجار التين والمشمش والخوخ، لذلك أقاموا سدوداً عالية مع حواجز مضغوطة تحت أكواام من الحجارة والأرض المطروفة. فإذا حدث فيضان مفاجئ ودك هذه السدود الهشة، فإنهم يعودون بكل صبر لإصلاح الضرر.

أراضيهم "الملك" قابلة للتحويل وللبنات ثمن الترفة. توجد في المسيلة العديد من الصناعات، بعضها يكشف عن ذوق فني معين. فهم يصنعون المحاريث الخشبية والأواني المزليمة مثل: القصعة (الطبق) والمثلث (طبق بأرجل) والسطل (الوعاء) والمغرف (الملعقة) إضافة إلى الأواني الفخارية مثل الطاجين (الطبق الأرضي) والبرمة (أو القدر).



المسيلة

هي المدينة من الجهة اليمنى للواد

وأواني الطبخ مثل "الكسكاس" وهي أطباق محدبة ومثقبة لطهي الكسكس والفنجال (الكؤوس). بالنسبة لصناعة النسيج نجد البنوس والحايك والسجاد الذي تنسجه النساء؛ وفي بعض الأحيان نقابل صانع الأسلحة وصانع الذهب الماهرین. لكن أبرز الحرفيين هم مطرزو الملابس الصوفية.

تمت المعاملات ثلاثة مرات في الأسبوع، أيام الأحد والأربعاء والخميس، في ثلاثة أسواق تباع فيها الأغنام والحبوب والتمور. إنها فرصة للصفقات المربيحة للباعة. إن مركز المسيلة من حيث الوضع واللون والروعة ومدى المناظر عبارة واحدة لذينده في حد ذات يمكن أن ينافس بوعادة.

الحي الأوروبي، المدينة العربية، المشعوذ، الحرفيون، الأميرة الصغيرة وبنت الفلاح

تمتد المدينة على ضفتي وادي القصب. في الجزء الشرقي، وعلى الضفة اليمنى تم بناء الحي الأوروبي الذي يقع بين كتلتين من البيوت العربية، الكوش والعرقوب. إلى الغرب وعلى الضفة اليسرى نجد المدينة العربية مقسمة إلى أربعة أقسام متمايزة وهي الشتاوة ورأس الحارة والجعاقة وخربة التلليس وهي تسميات مرتبطة بالمساجد أو المرابطين أو الأصول. تم بناء كل هذه المساكن الأصلية، كما قلت، بالطوب الترابي الرمادي.

في المدينة نفسها، هناك 4222 من الأهالي و120 أوروبياً و95 يهودياً.

تحتوي الحي الأوروبي، الذي يتربع على مساحة طولية إلى حد ما، على منزل ومكاتب الإدارة، ومسكن الطبيب، وثلاثة فنادق، إن صح التعبير، حيث تضم غرفاً مريحة وطعاماً مختاراً وفييراً، ومدرسة ومطحنة هيدروليكيّة للسيد فورنييه، وهو معلم صناعي نشيط وذكي. تنشئ هذه المساكن بالحدائق، ومن بينها منزل المدير الذي يستحق ذكرًا خاصًا، نظراً لاتساعه وتنوع الزخارف وجمال التumar وروعة الأزهار.

استقبلتنا السيدة والسيد بيرغبيه بكل راحة وسمحوا لنا بزيارة هذه الحديقة التي يتناقض نباتها مع قسوة الطبيعة وتفاهة المباني. تمكنا من الاستمتاع بأشجار اليوسفي والليمون المليئة بالفاكهه وشجيرات الورد المرتفعة والمغطاة بالفعل بالزهور، وكذلك المشاتل المعنى بها جيداً، وصفوف أشجار النخيل، ولا ننسى شجرتي المشمش العمالقتين، حيث يمكن لعشرين ضيفاً أن يجلس تحتها. تم تخصيص حاويات لمجموعة صغيرة متكاملة من أسماك الجالينا التي تعيش في ظروف جيدة تماماً مثل الغزال.

أمام المنزل والحدائق بنيت نافورة مياه تمتد على الساحة. كان في منتصف الساحة جزار عربي يقطع بهدوء قطعة كبيرة من اللحم. وحوله مجموعات من الأعراب المتراحمين بإيماءات أصابعهم، ثم ظهر شخص غريب المظهر: وجهه حليق مستهتر ووحشي كأنه قرصان بقعبته العالية المشمعة ومعطفه الطويل من القماش شديد اللمعان. يخفي ما يلبسه من قمصان... يخفي وجهه بطوق أبيض، سرواله رث وحذاوه مهترئ. فعلا عليه كومة من الخرق البالية، وكل هذا يكشف عن الأصول الشريرة للشخصية المظللة.

لقد كان دجالاً يستغل سذاجة الزبائن ويتظاهر بأنه طبيب أو طبيب أسنان أو طبيب عيون وعظام له معجزات ومعالج لجميع العلل؛ بدا واثقاً من نفسه ولم تتحرك أعصابه في بيع أدويته، يتمثل دواءه الشامل في علاج السقم الأكثر خطورة في البلد حيث الرمد المزن. كان يلمس العيون المريضة بأصابعه المتسخة، ويعالج الجزء الداخلي من الجفون برأس سكين. يفترض أنه حاصل على شهادة في العناية بالأقدام.



المسيلة / قبة في المقبرة العربية



المسيلة / ...تبعد المدينة من بعيد وكأنها تغفو في صمت كصمت
القبور...

تصطف على حافة الساحة مجموعة من الأكشاك يصنع فيها السكان أمتعة جلدية مزينة بتطريز ذهبي وفضي وحرير متعدد الألوان. تشمل هذه المطرزات على "الفيلالي" وهو جلد أحمر رفيع يتمتع بسمعة واسعة في جميع أنحاء المنطقة. حيث يرسمون على "الجبيرة" (الحقيقة) نقوشاً عربية فاخرة من الذهب أو الحرير وكذلك على الدفاتر والأحذية العربية والنعال والأحذية الطويلة واللجام والسرور. من الحلبي المفضلة ذكر الوريدات والتعرجات والأحرف العربية فهي نفسها تعتبر رسوماً زخرفية.

يجلسون القرفصاء بجوارهم الضيقة، ويغزون الإبرة بحركة خفيفة مدهشة. يتعاملون مع الزبائن عبر فتحة وحيدة في الباب، ينطلق ضوء مائل يتفرع في شعاعات تنعكس على الخيوط الذهبية وينير بياض أصابع الحرفيين الهزيلة ووجوههم العظمية. كأن الكون كله انحصر في بقة الضوء التي يجلسون فيها.

بجانبهم يستغل الجزارون والبقالون والمقاهي المحلية بنفس الديكور حيث فرش عدد قليل من الحصر على الأرض ومقاعد مصطبة على طول الجدران. تم وضع موقد صغير في الخلفية شبه المظلمة وقد أعد خصيصاً لتحضير الموكا كريمة في أباريق القهوة ذات المقبض الطويل. مصباح الكيروسين المعلق من السقف والرسوم الحجرية الملونة تجعل هذه الصالة وكأنها ملهى محلي. تكون هذه المقاهي عادة قريبة من مرافق المؤسسات العربيات.

بدت لنا تلك الفتيات المسيليات أكثر بؤساً من أي مكان آخر.
كانت إحداهن مثيرة للشفقة بغرفتها المهجورة حيث لا تجد حتى موقداً صغيراً
سوى بساط عادي مفروش على البلاط المبلل الدهني، كانت حفنة من النقود
كافية ببث القليل من الفرح لعيونها الحزينة.

في نفس المربع وليس بعيداً ينشر صائغ الذهب أدواته المتمثلة في موقد
بدائي ومطرقة وإزميل وملف، راقبناه وهو يحول سبيكة فضية إلى ملاعق ملح
وأساور على شكل ثعابين حلقية.

أحياء الضفة اليسرى، مشاهد من الشارع

ومن ثم عبرنا الجسر الذي يربط جانبي المدينة. من المؤسف
أن يكون في هذه المدينة هذا الجسر الجميل، الفائق الجمال لدرجة أنه يفسد
مشاعرنا بهندسته وحداثته.

إنه يضم في مجلمه منظراً رائعًا لم نعرف له نظيراً في جاذبيته.
يمكننا مشاهدة النهر والحدائق والجي العربي من الضفة اليمنى.

إنه فصل الشتاء المعتمد بألوانه الخاصة. وفي البساتين المحاطة
بالجدران تتميز الأشجار بظلال رمادية اللون، وخمريّة وصفراء وذهبية تشكل
تناغماً رائعاً كأنها بساط قديم. تتمايل أشجار النخيل المهيبة فوق بساط الأوراق
المتناشرة، أحياناً منعزلة أو في مجموعات من ثلاثة أو أربع أشجار.
وهي أجمل من أن تتركز في كتلة واحدة، فهي ترتفع بجذوعها الخضراء بطلاقه
وسط المنارات الحزينة.

ينعطف وادي القصب برفق في الجزء السفلي ويتخذ لوناً غير متوقع في الساعات الأخيرة من المellar، إنها ألوان الجمشت المسال أو الذهب المصهور. لكن هذه المدينة، التي يتوقف فيها الوقت وترقد في لونها الرمادي، تهيمن على هذه كل المشاهد.

تبعد المدينة من بعيد وكأنها تغفو في صمت كصمت القبور. إنه الطابع المناسب لتركيبة الأشياء هناك. تتميز الشوارع بأنها ضيقة وقدرة. وكما هو الحال في بوسعدة، فإن البيوت تطل على الأزقة بشرفات صغيرة تتبع للمرء المراقبة منها دون أن يراه المارة الأجانب.



المسيلة/ ... وهي أجمل من أن تتركز في كتلة واحدة، فهي ترتفع بجذوعها الخضراء بطلاقه وسط المنارات الحزينة...



المسلة / ...درج خارجي يتيح الوصول إلى المنزل المطل على كل الاتجاهات ...

غالباً ما يكون هناك درج خارجي يتيح الوصول إلى المنزل المطل على كل الاتجاهات. تنظر الكلاب على السطوح بمنابع غاضب وتكشر عن أنيناها وكأنها تبتسم. نجد هذه الحيوانات في جميع أنحاء البلاد العربية، وهي تشبه بنيات آوى والتي يمكن التعرف عليها بسهولة من خلال خطومها المدببة وأذانها المستقيمة وشعرها الأصفر وذيلها المعقود.

لا يتتنوع التصميم الداخلي لهذه المنازل.

تجمهر الفتيان والفتيات حولنا في الشوارع. لاحظنا بينهم أشكالاً فاتنة. تضع غالبية الفتيات وشما خاصاً على وجوههن، كالصليب على كل خد وخط قصير على الجبهة وعلى الذقن، وصليبان صغيران متراكبان بخط قصير. لفت انتباهنا اثنستان ممن بشكل خاص بجمال عيونهن ودقة تفاصيلهن، ونعومة ومرونة مشيئهم. الأولى تنتمي إلى عائلة ميسورة بلا شك، حيث كان لها مظهر

وزي أميرة بيزنطية صغيرة. كانت ترتدي سترة ملحفة من الحرير المزركش القديم باللون الأخضر الباهت ووشاح أسود ذهبي يغطي نصف شعرها الأشقر الذي تلمع فيه حمرة الحناء. تعلق في أذنها حلقات متوججة. وعلى معصمها أساور جميلة مصنوعة من الفضة القديمة. تلك هي كل زينتها. كانت تقف على رابية تحت ضوء الشمس وبجانبها خروف أشقر وهي تمرر أصابعها الرقيقة في الصوف. كانت تحدق بنا. أعطيناها قطعة نقدية فنظرت إلينا نظرة غضب واذراء بعينيها الخضراوين المشتعلتين لميما.

رفضت القطعة فأعطيناها لأختها فبصقت عليها أميرتنا الصغيرة لأنها قبلت الصدقة.

أما الطفلة الثانية، فاطمة، فهي ابنة فلاح كانت ترتدي ثوبًا منسوجا من القطن عليه بقع مرقطة. ليس في ذراعيها العاريتين مجواهرات وكانت خصلات شعرها الغجرية تنسدل من خرقة قديمة. لكن رشاقتها وعيونها السوداوين المحمليّة وقوامها النقي الصغير وانسجامه مع الثوب الذي يظهر خطوط جسدها، كل هذه الصفات سحرتنا لدرجة أنها اتفقنا أنها تضاهي الأميرة الصغيرة جمالا.

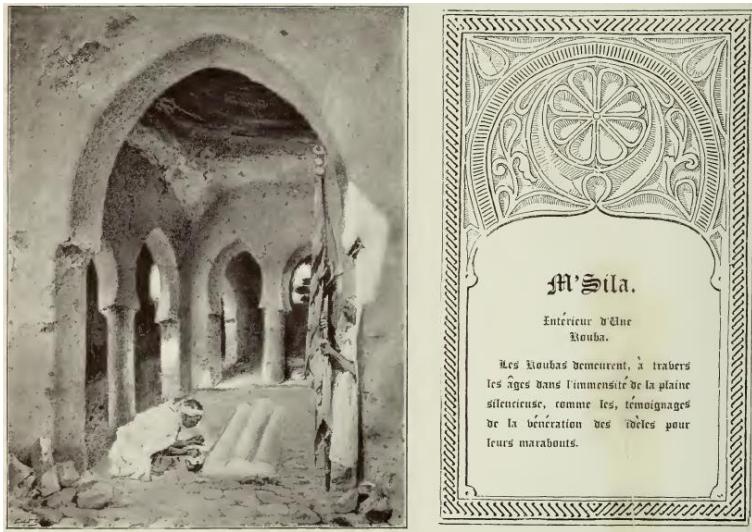
المساجد الثلاثة: بوجملين، سى عمر بن عبيد، خربة التليس. سهل المسيلة

بعد مشاهد الشوارع ذهبنا لزيارة المساجد الرئيسية الثلاثة. أولها وأشهرها مسجد بوجملين. له مدخل أشبه نوعاً ما بالفناء يتوسط صفين من الأقواس الثقيلة. هناك باب وحيد مغلق على مدفن المرابط "بوجملين" وليس عليه أي طابع. على الباب ماسات صغيرة حمراء وسوداء وصفراء محاط بأواني خزفية قديمة بالإضافة إلى نافذة مجاورة. بالقرب من هذا الباب وعلى ارتفاع متر ونصف تمتد من الجدار عوارض أفقية قد ثبتت عليهمما حلقتان حديديتان تفصل بينهما مسافة ما بين الذراعين الممدودتين. تسألنا عن جدوى هاته الحلقتين فوضح لنا الوكيل أنه إن تمكنت المرأة العقيمة من الإمساك بكلتا الحلقتين في وقت واحد فإنه سيأتياها الفرج وتصبح أما!!.. الغريب أن ذراعي الشمبانزي وحدها لها القدرة على الامتداد لهذه المسافة، لذا فإني أميل إلى الاعتقاد بأن المرابط المقدس أراد أن يسخر من النساء وأن هذه مجرد حيلة للأزواج لاسترضاء زوجاتهم.

لا تزال زاوية بوجملين موجودة، لكنها فقدت ازدهارها السابق.



المسيلة/ مسجد بوجملين/... يبدو المسجد فخماً في بساطته وقدمه...



يبعد المسجد فخماً في بساطته وقدمه. فالسقف المؤلف من عوارض خشبية من العرعار والأرز وتدعمه أعمدة تنتهي بتيجان انهارت بمرور السنين. إنه المبني الأول في المدينة الجديدة وهو فعلياً مكان للصلوة.

دمر زلزال عام 1885 مسجد سي عمر بن عابد. ثم استبدل بمبني حديث يفتقر إلى الهندسة البهية وذلك بإعانة من الحكومة. في باحة ذلك المسجد أعمدة حجرية تنتهي بتيجان مصنوعة من جذعين متوازيين تذكّرنا بالدعامات الخشبية للمباني البدائية.

مسجد خربة التليس الذي انهار أيضًا في 1885 أعيد بناؤه في 1897. يحمل المسجد اسم بوتيليس (أو حامل الحقيبة) وهو ليس الوحيد المجل في هذا المعبد. أخبرنا عجوز عربي أنه في الواقع يوجد مرابط آخر وهو سي عمار بوجمعة. يعتبر هذا الأخير أيضًا طريقة لعبادة معينة هناك. ما فاجأني هو أن سيدى بوجمعة ينحدر من جبال نارا، حيث عاش ومات في تلمسان ويستحضر جميع المسلمين ذكراه. فقد عمل راعيا ثم سمع صوت الله وصار من أوليائه. انغمس في نشوة "العشق" وانتصب على حجر عند باب القشوط. وهناك، وقف دون حراك، يعيش مثل "فقير" الهند على صدقات وكرم المارة.

يفتقر مسجد خربة التلisis إلى عدة مزايا، فمئذنته لا يمكن الوصول إليها إلا زحفاً، ولكنها تطل على منظر رائع. فأولاًً، هناك الجبال المجاورة المجاورة في تموجات بنفسجية ناعمة في خليط من الضوء والظل. يتخلل سهل المسيلة قباب بيضاوية الشكل ترتفع على شكل مكعبات. وكل هذه القباب باقية على مر العصور كشهواد على تكريم المؤمنين لمراقبتهم. لو سمح لي بالتعبير عن أمنية فسأدعوا الحكومة لأن تهتم بصيانة هذه المعالم القديمة وكل الآثار المثيرة للاهتمام.

على الجانب الآخر، تمتد الحضنة، في ظلال متدرجة إلى ضباب الأفق الخفيف الذي يتلاشى في طبقات الغروب الداكنة.

Chapitre XI

LE RETOUR

Le retour

C'était la fin, le départ définitif, la dernière journée de cet inoubliable voyage. A 5 heures, par une nuit froide, sous une bise aigre, le coche qui nous emportait partit dans la direction de Bordj-Bou-Arrendj. Pendant toute la durée de notre voyage, j'allais dire de notre pèlerinage dans le sud nous avions été, comme de véritables ouali, favorisés par un temps exceptionnel. Mais le changement de décor ne se fit pas attendre. En effet, lorsque nous arrivâmes dans les contreforts du massif du Maadid, le ciel s'embruma ; de lourdes nuées s'amoncelèrent sur nos têtes, et une pluie fine vint cingler les carreaux de la diligence. Les pentes rocheuses, les montagnes, les vallons, les éboulis de pierres apparaissaient tristes et mornes.

A midi, nous étions à Bordj-Bou-Arreridj, ou. Après un déjeuner sommaire, nous prîmes le train pour Alger. A 9 heures 30, on commença à apercevoir les mille lumières qui se succèdent comme un chapelet d'étoiles tombées du ciel sur la terre, comme un poudroiemment d'or dans la nuit noire.

C'tait le retour vers la civilisation, vers le labeur quotidien. Dès le lendemain, chacun recommença à creuser son sillon, dans la monotonie grise de l'existence.

On se console en faisant revivre, aux heures de loisir et dans les moments de tristesse, les souvenirs, les sensations, les visions des immensités disparues où l'on eut, loin des mesquineries et des compétitions humaines, le sentiment du bel absolu et de l'indépendance réelle.

Mars 1899. CHARLES DE GALLAND.



الفصل الحادي عشر

العِوْدَة

العودة

إنها النهاية، والرحيل الأخير. إنه اليوم الأخير من رحلة لا تنسى. في الساعة الخامسة صباحاً وبعد ليلة باردة لاذعة، غادرت بنا العربية باتجاه برج بوعريج. طوال رحلتنا، فكرت في حجنا نحو الجنوب وكيف كنا مثل الولاة الصالحين في وقت ما. لكن ذلك المشهد بدأ يتغير ولم يدم طويلاً. عندما وصلنا إلى سفوح جبال المعاضيد، تغشت السماء بالغيوم تجمعت غيوم كثيفة فوق رؤوسنا، ثم هطلت أمطار خفيفة وبدأت تضرب النوافذ والأسقف. بدت المنحدرات الصخرية والجبال والوديان والقتل الصخرية حزينة وقائمة.

وصلنا إلى برج بوعريج في الظهرة. بعد غداء خفيف استقللنا القطار المتجه نحو الجزائر العاصمة. في الساعة التاسعة والنصف، بدأنا نرى آلاف الأضواء المتلائمة مثل سلسلة من النجوم المتساقطة من السماء على الأرض ومثل غبار الذهب في الليل المظلم.

إنها العودة إلى الحضارة وإلى العمل اليومي. وفي اليوم التالي سيواصل كل واحد منا شق طريقه في حياته الروتينية. ونتسامر في ساعات الفراغ لنواسي بعضنا بإحياء لحظات الحزن والذكريات والأحساس والرؤى العظيمة المتلاشية حيث نكون بعيدين عن التفاهة والزحمة البشرية، عندئذ سيكون لنا شعور بالجمال المطلق والاستقلال الحقيقي.

مارس 1899 تشارلز دي غالاند.



